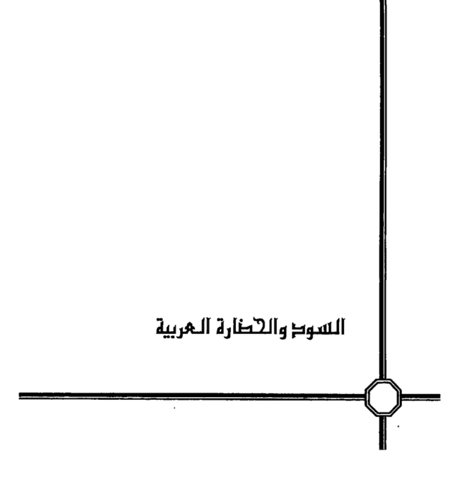
السود والحضارة العربية

دكتور عبده بدوى








السود والحضارة العربية

السُّود والحضارة العربية

دكتـــور عبده بدوى
أستاذ الدراسات الأدبية

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

الكتـــــاب : السود والحضارة العربية
المؤلـــــف : د. عبده بدوى
رقـم الإيداع : ٢٠٠٠/١٥٨٠٢
الترقيم الدولـى : ISBN
977 – 303 – 295 - 7
تـاريخ النشـر : ٢٠٠١
الناشــــــر : دار قباء
للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة :
٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون
الدور الأول - شقة ٦
☎ ٦٣٦٢٥٦٢ – فاكس/ ٦٣٧٤٠٣٨
المكتبـــــة :
١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)
المطابـــــع :
مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)
☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧
www. alinkya.com/kebaa
e-mail: qabaa@naseej.com



مقدمة

أردت من هذه الدراسة أن أتعرف على موقف الإنسان الأسود داخل الحضارة العربية قبل الإسلام وبعد الإسلام، فالملاحظ أن تاريخ هذه العلاقة لم يلق الرؤية من الكُتاب، بل أستطيع القول بأنه لم يلق الإنصاف.

ولكن هذا لن يخفى حقيقة كبيرة تقول: إن السود لم يكونوا مجرد بقع سوداء عدمية على الخريطة العربية، ومعنى هذا أن الإسلام بسماحته قد فتح لهم الأبواب على مصاريعها، ومعنى هذا أنه رفع عنهم الإصر والخوف وكل ما يفتت روح الإنسان، صحيح أنه كان هناك من يغلق هذه الأبوب الرحبة أو يقارب بين بعضها بعضاً، ولكن هذا لم يحل تماماً دون تألق الإنسان الأسود فى بعض الفترات، على نحو ما نعرف من وصول بعضهم إلى الخلافة كابن شكلة، وإلى الإمامة كأحمد الرشيد، وإلى حكم بلد كمصر بأبى المسك كافور، وإلى قيام دول باسمهم كالدولة النجاحية فى اليمن، وإلى قيام ثورات رائدة فى المطالبة بالعدالة الاجتماعية، كثورة الزنج المشهورة..

.. ونحن ابتداء حاولنا أن نثبت أن الجزيرة العربية إذا كان هناك من ألح على أنها كانت قبل الإسلام ممتلئة بأصداء الحضارتين الفارسية والرومانية، فإن هناك حضارة أخرى إفريقية ـ متمثلة أكثر ما تتمثل فى الحبشة، قد كان لها أثر لا يقف إلى جانب الحضارتين الفارسية والرومانية.. ولكنه يتعداهما!

فالأحباش كانوا يوجدون جيراناً، وغزاة، وقوة بشرية كبيرة داخل نسيج الحياة العربية، بل إن خرطوم فيلهم قد مسّ أعز مكان فى مكة، ومن هنا فقد كان لتقدم الأحباش فى الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً أثر –أى أثر– فى أن العرب قد استيقظوا، وطرحوا خلافاتهم ، ونما عندهم حس قومى فائر لم يحدثه تماماً احتكاكهم بالفرس أو بالروم.

.. وانطلاقاً من هذه النظرة وقفت طويلاً عند صلة العرب بالأحباش ثم تكلمت بصفة عامة عن السود من خلال الاسترقاق، والإماء، والاستيلاد، كما تحدثت عن كثرة السود بالجزيرة العربية بعد الإسلام بصفة خاصة، وعن مكانتهم

بين العرب فى الجاهلية والإسلام، وعن مدى اندماجهم، وكيف حدث التصادم معهم بعد الإسلام؟ وإلى أيّ حد وصل هذا التصادم؟ وفى ضوء هذا وضحت أثر الحضارة الإفريقية فى الجزيرة العربية، واستطعت تقديم وثيقة هامة - وجدتها فى المحبَّر لابن حبيب- وهى فى مجموعها توضح مسار العرق الأسود فى الخلية العربية بمكة، كما رفعت ظلماً أوقعه بعض المؤرخين على الإمام الثائر "أحمد الجرانى" وذكرت أن أعظم الانتصارات فى إفريقية قد تمت بعد أن هدأت الفتوحات الإسلامية المبكرة، كما وضحت أن الزعامات الإسلامية بالذات هي التى دافعت عن إفريقية بحرارة. وهى التى ثقبت برصاص البيض بلا مساومة!

وقد قَدّمْتُ وجهة نظر - عن "الشعوبية" وبخاصة بعد أن استقر لدىَّ أن الشعراء السود كانوا هم الرواد الحقيقيين للشعوبية، وليس الشعراء الفرس، فالشعوبيون ابتداءهم أنصار المساواة الأولى فى الإسلام، وهم يطلون بصفة خاصة من الملامح العربية للخوارج، ومن هنا رفعت عن الفرس السيف المتدلى من هذه الكلمة التى صارت خشنة وغليظة فى الحضارة العربية، وعلى كل فلقد نظرت إلى هذه الظاهرة على أنها ظاهرة تاريخية داخل إطار زمنى، ووضحت ما فيها من صراع الثقافات وتلاحمها، ثم انتهيت إلى أن هذا التيار الشعوبى كان يمثل "تياراً مادياً" داخل الإطار الروحى للحضارة الإسلامية.. ولقد كان مما ساعد عليه زهو العرب على غير العرب، كما ساعدت عليه نزعة التنوير التى كانت حصاد الثقافة اليونانية بعد الفارسية، حيث قامت دعوة لتمجيد العقل واعتباره المرد الحقيقى لكل شىء، وكذلك ساعدت عليه فكرة التقدم المستمر للإنسانية، وما يسمى بالقيم الإنسانية فى مواجهة القيم السماوية.

فالأمر فى صورته الأخيرة قد تحول من الصراع القومى إلى صراع على تقرير المصير للثقافة الإسلامية، ومن هنا لا يكون الهدف دائماً وأبداً تقويض الأمة الإسلامية، وإنما يكون فى بعض صوره محاولة غاضبة لإعادة تشكيل النظم السياسية والاقتصادية والثقافية داخل الإطار العام للنظام السائد، وفى ضوء هذا يجب ألا تعنى الشعوبية بمفهومها الجديد الفرس فقط، أو السود فقط - بعد أن وضعناهم فى رأس القائمة - وإنما تعنى كل الذين أحسوا بالقلق الاجتماعى والنفس، والذين تمزقوا أمام المتناقضات التى كانت تتشكل منها الحياة، والذين رأوا أنهم لا يملكون إلا أن يصطدموا بالنظام الذى يحكم.. وبعبارة أدق برجال النظام الذى يحكم.

وقد لاحظت أن الذين كتبوا عن الشعوبية لم يتعرضوا للسود، مع أنهم تعرضوا للفرس، والنبط، والقبط، والأندلسيين، وأمام هذا أثبت أن السود لم يكونوا مجرد زوائد تتدلى من نسيج العالم الإسلامى، فقد كانوا بحق مُتفجّرين بالغضب، وراغبين فى المساواة.. وقد درست هذه الظاهرة من خلال المدرسة التى سميتها "مدرسة الغضب"، والتى كان يمثلها بصفة خاصة الشعراء الغاضبون السود. سنيح بن رياح، والحيقطان، وعكيم.. كما درستها من خلال ثورة الزنج المشهورة، ومن خلال قائدها وشاعرها "محمد بن على"، بالإضافة إلى النجاحيين.

وقد وضحت، بعد دراسة هذه الثورة ودوافعها. أنها لو نجحت، ولم تتحول إلى "عنصرية سوداء" لكانت خيراً وبركة على الإنسان الأسود فى العالم كله، وعلى الإنسان الفقير كذلك فى العالم كله، ولو انتصرت لتغيّر بحق المسار العام للخلافة العباسية، ولتأخر على الأقل انهيارها، ولكان السود هم القوة الحقيقية التى حلت محل الأتراك فى مساندة هذا النظام.

ولقد أثبت أن المرتكز الفكرى لهؤلاء الثوار كان مرتكز الخوارج لا الشيعة، كما خالفت الذين قالوا: إنها كانت ثمرة على شجرة "القرامطة"، ولقد قارنت فى الوقت نفسه بين هذه الثورة وبين الثورات الحديثة، وانتهيت إلى القول بشطط هذه الثورة التى بدأت عادلة، ثم انحرفت بعد ذلك عن مبادئها الأصيلة التى كانت تنادى بتحرير الرقيق، وإنصاف الفقراء، وإنقاذ الخلافة العباسية من الانهيار.

ولكن الذى حدث أنها أصبحت نارًا تأكل كل شيء حولها، ولقد كان من أخطائها الفادحة أنها خلقت ما يسمى "الرقيق المسلم" وهى التى قامت أساساً لضرب هذا النظام، وهكذا تحولت إلى حرب أجناس بين السود وغير السود، وقامت بحركة انفصالية هدفت من ورائها إلى اقتطاع جزء من الخلافة لتقيم عليه "قومية سوداء".

ومع أن سقوطها كان مدوياً إلى حد تهنئة العالم الإسلامى كله بهذا الحدث، إلا أنها برغم كل شيء لم تضع سدى فقد كان من تأثيرها المباشر هز الأرستقراطية العربية هز عنيفاً، بالإضافة إلى تداعى الملكيات الكبيرة، ثم إن الخلافة عملت على تحسين حال الفلاحين ثم كان أن انضمت فلول الثورة إلى القرامطة وهذا يدل - برغم أخطاء التطبيق - على أن جمرة المطالبة بالعدل الاجتماعى ظلت مشتعلة!

وعلى كل فقد تحقق لى أن ثورة الزنج قد تحولت إلى ثورة جنس على جنس، وأنها كانت فى أول أمرها ثورة للإسلام لكنها انحرفت، وبانحرافها اشتد الظلام، وفقد الإنسان فى هذا الوقت المبكر تلك النسمات الأولى التى كانت ترطب الروح بالحديث عن العدالة الاجتماعية.

وأخيراً ..

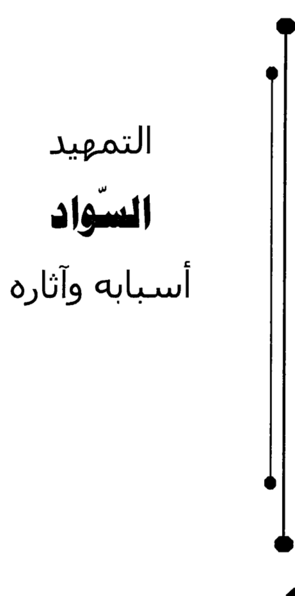
فإنى أرجو بهذا الكتاب الذى كان جزءاً من رسالتى للدكتوراه وبكتب أخرى أن أكون قد وصلت بقدر الإمكان إلى حقيقة وضع الإنسان الأسود داخل الحضارة العربية، وأن أكون قد قدمت ما له وما عليه، وأن أكون فى الوقت نفسه قد ألقيت مزيداً من الأضواء لتفهم بعض الجوانب فى الحضارة العربية.

فكل ما يهمنى أن يظهر الحق – كما قال شاعر أسود. فى أتمّ نور –

٢٠٠٠/٢/١

أ.د. عبده بدوى

أستاذ الدراسات الأدبية



التمهيد

السّواد

أسبابه وآثاره

١- الفخر بالأجناس

الفخر بالأجناس ليس جديداً على البشرية، فهو موجود بوجود القبائل البدائية الأولى، وهو مشكلة قديمة ولكن بمرور الزمن أخذت الظاهرة نوعاً من "التنظير" ومن "التقنين"، وهذا أعطاها شيئاً من "حق البقاء" في الحياة، ومن حق التجول في المسيرة البشرية.. بحيث أصبحت - بحق - مشكلة متراكمة ومتضخمة في القرن العشرين.

وكلمة الجنس Race توصف بأنها من الكلمات الخطرة: ذلك لأنها استغلت استغلالا بشعاً لستويغ المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحتى العلماء أنفسهم تستعمل هذه الكلمة عندهم عدة استعمالات، فالوراثيون في فرع "علم الوراثة" قد يعرفونها بأنها مجموعة من الناس (أو الذباب أو الكلاب) تشترك في عدد كبير من الصفات الموروثة.

والأنثربولوجيون المعنيون بموازنة الكائنات البشرية وتصنيفها، يقولون: إن الجنس عندهم مجموعة كبيرة من الناس الذين يتفقون بسبب الأصل المشترك في الميل بوجه عام إلى إنتاج أنماط جسمية معينة، كالشعر الواحد وشكل الرأس الواحد[١].

وهناك تعريف للجنس يستند إلى فهم العمليات البيولوجية والتطورية يقول: إنه فئة تشترك في مجموعة معينة من الصفات الجسمية الموروثة، وفي أصل جغرافي داخل منطقة بعينها.. وهذا التعريف مفيد للكلام عن الأجناس كما توجد اليوم، ونحن جميعاً نعلم أن المجموعات الجنسية الرئيسية لم تظل منفصلة بالعزلة المطلقة، فمنذ أقدم فترات التاريخ المكتوبة، والكائنات البشرية في تنقل أفراداً أو أفواجاً، محطمة بذلك ما كان قد تطور من أنماط وراثية متميزة[٢].

وإن كان بعض العلماء قد وقف بموضوعية في دراسة كل ما يتصل بالجنس، فإن هناك نوعاً آخر وضع نفسه في خدمة أغراض بعيدة عن العلم مثل هؤلاء الذين قالوا "بالامتياز الآرى" وهؤلاء الذين دمغوا الإفريقيين بالعجز

(١) ما هو الجنس؟ تعريف الدكتور يوسف أبو الحجاج ص٥،٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٥.

الطبيعى، وكتلك المحاولات التى حاول أصحابها إثبات أن حجم الجمجمة وحجم المخ عند السود أصغر من حجمها عند البيض، وقد وضح "أرنولد روز" أن الباحث "مول" أعاد القياس على العينات نفسها التى قاس عليها "روبرت بين" وكانت النتيجة أنه توصل إلى إثبات عدد من الأخطاء الهامة فى القياس، وفى النتيجة التى انتهى إليها[1].

وعلى كل فأكثر الذين بحثوا فى المسائل العنصرية من المختصين فى الغرب يرون أن كلمة العنصر أو الجنس Race ترجع إلى أصل سام، كما يرجحون أنه هو اللغة العربية، وأن هذه الكلمة ترجع إلى كلمة "الرأس" التى كانت تميز بين رؤوس السلالات الآدمية وغير الآدمية.

وإذا كان لا يمكن القطع بأصل هذه الكلمة، فإن من الثابت أن تمييز العناصر البشرية معروف قبل هذه الكلمة التى وجدت فى عديد من اللغات[2].

وقد صاحب هذه الكلمة فكرتان لا يعترف بهما دائماً، أما الفكرة الأولى فهى أن الذين ينتمون إلى جنس معين يمكن تمييزهم عن أى فرد آخر ببعض أنواع من الفوارق الموروثة.

وأما الفكرة الثانية : فهى أنه من الممكن ترتيب العناصر فى تسلسل بالنسبة للجودة[3]. وفى اللغة العربية.

الجنس : كل ضرب من الشيء ومن الناس والطير، ومن حدود النحو والعروض والأشياء، جملة، والجمع: الأجناس، ويقال هذا يجانس هذا أى يشاكله، وفلان يجانس البهائم ولا يجانس الناس إذا لم يكن له تمييز ولا عقل.

والإبل : جنس من البهائم العجم.

والحيوان : أجناس، فالناس: جنس، والإبل: جنس، والبقر: جنس، والشاة: جنس[4].

(١) Rose, The Negro in American, P. 34, Boston, 1957.
(٢) بين الكتب والناس ص٦١، وداعي السماء ص٨ لعباس محمود العقاد.
(٣) فكرة صائبة عن الأجناس والعنصرية، تأليف : فيليب ماسون، تعريف د. شوقى طموم ص٧.
(٤) اللسان ص٥٩٠.

ومــن الملاحــظ أن كــتاب "الشــام" يستعملون فى هذا المقام كلمة "العرق" ويرجّح ساطع الحصرى استعمال كلمة "الرس" لأنها تدل على أصل الشيء[١].

٢- وعــلى كــل فمن قديم والناس تتفاخر بما يميزهم عن غيرهم، سواء أكان هذا الشيء أصلاً، أم نسباً، أم لوناً، أم مالاً، أم سكنى، أم حضارة، وسواء أكان ما يفخرون به حقيقة أم باطلاً.

فقدماء المصريين كانوا يرون أن الإنسان المصرى هو الإنسان الكامل، وأن دونــه درجات يقف عندها الإنسان اليونانى مثلاً فى الدرجة السادسة، وفى اللوحة الــثانية التى عثر عليها للملك سنوسرت الثالث عند "سمنة" على مقربة من الشلال الــثانى، يوجــد شيء من الترفع عند الحديث عن الجنوبيين، وهذا الترفع شبيه بما جاء فى النصائح الموجهة إلى "مريكارع" حين كان الحديث عن البدو الآسيويين.

ويــبدو أن مصر القديمة قد شغلت فى كثير من الفترات "بتمصير" الأجانب، إلى حــد أنها كانت تحرم عليهم التحدث بلغة غير لغة مصر، وفى ضوء هذا يمكن التعرف على موقف مصر فى التنقل بين التسامح والاضطهاد، فالذين كانوا يقبلون مضــمونها الحضــارى كانت تمتصهم وتسمح لهم بالدخول فى نسيجها، أما الذين كــانون يستعصــون على الامتصاص مثل بنى إسرائيل فإن مصر كانت تلفظهم، وتقــف منهم موقفاً صاخباً، فالإسرائيليون قاوموا عمليات "التمصير ".. وفى قصة موسى نفسها نراه قد ألقى بتعاليم مصر بعيداً عنه، واندفع بحماسة نحو تعاليم حياة شــعبه، إنــه كان واحداً من الذين هربوا من مصر، ولم يكن من أولئك الذين كانوا يبذلون قصارى جهدهم ليصبحوا شبيهين بالمصريين"[٢].

ومــثل هذا وجد على عدة مستويات فى الحضارات القديمة، فاليونانيون إذا كــانوا يــنظرون إلى من يسمونهم البرابرة نظرة احتقار، فإن هؤلاء البرابرة كانوا ينظرون إليهم وإلى الرومانيين على أنهم مؤنثون ومبالغون فى الأخذ بالترفيه.

ونحــن نعــرف أن العــرب كانوا يرون من عداهم "أعاجم" يقلّون عنهم فى الحسب والمروءة، ومع أن الإسلام قد غير من نظرتهم إلى الجنس فإن هذه النظرة

(١) آراء وأحاديث فى اللغة والأدب ١٩٥ (دار العلم للملايين - بيروت).
(٢) الحضارة المصرية "جون ولسون. ترجمة أحمد فخرى ص٢٣٢، ٢٣٣، ٤١٢، ٤١٣، ساعات بين الكتب للعقاد ط٣ ص٤٢١.

المـــترفعة لـــم تمت عندهم تماماً، ولنتأمل قول الجاحظ "فإذا ابيض الحمام [كالفقيع] فمثله من الناس الصقلابى، فإن الصقلابى فطير خام تنضجه الأرحام فى البلاد التى شمسها ضعيفة[1]، ونحن لا ننسى أن ابن فضلان الذى عاش بين الإسكندنافيين من أهـــل الشمال فى القرن العاشر قد قال عنهم بعد حديث عن القذارة والابتذال "أنهم كالحُمر المستنفرة"، ونحن لا ننسى كذلك وصف كاتب عربى يسمى سعيد من أبناء طليطـــلة للأوروبييـــن الذين يعيشون شمالى جبال البرانس بقوله: ...إنهم أصحاب مـــزاج بـــارد، وهـــم لا يبلغون مبلغ النضج أبداً، وأن لهم أجساداً ضخمة، وبشرة بيضاء، ولكنهم خلو من البديهة الحاضرة، والذكاء الثاقب، وإذا كان بعض المعتزلة قـــد قـــال عن جماعة من البيض إنهم أمه لم تنضجها الأرحام فإن الحطيئة قد ذكر أنهـــم لـــئام الحسب[2] فالعرب قد خرجوا إلى الدنيا وريح العصبية تملأ معاطسهم، والإســـلام يشعر بهذا من أمرهم، فيصدع فيهم بالرأى جاهراً: ليس منا من دعا إلى عصبية[3].

ثم بعد ذلك تظهر الموضوعية والنظرة الحقيقية للأمور شيئاً فشيئاً على نحو مـــا نعـــرف مـــثلاً مـــن قول أبى حيان التوحيدى: الأمم عند العلماء أربع: الروم والعـــرب وفارس والهند، وثلاث من هؤلاء عجم، وصعب أن يقال العرب وحدها أفضـــل من هؤلاء الثلاثة مع جوامع مالها، وتفاريق ما عندها[4]، ثم يقول: اعتبار الفضـــل والشرف موقوف على شيئين: أحدهما ما خص به قوم دون قوم أيام النشأة بالاختيار الجيد والردئ، والرأى الصائب والفائل، والنظر الأول والآخر، وإذا وقف الأمـــر على هذا فلكل أمة فضائل ورذائل، ولكل قوم محاسن ومساو، ولكل طائفة مـــن الناس فى صناعتها وحلها وعقدها كمال وتقصير، وهذا يقضى بأن الخيرات والفضـــائل والشرور والنقائص مفاضة على جميع الخلق، مفضوضة بين كلهم، ثم إن هـــذه الفضـــائل فى هـــذه الأمم المشهورة ليست لكل واحد من أفرادها، بل هى الشائعة بينها[5].

(١) الحيوان ٣ ٢٤٥.
(٢) الحيوان ٣ ٢٤٥ الأغانى ١٨٤/٥ ، شعراء موريتانيا. محمد يوسف مقلد ١٢٠، ١٥١.
(٣) انظر مالك أمين الخولى ص ١٨٢.
(٤) الإمتاع والمؤانسة/٧٠١.
(٥) المصدر نفسه ٧٢/١.

.. ثــم بعــد ذلك تكون اتجاه حضارى محكم عبر عنه "أبو سعيد السيرافى" بقوله : إن علم العالم مبثوث فى العالم بين جميع من فى العالم.. ولهذا قال القائل

العلم فى العالم مبثوث ونحوه العاقل محثوث

وكذلــك الصناعات .. ولهذا غلبه علم فى مكان دون علم، وكثرت صناعة فى مكـــان دون صـــناعة.. إن الاتفاق لم يحصل فى تفضيل أمة على أمة، ولا فى تفضـــيل بلد على بلد، ولا فى تقديم رجل على رجل، ولو لم يكن فى هذا الأمر إلا التعصـــب والـــلجاج والهـــوى والمحال، والذهاب مع السابق إلى النفس، والموافق لـــلمزاج، والخفيــف عــلى الطــباع والمالك للقلب.. لكان كافياً بالغا بالإنسان كل مبلغ[1].

ثم كان قولهم: الأمم كلها شركاء فى العقول وإذا اختلفوا فى اللغات[2].

ويمكن أن نعثر على هذه النزعة المتنورة عند ابن قتيبة، كما نراها ملاحظة فى مقدمة ابن خلدون.

فالاعــتقاد بــأن الزنجى ينقصه التفكير المعتدل وفد إلى الحضارة الإسلامية من بعض مفكرى اليونان كجالينوس الذى كان يخص الجنس الأسود بعشر صفات مـــن بيـــنها حب اللذة "وإنما غلب على الأسود الطرب لفسّاد دماغه فضعف لذلك عقله"[3].

وفى العصـــور الحديثة وجدنا الألمان يكونون نظرية كاملة تتلخص مبادئها الأساسية فيما يلى :-

١- كل صفات الإنسان وليدة الجنس أو الأجناس التى يرجع أصله إليها.

٢- الجنس الشمالى خير الأجناس.

٣- اختلاط الأجناس أمر ضار[4].

---

(١) المصدر نفسه ١٨٧/٣.

(٢) البصائر والذخائر ٢٧٦/١.

(٣) عن الجاحظ والحاضرة العباسية. د. وديعة طه النجم ص١١٨.

(٤) الإسلام والاشتراكية. ميرزا محمد حسين. ترجمة د. عبدالرحمن أيوب ص١١٦.

..كمـا أنه فى العصور الحديثة تردد أن الإنجليز هم السادة، وأن الفرنسيين هـم معدن الحضارة، وأن الطليان يرون أن أمم الشمال همجية ومتبربرة، والروس يـرون أن عـليهم إصلاح العالم كله من خلال مفاهيمهم الخاصة بالمادية الجدلية "فالفخـر بالأجـناس قديم لم تخل منه أمة أو قبيلة، فما من جيل من الناس إلا وله فضـائل يدعيهـا، ومناسـب يرتفع بها أحياناً إلى آلهة السماء، وأحياناً إلى أعاظم القديسـين، فضـلاً عن المناقب والصفات التى لا شريك له فيها من أجيال الأرض أجمعيـن، ولا غـرابة فى هذه الدعاوى إذا سوغتها ظواهر الأمة، وساندتها القوة، والـثروة، والكلمة الغالبة، ولكن الغريب أن تشيع هذه الدعاوى بين أمم لا قوة لها ولا مـال ولا غلبة، وأنها ربما كانت فى هذه الأمم أكبر مزعماً، وأشد غروراً مما تكـون فى غيـرها كأنما هى عوض عما فقدته الأمة من دواعى الفخر الصحيح، وعزاء عما تصبو إليه من العزة والكرامة"[1].

وهكذا يكون الأمر - كما قال الجاحظ - إنه ليس على ظهرها إلا فخور!

٣- وقد كان وراء هذا وبجواره كتاب "هارون" عن أصل الأجناس، ونظرية نيتشه فى "الإنسان الأعلى" والإشادة بالجنس التوتوني، والقول بأن التطور يستلزم أن تسـتخدم الأجـناس والأنـواع العـليا من هى أحط منها، فالحياة قائمة على الافتراس. وقد توسع "رينان" فى فرنسا فى تطبيقات هذه النظرية، كما ضرب على هذه النغمة فى فرنسا كذلك، "جوزيف آرثردى جوبينو"، وظهرت الفلسفة المعروفة بالجوبينزم Gobinism كما أن "هوستون تشمبرلين" قد ذهب إلى أن المديـنة تديـن بكل شىء للآريين، وبلا شىء لليهود، ولا شىء مطلقاً يرجع الفضـل فيه إلى الأجناس الحامية السوداء فى الجنوب، والقليل - أو ما يشبه العـدم - يرجع إلى الأجناس الصفراء فى اليابان والصين، وأقل من لا شىء يرجع إلى الأجناس السامية فى فلسطين وبابل ومصر[2].

وهـذه الآراء وأمثالها لم تكن مقصورة على المفكرين والفلاسفة الأوربيين، ذلك لأنها امتدت منهم إلى بعض رجال الدين فى أوربا.. ذلك لون من ألوان الفكر الأوربى الـذى ظهر فى القرون التى تلت عصر النهضة الأوروبية الحديثة، وهو

---

(١) ساعات بين الكتب للعقاد ٤٢١.

(٢) بين الكتب والناس ٥٧-٥٩، «نهضة إفريقية العدد ١٥ فبراير ١٩٥٩.

لــون لــم تعهد الإنسانية له شبيها من قبل، اللهم إلا فى بعض عهود الدمار القليلة كعهــد التــتر والمغــول، ومــا أبعد هذه الروح التى اتصف بها جانب من الفكر الأوربى، عن روح الشرق التى اتسمت دائماً بالخير والرحمة والعدالة والإخاء[1].

٣- حاجز اللون :

الذى لاشك فيه أن "النظرية العنصرية" تعتمد بعنف على مشكلة "اللون" وقد نــبهت البشرية إلى هذا من وقت مبكر جداً.. وواصلت السير فى الطريق الخاطئ! فقدمــاء المصريين قد حرصوا فى فنهم التشكيلى على مسألة اللون هذه فقد أعطوا الــزنجى اللون الأسود، والليبى اللون الأبيض، أما اللون الأحمر فقد قصروه على أنفســهم، ولا شــك أن المصريين القدماء قد رمزوا إلى الاختلافات فى المستويات الحضارية بينهم وبين الشعوب المجاورة لهم باختلاف ألوانهم[2].

ومــع أن مصــر القديمة كانت لا ترى مانعاً فى استيعاب الأجناس الأخرى والألوان الأخرى، فإن اليونانيين، والرومانيين قد وقفوا وقفة متعالية من غيرهم.

.. والواقــع أن فى الغرب تاريخاً طويلاً للامتياز الذى إن لم يتصل باللون الأشــقر فعــلاً، فهو على الأقل يتصل باللون "الفاتح" وحتى بين الإغريق القدامى كــانت الأساطير تصور الآلهة منن أمثال أبوللو أشقر اللون، وكل نظام المنبوذين فى الهند يتوقف على ما يسمونه "فارنا" أى اللون، وحتى فى التقاليد الفنية المسيحية نــلمس اتجاهــاً معيناً لتصوير القديسين أشد شقرة من المذنبين الآثمين ولسنا ندرى مــن الــناحية العلمية إذا كان الشقر يميلون إلى أن يكونوا أكثر فضيلة من السمر، والموضوع فى أساسه ليس له معنى[3].

.. وعــلى كــل فالبشــرية مــن بدئها حتى الآن قد سارت فى هذا الاتجاه الخــاطئ، بل يمكن القول بأنها عمقته واستحدثت له العديد من النظريات المساندة، بحيــث اســتقر فى الذهــن دائماً أن السواد لابد أن يكون غضباً من قوة أكبر من الإنسان، ثم إنه "وصمة قابيل" الباقية.

---

(١) صفحات من تاريخ الاستعمار. د. سليمان حزين ٧٩.
(٢) مجلة نهضة إفريقية (العدد ١١ سبتمبر ١٩٥٨) مقال للدكتور رياض.
(٣) أفكار ورجال. تأليف كرين برنتن ترجمة محمود محمود ص٥٨٨.

ونحن إذا أخذنا ما جاء فى سفر التكوين، وفى بعض الأساطير، نجد أنه كان هناك دائماً اتجاه يرمى إلى الغض من الإنسان الأسود ودمغه، ،فهناك قول بأنه قد هيــئت للإنســان فرصة أن يتحول من لونه الأسود – لأنه خلق فى البدء أسود[١] وذلــك بأن أعد ماء خاص لهذا الغرض، وقد تحول الذين تمكنوا من هذا الماء إلى بيــض، أمــا الذين بقوا سوداً فهم الذين لم يتمكنوا من الماء إلاّ بالقدر الذى أصاب راحات أيديهم، وبطون أقدامهم.

وهــناك قــول: بــأن الناس جميعاً أبناء الله، وأن جلودهم فى الأصل كانت بيضــاء،[٢] ولكــن الذين تحولوا إلى سود هم الذين سرقوا "الموز" وكان عليهم أن يرحــلوا إلى أعالى النهر داخل القارة، وهناك أسطورة من جزائر "فيجى" تقول إن من يحسن العمل يحافظ على لونه الأبيض، وعلى الوفرة من الملابس،، ومن يسئ إلى العمــل يتحول إلى أسود، ويقتر عليه فى الملابس، أما السمر فهم فى حالة بين الحالتين.

وتقــول أسطورة: إن الله رأى ثلاثة من السود يبكون، وحين أراد أن يذهب عــنهم حزنهم أمرهم بالاغتسال، ليتحولوا إلى بيض، وقد قيل عملية "التطهير" هذه كــانت لواحــد فقط، وحين أبصرا لونه الجديد ندم، وكان أن أسرع الأول إلى إلقاء نفسه فى بقايا الماء العالق فى التربة، وكان أن تحول إلى اللون الأحمر، أما الثانى فــلم يدرك من بقايا الماء إلا ما يكفى راحتيه وبطن قدميه[٣]، وهناك أسطورة تقول إن الديك الأبيض ينجح فى طرد الأشباح أما الديكان الأسود والأحمر فيفشلان[٤].

وفى الكاميــرون قصة شعبية تقول: إن الله خلق ثلاثة أنواع من المخلوقات هى: الرجل الأبيض والرجل الأسود والغوريلا، وأنه بعد أن تمت عملية الخلق أخذ الله فى يده الرجل الأبيض، تاركاً وراءه الرجل الأسود والغوريلا[٥].

---

(١) نظرية جريجورى تقول: إن إنسان ما قبل التاريخ كان لونه أسود.

(٢) نظرية ماديت تقول : إن الإنسان فى الأصل كان ذا بشرة بيضاء.

(٣) لون البشرة وأثره فى العلاقات الإنسانية، ر.د.ج سيمونز ترجمة على عزت الأنصارى ١٢٠ وما بعدها.

(٤) علم الفولكلور : الكزاندر هجر فى كراب. ترجمة أحمد رشدى صالح ص٢٩٦.

(٥) نهضة إفريقية العدد ٢٠.

ومثل هذه المنوعات نجدها فى عدد من الحضارات القديمة، وفى العربية مثلاً نجد أبن جرير يذهب إلى القول بأن السبب فى السود هو دعوة نوح على ابنه حام حين انكشفت عورته، وتكملة القصة فى نهاية الأرب تقول فأما حام فإنه واقع زوجه فولدت غلاماً وجارية سوداء[١]، وحين أنكرهما قالت له: لحقتك دعوة أبيك، وحين واقعها بعد ذلك ولدت مثلهما.. ومثل هذا تجده فى تسويغ اسم البيض والكحل فى موريتانيا[٢] ويقرب ابن الجوزى من التفكير العلمى حين يقول: فأما ما يروى من أن نواحاً انكشفت عورته ولم يغطها حام فدعا عليه فاسود.. فشىء لا يثبت ولا يصح كما ذهب إلى عدم صحته ابن خلدون فى مقدمته[٣]، ويؤيد جلال الدين السيوطى هذا الرأى اعتماد على قول الرسول "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك السهل والحزن والخبيث والطيب[٤].

أما ابن سينا فى أرجوزته فى الطب فيقول :

بالزّنج حَرٌ غيرَّ الأجسادا	حتى كسا جُلودها سَوادا
والصقلبُ اكتسبتْ البياضا	حتى غدتْ جلودها بضاضا

وقد سار وراء هذه الفكرة النويرى[٥]، كما وقف عليها الشريف المرتضى فقال: فأما الأدمة فليس تؤثرها الشمس على الحقيقة فى وجوهنا وأبداننا، وإنما الله تعالى هو المؤثر لها، وفاعلها بتوسط حرارة الشمس[٦]، أما الجاحظ فردها إلى البيئة الطبيعية حين قال: إن الله لم يجعلنا سوداً تشويها بخلقنا، ولكن البلد فعل بنا ذلك، والحجة فى ذلك أن فى العرب قبائل سوداً كبنى سليم بن منصور، وكل من نزل الحرة من غير بنى سليم كلهم سود، وقد بلغ من أمر تلك الحرة أن ظباءها ونعامها وهواءها وذئابها وثعالبها وشاءها وحميرها وخيلها وطيرها سود[٧].

(١) ١٣/ ٤٠ وقد أراد بالجمع ما فوق الواحد فقال: سوداً.
(٢) الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط ص٤٧١، ٤٧٢.
(٣) المقدمة بتحقيق د. على عبدالواحد وافى ٤٩٠/١.
(٤) مخطوط رفع شأن الحبشان. الورقة ١٤١.
(٥) نهاية الأرب ٤٦/١.
(٦) الأمالى ٣٨٤/٢.
(٧) رسالة فى فخر السودان ص٧٨.

ثـم إن الكنيسـة حيـن أصـدرت مرسـوماً بابويا عام ١٤٥٥ بحق سيادة المسـيحيين عـلى الكفار، تكون قد "بلورت" النظرية القائلة بالحاجز اللونى، فهذا الإجـراء فى الواقـع قد أقر استرقاق الزنوج والهنود الحمر، بل ويمكن القول بأنه أثـار موجة جديدة من الدعاية التى ظلت منطلقة دون قيد عدة قرون، "وليس هناك شىء أقوى من حيوية الخطأ"(١).

فـإذا أضـفنا إلى ذلـك هـذا الانتصار الذى تحقق على المسلمين بوساطة فرديـناند وإيزابلا فى الأندلس، وهذا "الخروج العظيم" للكشف والتبشير والاستعمار فى عـدد مـن بقاع العالم وبخاصة فى آسيا وأفريقية.. أدركنا أن نظرية "الحاجز اللونى" قد اكتسبت إلى صفها السلاح لتعميق أبعادها وفى ضوء هذا تكون عدد من المدارس حول هذه النظرية، ويمكن تلخيصها فى الآتى:

١- المدرسـة العنصرية البريطانية.. وهى تعارض الزواج، والتساوى الاجتماعى بين الأوربيين والزنوج.

٢- المدرسـة العنصـرية اللاتيـنية.. وقد طبقتها الدول اللاتينية وبخاصة فرنسا والـبرتغال وهى تسمح بالزواج، وببعض نواحى التقدم الاجتماعى، فهى تعمد إلى امتصاص الوجود الإفريقى.

٣- المدرسة العنصرية الخاصة بسيسل رودس والمارشال سمطس.. وقد رأت أن مـن مصـلحة السـلالات والأجناس عدم الاختلاط الآن حتى يتساوى الزنج بالأوروبيين حضارياً.

٤- المدرسـة العنصـرية الخاصـة بالدكتور سالان وأعوانه.. وتتفق مع النظرية الخاصة، وإن كانت تفصل بين السود والبيض فصلاً تاماً، وتعمل على عرقلة السود بكافة الوسائل.

.. مـن هذا نرى أن الكائنات البشرية تختلف فيما بينها اختلافاً واضحاً فى لون البشرة.. ويمكن تقسيم كل الكائنات البشرية فى نوع من أنواع الطيف اللونى، كل لون فيه يدخل فى غيره، من الأسود الفاحم إلى ناصع البياض، وإن لم يكن من العسـير جمع الحقائق التجريبية التى تتعلق بهذا التقسيم، فالخلافات الفردية إذن لها أهميـتها القصوى، ومع ذلك فالمجموعات من الرجل الأبيض إلى الرجل الأصفر

(١) لون البشرة وأثره فى العلاقات الإنسانية ص١٥.

إلى الــرجل الأســود لها أهمية أكبر، هذه المجموعات أو هذه العناصر ليست كما يظن الجاهلون أو المتعصبون، ولكن لا ينكر أنها من حقائق الحياة، وربما كان بين الصينى المتوسط والأمريكى المتوسط والإفريقى الزنجى المتوسط - إذا جمعنا كل الصــفات البشــرية وكل ضروب نشاط الإنسان - من التشابه أكثر مما بينهم من خــلاف ولكنهم يختلفون فى لون البشرة، وعلى هذا الخلاف قامت أهمية كبرى فى العلاقات الإنسانية[1]، ومع أن علاقة الإنسان الأسود قد تطورت من علاقة الرقيق بالســيد، إلى علاقة الخادم بالسيد، ثم إلى فكرة الأخ الأكبر إلا أن الذى لا شك فيه أن لون البشرة كان العامل الهام فى تقرير وضع الفرد[2] فى مسيرة الحياة.

١- السواد:

ذكر عدد من العلماء فى أعقاب المناقشات التى دارت حول نظرية "دارون" أن الإنســان ليس نوعاً واحداً، وإنما عدة أنواع، وقد كان معظم القائلين بهذا الرأى من البيض، وفى الوقت الذى كانت فيه سيطرة الإنسان الأبيض تمتد كشبكة لتغطى الكثير من أجزاء العالم.

ولكــن الأبحاث التى جاءت بعد ذلك دلت على وحدة الأصل البشرى، وهو الــرأى المأخوذ به علمياً، فهناك مبدأ وحدة النوع بالنسبة للإنسان، والكلمة العلمية للتقسيمات الفرعية التى يحتويها النوع الواحد هى subspecies.

أمــا فى علم الأحياء فيستعملون كلمة عنصر أو جنس، وبالنسبة للحيوانات التى توجد فى المزارع تستعمل كلمة سلالة أو نسل أو فصيلة.

ولما كان الإنسان فى حركة دائبة، وفى تنقل مستمر فإن الفوارق التى تنمو بيــن أشكاله المختلفة تتلاشى تدريجياً بعضها فى بعض، بمعنى أن "أشكالاً وسطا" تقع بين كل صورة وأخرى" ولذلك فإننا لا نعتبر البيئة هى الأساس الذى يعزي إليه ســر الفوارق القائمة بين صور الإنسان المختلفة، وليس أدل على ذلك من بقاء هذه الصفات المميزة، بل وتزايدها بين أفراد مجموعة من البشر تغير مكان بيئتها"[3].

(١) أفكار ورجال تأليف كرين برنت: ترجمة محمود محمود ص٤٨، ٤٩.
(٢) لون البشرة وأثره فى العلاقات الإنسانية ص٥٦.
(٣) فكرة صائبة عن الأجناس ص٢٠.

فـالقول بـأن السـواد لا يخرج عن كونه نوعاً من الفطرة، أو عن تكيف الإنسـان وفـق البيئة[١] يلزم عنه أنه لو أن قبيلة سوداء قد عاشت فى الشمال مدة طويلة لعادت بيضاء كما كانت من قبل، على رأى من يقول: إن الإنسان القديم كان أبيض اللون[٢].

ثـم إن هناك شعوباً ظلت معزولة بحكم الظروف الجغرافية أو المناخية مثل سـكان أواسـط استراليا الأصليين، ولكنهم يشتركون فى أوجه شبه كثيرة مع بقية الإنسان، وهم صالحون للإنجاب من المجموعات الأوربية، وعاداتهم تمثل - مهما كـانت - طريقة من طرق تطور الإنسان، بالإضافة إلى الأعضاء الداخلية الدقيقة، وفى الجهاز العصبى المعقد[٣].

وعلى كل فإن المورثات genesis تقيد بدء كل منا حقاً.

وقـد وضـع العـالم يده على هذه الحقيقة حين قام "جريجور مندل" بتهجين أنـواع مـن الـبازلاء، وتسجيل حركات النمو، فبهذه الطريقة استطاع أن يكتشف قوانيـن معيـنة للوراثة، هى بحث الأساس الذى يعتمد عليه علم الوراثة الحديث، وهـذه المورثات من الصغر "بحيث لا يمكن رؤيتها تحت أقوى الميكروسكوبات، ومـن الكـثرة بحيث تحدد ذلك العدد الذى لا يحصى من الصفات الجسمية، وهى تعطيـنا الطاقات للون عيوننا وشكلها، ولون جلدنا وتركيبه، وشكل شعرنا ولونه، وبـنية العظـام، والحساسـية بأمراض معينة، وصفات عقلية معينة، ولغير ذلك، وبطـبيعة الحـال تتأثر معظم الصفات الوراثية بعوامل خارجة عن ذواتنا، فطول القامـة وبـنية العظـام مثلاً تتأثر جزئياً بالطعام الذى نتناوله أو بالمرض، ولكن المورثـات التى تولد معنا هى التى تحدد الطاقة، على حين أن البيئة ــ أى الأشياء التى تحدث لنا بعد مولدنا - تحدد أى شكل سوف تتخذه هذه الطاقات[٤].

وفى ضـوء هـذا نرى أن التركيز على الوراثة لا يعنى إلغاء دور البيئة، فمهمـا كـان امتياز عناصر الوراثة إلا أن وجودها فى البيئة غير الملائمة يضيع

(١) يذهب إلى عملية التكيف الجاحظ فى الحيوان ٣١٤/٢.
(٢) لون البشرة وأثره فى العلاقات الإنسانية ص١٩،٢٠.
(٣) فكرة صائبة عن الأجناس ص١٦، ما هو الجنس ص١٢.
(٤) ما هو الجنس ص ٢٢.

فـرص ازدهارها ولمعانها، وحين نصل إلى التطبيق فى هذا المجال مثلاً نرى أن ذكـاء الزنوج يقل عن ذكاء البيض فى الجنوب الأمريكى، ونرى تفوق الزنوج فى الشـمال عـلى الزنوج فى الجنوب بحوالى تسع نقط، ويزداد هذا التفوق فى المدن الكبيرة، كما يزداد مع كل عام يمر على الزنوج بعد هجرتهم إلى الشمال.. وكذلك تـتفوق بعض مجموعات الزنوج الشمالية على بعض مجموعات البيض الجنوبية، كـل هذه الحقائق تشير إلى أن نوع البيئة فى الجنوب وتاريخ الرق فيه وحرمانهم من الحقوق والامتيازات تلعب جميعها دوراً كبيراً فى نشأة هذه الفوارق[1].

وعلى كل فالمورثة gene قد ثبت من خلال العديد من الأبحاث أنها تتصف بـالدوام، كما ثبت أنها تجدد نفسها فى العادة، فهى تضع "نسخة من نفسها" فى كل مرة تنشأ فيها خلية جديدة، أو بويضة جديدة أو حيوان منوى جديد.

ومـع وجـود هـذا النظام ينشأ أحياناً ما يسمى "بالطفرة" حين تضع مورثة قديمة مورثة جديدة.. ولعل الأناس الأوائل الذين ورث منهم الزنوج الشعر المفلفل حصـلوا عـليه بهذه الطريقة، بالطفرة، أو لعل الأناس الأوائل كان شعرهم مفلفلاً، وحصـل الأوروبيـون عـلى شـعرهم المستقيم بالطفرة، لا نعلم كيف حدثت فى الـتاريخ، ولا نعـرف بالضبط كيف تحدث اليوم، ولكننا نعرف معرفة اليقين أنها تحـدث فعـلاً، الطفـرة هى الـتى تفسر كيف ظهر أول طفل مصوف الشعر فى النرويج، تلك البلاد التى يتصف شعبها بالشعر المستقيم[2].

مـن هـذا نصل إلى أن لون الجلد شيء يورث وأن وجود "الطفرة" فى هذا الـنظام هو الذى كان وراء مستويات اللون، ويمكن أن يقال هذا مثلاً بالنسبة للون العيـن وشـكلها، وبالنسـبة لشكل الشعر، أما المورثات الخاصة بالجوهريات (أى الجهاز المعقد الذى يجعل منا نوعاً فريداً) فهى واحدة فى كل الأجناس.

فـالقول بالطفرة، والقول بالانتخاب الطبيعى عند "دارون"، والذى يقوم على القـول بـأن البيـئة اجتثت الأضعف فى القدرة على التكيف فى كل نوع، وتركت أحسـن الذيـن اسـتطاعوا الـتكيف ليتكاثروا بمعدل أعلى.. القول بتفاعل هاتين

(١) فكرة صائبة عن الأجناس ص٥١.
(٢) ما هو الجنس ص٢٩.

العمليـــتين البيولوجيتين الرئيسيتين مع عامل ثالث يمكن أن يؤدى إلى تشكيل طائفة معيـــنة من المورثات، تؤدى بدورها إلى ظهور جنس من الأجناس[١]، ولتحديد هذا يمكـــن القـــول بـــأن لون البشرة تحدده المورثات، وأن التغيرات فى اللون تحددها طفـــرات المورثات، ثم إن أحدث النظريات فى هذا المجال تقول: إنه إذا ما أنتجت الطفرة قوماً سود البشرة آثرتهم البيئة فترعرعوا، وفى ضوء هذا يكون نوع جلدهم أكثر ملاءمة، وأقدر على التكيف مع المناخ الذى يشتد فيه ضوء الشمس، من الجلد فـــاتح الـــلون الـــذى تطور أصحابه وفقاً لمقتضيات بيئات أخرى، ولكن ليس لكل الصفات هذه القيمة فى التكيف بالظروف.

فـــالغدد الـــتى تكـــون تحت الجلد تكون أكثر إفرازاً فى سكان الأقاليم التى تتعرض كثيراً لأشعة الشمس، وعلى مضى السنوات يثبت اللون الداكن أو الأسمر، فـــإذا انتقلت جماعة سوداء البشرة إلى إقليم آخر أقل تعرضاً للأشعة، فإن لونها لا يتحول عن الطبيعة التى اكتسبها فى البيئة الأولى[٢].

ونحـــن لا ننسى هنا ما ذكره الجاحظ عن الأضواء والألوان، وعن مدى ما بيـــنهما مـــن ضـــد وخلاف ووفاق، وكيف أن البياض ينصبغ ولا يصبغ، والسواد يصـــبغ ولا ينصبغ، وليس كذلك سائر الألوان لأنها كلها تصبغ وتنصبغ، وقد تنبه ابـــن ســـيدة فى المخصـــص[٣] إلى أن هـــناك ألواناً قريبة، وهى الأحمر والأسود والأبيـــض، وأن هـــناك ألواناً غريبة لا تدور مدارها، أما النموى فى الملمع[٤] فقد رأى أن الألـــوان الأساسية فى العربية هى فى الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والأخضـــر وقال أنها النواصع الخوالص من بين جميع الألوان، فإن قال قائل فأين الغبرة والسمرة والزرقة والصحمة والشقرة، قيل إنها ليست من النواصع، وكل يرد إلى نوعـــه فالغبـــرة إلى الـــبياض. والســـمرة إلى السواد، والزرقة إلى الخضرة، والصـــحمة إلى الصفرة، والشقرة إلى الحمرة، والمعروف أن العرب أكدت نواصع الألـــوان فقـــالت: أبيـــض يقق، وأسود حالك، وأحمر قانئ، وأصفر فاقع، وأخضر

(١) نفس المصدر ص٢٩.
(٢) الشعوب والسلالات الإفريقية د. محمد عوض محمد ص١٧.
(٣) ١٠٥/٢.
(٤) ص٣.

ناضــر وقــد أطــلق العــرب السواد على جماعة النخل. وعلى الشجر لخضرته، ولمقاربة الخضرة للسواد، استخدموا الأسود للتمر والحرة والليل تلمح صفة السواد فيهــا، كمــا أطــلقوا على الماء والتمر تغليباً، كما أطلقوا الأسود كحليا على الماء واللــبن، وعــلى المــاء والغث[1] فالمصطلح العلمى للون يقول إنه خاصة ضوئية تعــتمد على طول الموجة، ويتوقف اللون الظاهر للجسم على طول موجة الضوء الــذى يعكسه، فالجسم الذى يعكس كل الموجات يبدو لونه أبيض، والذى لا يعكس أى موجــة يــبدو أسود. وقد ذكر الرأى الذى يقول: إن الألوان كلها إنما هى من الســواد والــبياض وإنما يختلفان على قدر المزاج، ثم وقف عند القول الذى يقول بالقوة للسواد على البياض، إذ أن الألوان كلها كلما اشتدت قربت من السواد وبعدت عــن البياض فلا تزال كذلك إلى أن تصير سواداً[2] ومعنى هذا أن الكلام فى فلسفة الألوان كان قضية من قضايا الفكر عند المتكلمين المسلمين من وقت بعيد.

(١) اللغة واللون د. أحمد مختار عمر ٤١.
(٢) الحيوان ٥/٥٦ وما بعدها.

آثاره

١ - هل هناك فروق بين البيض والسود، وما هذه الفروق ؟

أمـــا أن هـــناك فوارق، وأن هذه الفوارق قد تكون شاسعة فشيء لا خلاف عليه، ثم إن هذه الفوارق يتدخل فيها بشكل كبير عاملاً الوراثة والتعليم، في الوقت الذي يستحيل فيه إثبات عامل الجنس في إحداث هذه الفوارق(١).

وعـــلى كـــل فلكي نجيب على السؤالين المطروحين هنا، لابد أن نسأل هذا الســـؤال الـــذي يقول: هل هناك جنس ممتاز؟ ولما كان الامتياز يتعلق عادة بثلاثة موضوعات هي:

١- الامتياز في الدم.

٢- الامتياز في الذكاء.

٣- الامـــتياز في الثقافة.. بالإضافة إلى ما يستتبع هذا من فروق نفسية فإنه ينبغي أن نرى في هذا كله كلمة العلم:

١- الجنس والدم:

نحـــن نســـمع عـــادة هـــذه العبارات التي تتكرر، والتي تقول: إن الدم ينبي والأصل "يونس" وهذا دمه أزرق، وفي عائلة فلان دم يهودي أو زنجي، بالإضافة إلى القول "بالأرومة".

وكـــل هـــذه المرددات الشعبية - إن صح التعبير - تعتبر نتاجاً خاطئاً لتلك الفترات التي سبقت طريقة اكتشاف المورثات حين كان يعتقد أن الصفات الموروثة تنقل بوساطة الدم.

وعلى كل فالناس جميعاً - بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو أي مميز آخر - ينقسمون إلى أنواع محددة بحسب نوع المواد التي تضمها خلاياهم الدموية الحمـــراء، وهـــذه الأنـــواع المحددة يرمز لها بالرموز الآتية "أ"، "ب"، "أب"، و"و". فالمورثـــات المسئولة عن هذه الأنواع موجودة في كل مكان في العالم، وإن كانت

(١) فكرة صائبة عن الأجناس والعنصرية ص٥٣.

"ينسب" هذه المورثات تختلف أحياناً من بيئة إلى بيئة ومن جنس إلى جنس.. ومن توزيع المورثات التى تحدد فصيلة الدم أكثر من أى شىء آخر، نستطيع أن نبين فى جلاء أن المجموعات البشرية، أجناساً سميت أو قبائل أو شعوباً، تملك فيما يبدو التشكيلة الأساسية للصفات الوراثية نفسها ولكن بنسب مختلفة، والمجموعات التى تصير منفصلة تشترك فى: أنها تختلف عن المجموعات الأخرى باحتفاظها بنسبة مختلفة من أنواع العناصر الوراثية نفسها[1].

٢- الجنس والذكاء :

يرى بعض العلماء - نظراً لأنه يصعب اختبار الطفل عند مولده وقبل الولادة وبعدها - أنه خير من تحديد أى الجانبين أهم الوراثة أم البيئة؟ أن نتعرف على الكيفية التى يعملان بها معاً، فالطفل يأتى بالأوليات الجسمية عن طريق "المورثات" ومن هذه الأوليات يتطور بتناول الطعام ".. وأيما شىء تناوله حوله إلى نوع مادته الخاصة به، فالطفل لا يستحيل إلى كائن بشرى فحسب، بل إنه يستحيل إلى شخص من نوع معين"[2].

وعلى الرغم من أن هناك تفاوتاً كبيراً فى المقدرة الذهنية داخل كل المجموعات الجنسية والدينية والقومية، إلا أن هذا يعنى أننا إذا وضعنا مجموعة منتجة من البيض والسود معاً فى بيئة مختارة اقتصادياً وتربوياً، فإن نتائج الاختبارات العقلية ستجنح للتحسن فى المتوسط، وفى الوقت نفسه إذا عاشت المجموعتان فى بيئة ذات مستوى منخفض من الناحيتين الاقتصادية والتربوية، فإن النتائج ستميل إلى الرداءة. وفى ضوء هذا يظهر أن الاختلاف بين الأفراد فى الجنس نفسه أعظم من الاختلاف بين متوسطى أى جنسين، كما يظهر أن حالات الذكاء الخارق والقصور العقلى لا يختص بهما جنس دون الآخر ".. ويبدو أن هذه الحالات الفاجعة موزعة بين كل شعوب الأرض توزيعاً عادلاً"[3].

(١) ما الجنس ص٥١.
(٢) المرجع نفسه ص٥٤.
(٣) نفس المرجع ٥٦-٥٩.

.. وهكـــذا يتأكد عدم صحة الآراء التى تقول بالفروق العقلية بين السلالات البشـــرية على أساس من الجنس، وإن كان هذا لا ينفى وجود تأثيرات على النشاط البشرى، وعلى التوجه نحو حرف خاصة وإنتاج غلات معينة[1].

وقـــريب مـــن هذا قول النظّام فى علاقة الذكاء بالجنس فهو يقول: إن الأمة التى تنضجها الأرحام (يقصد الجنس الأبيض) ويخالفون فى ألوان أبدانهم، وأحداق عيونهم، وألوان شعورهم سبيل الاعتدال، لا تكون عقولهم وقرائحهم إلا على حسب ذلك، وعلى حسب ذلك تكون أخلاقهم وآدابهم وشمائلهم وتصرف هممهم فى لؤمهم وكرمهم لاختلاف السبك وطبقات الطبخ.. كالتفاوت الذى بين الصقالبة والزنج[2].

وقـــريب مـــن هـــذا ما جاء فى البخلاء للجاحظ فقد قال: قد علمنا أن الزنج أقصـــر الـــناس فكرة وروية وأذهلهم عن معرفة العاقبة[3] وقد قرر هذا فى رسالة فضل السودان.

وعـــلى كـــل، فكـــل هذا لا ينفى وجود العامل الوراثى فى درجة الذكاء مع مـــراعاة أن العامل الوراثى هنا ليس من العوامل الوراثية النوعية الذى ينتقل عن طـــريق "جيـــن" واحـــد، ذلك لأنه عامل كمى، ويوجد فيه تداخل بين المجموعات البشرية المختلفة كما هو الحال فى خاصية الطول[4].

٣- الجنس والثقافة :

مـــن الأقـــوال الـــتى يســـلم بها الآن أنه توجد صلة بين التكوين البيولوجى للشـــعوب وبيـــن مســـتوى ثقافـــته، كمـــا أنه ليس هناك سبب وراثى أو بيولوجى لافـــتراض أن بعـــض الأجـــناس قد يكون أقل استعداداً من البيض لتعلم نوع من المهـــارات الفنية، صحيح أن حضارة البيض الآن لها الصدارة، ولكنها مسبوقة بلا شـــك بحضـــارات لأجناس غير بيض، أنه لا يوجد ما يمنع الآن من منافسة غير الـــبيض للـــبيض عـــلى كافة المستويات، ما دامت الفرص ستكون متكافئة بالنسبة

---

(١) الجغرافيا والتحرر الإفريقى. د. عبدالعزيز كامل ص٤.
(٢) الحيوان ٣٥/٥، ٣٦.
(٣) ص ١٦٠ بتحقيق د. طه الحاجرى.
(٤) فكرة صائبة عن الأجناس والعنصرية ص ٤٥.

للجميع، ثم إنه لا يوجد كذلك من علماء الوراثة المحدثين من يعتقد أنه وجد بين أسلافنا، أو أنه ظهرت بالطفرة "جينات" خاصة بالثقافة، فليست هناك مورثات تجعل من الإنسان شاعراً أو رساماً أو سياسياً أو قاطع طريق، كما أنه لا يوجد فى الجنس الزنجى مورثات خاصة مثلاً بموسيقى الجاز.

نقول هذا ونحن نعرف أن الطفل الأبيض الذى يصهر داخل حضارة متقدمة تتفتح مواهبه عن الطفل الذى يعيش داخل ثقافة بسيطة منعزلة، فالطفل الأول من السهل عليه أن يدرك أن ٢+٢=٤ ومن السهل عليه أن يتدرج من السبب إلى النتيجة، وأن يتعرف شيئاً فشيئاً على هندسة الوجود من حوله، ولكن الطفل الإفريقى الذى يولد فى قرب غابة، وفى صحراء أو مرعى، يجب عليه أولاً أن يدفع عن نفسه تأثيرات الأرواح والسحر والنظرة الساذجة للأشياء، ثم عليه بعد ذلك أن يدخل عالم القوانين العلمية الصارمة فهناك "فترة ضائعة" من حياته بالنسبة للطفل الأبيض. ومع هذا فإن هذه الفروق تبدو ثقافية وليست جنسية، ويمكن أن يتغير الحال لو أن الطفل الأسود عاش فى مناخ حضارة علمية، ولو أن الطفل الأبيض قد حكمت عليه الظروف بأن يعيش الحياة نفسها التى يعيشها طفل أسود.

وما يجب أن يدرك فى هذا المجال أن الإنسان الأسود قد حصل من الثقافة ما يحتاجه ".. إن العبرة بالمجهود العقلى الذى يتطلب فهم أمر من الأمور لا بالطبقة الثقافية التى تحسب لذلك الأمر فى سلم الثقافة العامة"[1]. فالجواب حين تحكم على مدركاته العقلية أن تفد إلى أذهاننا تلك المعوقات التى باعدت بينه وبين غيره فى مواطن الإدراك، وهى مباحث العلوم والصناعات فقصوره فى الهندسة والفلك والكيمياء ليس لنقص فيه، وإنما لأن حياته لم تلجأ إلى الملاحة فى البحار الواسعة، ولم تلجئه إلى إقامة الصروح والبناء بالأحجار، ولم تلجئه إلى إقامة الصروح والبناء بالأحجار ولم تلجئه إلى التفنن فى إعداد الأطعمة، وصناعة الأكيسة، ولم تلجئه إلى أن يحفظ طعامه خوف العطب والحاجة، ولم تلجئه فى الحرب إلى مد أجل الحصار وتنوع الأسلحة "فكل ما احتاجوا إليه من ضرورة المعيشة وجدوه سهلاً ميسراً غنياً عن الجهد والحيلة فى مواعيده التى تعودوها،

(١) داعى السماء ص٤٦.

فالأمم التى عرفت الهندسة والفلك والعمارة والكيمياء وأدوات البذخ والرفاهية إنما عرفـتها لأنهـا لا تستطيع أن تعيش فى بيئتها حقبة طويلة بغيرها ولو عاشت فى القارة الإفريقية كما عاش الزنوج لأهملتها ولم تفكر فيها"[1].

ونحـن لا نسلم بأن الجنس الأسود لم يكن له إسهام فى الثقافة نظراً لأنه فقد أساسـين هـامين همـا :- فن الكتابة، وفن العمارة، ذلك لأنه فى إفريقية جنوب الصـحراء تندر الحجارة ويصعب فى الوقت نفسه نقلها من مكان إلى آخر، ولأن الـبردى والجلود بل والخشب وكل ما يمكن الكتابة عليه لا يعيش مدة كبيرة بسبب الحشـرات ورطوبـة الجو.. وإن كان هذا لم يمنع قبائل "الوى" فى سيراليون من اخـتراع نـوع بسـيط من الكتابة يفى بأغراض القبيلة، بالإضافة إلى اللغة العامة المنتشـرة وهى لغـة الكتابة بالطبول والموجهة أساساً إلى الأذن، فالطبول "تحفظ الـنص بدقة أكثر لأنها - وهذا ناتج من طبيعة اللغة الموسيقية - لا تحفظ الإيقاع والتنغيم فقط، ولكنها تحفظ الرنين الكامل للكلمة"[2].

ثـم إن هناك عدة مكتشفات ظهرت أخيراً لآثار ما قبل الميلاد وبعده، وكلها توضـح أن الإنسان الأسود لم يكن "مادة غفلاً" طيلة حياته، وإنما كان له دور رائع فى الثقافة[3].

وعلى كل فما نريد أن نصل إليه هو أن ثقافة إفريقية قد حالت دون وصولها إلى مراكز الثقافة الأخرى.. الصحارى، والغابات، والسواحل المنفرة، وما نريد أن نصل إليه كذلك أن مشكلات التقدم والتأخر - برغم وجودها الحقيقى الآن - إلا أن تفسـيرها الحقيقى لا يرجع إلى الجنس، ذلك لأن الظروف المحيطة كانت بلا شك "مفتاح الموقف".

وفى ضـوء هـذا نـرى أن الزنجى حين ينشأ متصالحاً مع ثقافة متقدمة لا يختـلف عـن الإنسـان الأبيـض، فالزنج - على حد تعبير ريتشارد رايت - لم يصبحوا زنوجاً إلا لأنهم عوملوا معاملة الزنوج، وعلى هذا يمكن "تزنيج أى أبيض

(١) المصدر نفسه ص٥١-٥٣.
(٢) الإنسان. جانها ينزجون. ترجمة عبدالرحمن صالح ص١٩٤-١٩٧.
(٣) إفريقية تكتشف من جديد. باسيل دافيدسون. ترجمة نبيل بدر، وسعد زغلول ص٦٨، فجر التاريخ الإفريقى. ترجمة عبدالواحد الإمبابى ص٤١-٤٢.

فى أقل من ستة أشهر حين يوضع تحت الإجراءات المتعسفة والأحقاد والمظاهرات العدائية[1].

وقد تنبه لهذا ابن قتيبة حين ذكر أن من قدم من شق العراق إلى بلد الزنج لم يـزل حزيناً ما أقام بها، فإن اندمج فى الحياة التى يحياها الناس هناك لم يكن بينه وبيـن المعتوه إلا شىء يسير[2] وحين نقرأ رثاء فيرلين لرامبو نجده يقول: ولكنك على الأقل تريد الميتة التى تريد، زنجيا أبيض، متوحشاً رائع التمدن[3].

ومهمـا يكـن مـن شىء فالسود الذين يوجدون فى وسط أوربا أو أمريكا ويكونـون مـنقطعى الصلة بالثقافة الإفريقية يعتبرون بيضاً كباقى البيض فيما عدا لـون بشرتهم، ولكن الذى يحدث أن البيض يرون أن هذا السواد عار، وفى الوقت نفسه يعملون على أن يحس الأسود بهذا العار، وبهذا فالأسود الأمريكى يذكر دائماً بأصله الذى فقد بمرور الأيام كل معنى بالنسبة له[4].

٤- الجانب النفسى من المشكلة :

لقـد ظل الرجل الأبيض من فترة كبيرة لا ينظر إلى الرجل الأسود إلا على أنـه مجـرد عبد أو عدو له، سواء أكان عاملاً فى مزرعته، أم حمالا ينحنى تحت حاجياتـه، ثـم إن الظروف العاطفية للعلاقات بين المحاربين فى المعركة، أو بين السـيد والخـادم لم تكن تسمح للرجل الأبيض بأن يرى الرجل الأسود إلا على أنه واحد فى جماعة، وليس فرداً.

ولقد حاولت الهيئات التبشيرية أن تعالج قضايا السود من حيث.. "الشخصية الفـردية" ولكـنها لم تحقق فى هذا نجاحاً كبيراً، ذلك لأن "المبشر" كان يرى نفسه "وصـيا" يمـثل حضارة سامية يجب أن تدمر حضارة الرجل الأسود لأنها مناوئة للمسـيحية[5]، ويذهب برتراند راسل إلى أن الجذور الغريزية للاضطهاد العنصرى القائم على الكون ترجع أساساً إلى الخوف من الخضوع لسيطرة أجنبية "وهو خوف

---

(١) اسمع أيها الإنسان الأبيض ص١٤٠.
(٢) عيون الأخبار ١/٢٢٠.
(٣) رامبو : صدقى إسماعيل ١٨٧.
(٤) الإنسان ص٢٠، ترجمة عبدالرحمن صالح.
(٥) The African Image by Ezekiel Mphahlale, P. III.

يـــرجع بعــــض السبب فيه إلى عملية (الاستيطان) السيكولوجى "فهو يذكر أنه قابل جماهيـــر غاضبة فى إنجلترا ولكنها لم تخفه بقدر ما أخافته فكرة وهمية عن إمكان حـــدوث ذلـــك فى اليابان.. وإلى جوار هذا الجانب يوجد جانب آخر وهو الشعور بالاشـــمئزاز نحـــو المجهول والغريب[1]، فالنمل يقتل النملة التى تنتمى إلى جحر آخـــر، والحمـــام المأســـور ينقض على الحمامة الدخلية ويظل ينقرها حتى تموت، فالشىء الغريب لا يمكن فهمه، وما لا يمكن فهمه خطر[2].

مـــن هـــنا نـــرى أن العلاقة غير متوازنة، ونرى أنها تؤثر على العلاقات النفسية بين عالمى البيض والسود.. فإذا تركت هذا إلى العوامل النفسية التى تكمن وراء الاســـتعمار الأوربى الحديـــث، وجدنا أنها ترجع فيما ترجع إليه – إلى شهوة الامـــتلاك واقتناء الأشياء، وهى ظاهرة يعرفها علماء النفس حين تبدأ برغبة الفرد فى امـــتلاك مـــا يشبع حاجاته الأصلية، ثم تتحول بعد ذلك إلى التطلع إلى ما عند الآخرين واغتصابه.

ووجدنا إنها ترجع إلى حب التنافس والظهور، وهذه الظاهرة يتصف بها فى العـــادة الضعفاء والمصابون بمركب النقص أو بالعظمة الجوفاء.. فإذا أضفنا "حب القـــوة" إلى الشعور بأن أوربا قارة صغيرة تقع فى ركن من أركان العالم، ولم تكن لهـــا مشاركة فى مسيرة الحضارة البشرية إلا بقدر.. إذا أضفنا ذلك، أدركنا الدوافع النفســـية التى تحكم نظرة الرجل الأبيض إلى الأسود، والتى تربى عنده ما يعرف "بالنجروفوبيا" وهى تلك الحالة النفسية من المقت والكراهية التى تتحرك فى الرجل الأبيض ضد الرجل الأسود.

ومن الطبيعى أن الرجل الأسود قابل كل هذا بهزات نفسية، وبطبيعة خاصة جعلته يتصرف فى ضوئها مع الرجل الأبيض.

ومـــن خـــلال هذه التوترات النفسية نشأت تلك الحالات المتعددة التى تحكم العلاقات بينهما، وهذه الحالات هى :

(١) آمال جديدة فى عالم متغير. ترجمة عبدالكريم أحمد ص ١٠٦.
(٢) المصدر السابق ص ١٠٧.

١- التحامل :

ويكـــون نتيجة للتلقين والتجربة، وقد عرف بأنه: الموقف العدائى الذى يقفه إنسان نحو إنسان آخر ينتمى إلى جماعة ما بسبب انتمائه إلى هذه الجماعة، وقيل: إنه الرأى الذى يستند إلى مفاهيم خاطئة سواء أكانت النتيجة طيبة أم غير طيبة.

٢- وصمم النوع :

وهو نسبة بعض الخصائص لكل فرد فى جماعة، مثل كل الإفريقيين سود.

٣- الدمغ :

وهــو ينشـــأ من الجهل أو من الأحكام التى لا تستند إلى أسس سليمة مثل: الزنوج آكلو لحوم البشر، أو البيض يقتلون الجماعات الكبيرة.

٤- كره الأجنبى :

وهو النفور الغريزى من كل ما هو غريب، كالتحفظ نحو جماعة بعينها كما فى جنوب إفريقية، أو أمريكا.

٥- رد القيمة أو "الاعتبارات"

كمـــا فى رســم صـــورة المســيح فى بعض الكنائس على صورة زنجى، والعذراء على صورة زنجية.

٦-التعصب: يقوم على صورة عقلية عامة تطبق عشوائياً وبدون قياس لحقيقة كل فرد.

٧- التفرقة :

إذا كان التعصب حالة عقلية، فإن التفرقة "فعل" يفعل.

٨- الفصل الاجتماعى :

وهـــو عـــزل كـــل جنس عن الآخر فى السكنى، وبعض المحال والنوادى، وكذلك بتحديد عمل لكل عنصر(١).

(١) لون البشرة وأثره فى العلاقات الإنسانية ص٢٣-٢٩ : ٥٧ - ٦٨، نهضة إفريقية (العدد ٢٢ سبتمبر ١٩٥٩).

وعلى كل فقد اهتدى الطبيب والعالم النفساني "فرانزفانون" إلى أن معظم الزنوج الأمريكيين يعتبرون مرضى من الناحية النفسية، ويتصرفون في حياتهم تصرف المرضى، ذلك لأن هناك نوعاً من لا معقولية الحياة يسيطر على حياتهم، ولأنهم يذكرون دائماً بأنهم شيء مخالف للطبيعة البشرية السوية[1].

من كل هذا نرى أن هناك فروقاً نفسية بين السود والبيض، وأن هذه الفروق ترجع إلى أسباب كما تجوز عليهم تجوز على غيرهم.. فمن يوضع في مثل هذه الحالات المشابهة لابد أن يظهر عليه هذا النوع من الأمراض،، سواء أكان قوة تضغط، أم قوة مضغوطة، ومما يؤيد هذا قول الزعيم الأسود "ستوكلى كارمايكل" صاحب الدعوة إلى ما يسمى القوة السوداء.. قوله: "إننا أحسسنا جميعاً بكعب الحذاء القاسي الذي لا يرحم للسيادة البيضاء، لقد جعلنا "زنوجاً" بشكل أو بآخر، وقد صممنا جميعاً على أن من واجب الإنسان الأسود هو التخلص من عالم الزنوج[2].

٣- ما تأثير هذه الفروق على النتاج الأدبي والفني :

(١) إذا كان عدد من المفكرين قد حفروا خنادق الفوارق بين الأجناس، بل ذهب بعضهم مثل الكاتب الفرنسي دى جوبينو De Gobineau إلى أن الأوروبيين أنفسهم يتفاوتون في درجة الارتقاء إلى حد القول بفكرة الإنسان الأرستقراطي بالطبيعة.. إذا كان بعض هؤلاء المفكرين قد ذهب إلى مثل هذه الأفكار، فإنا نجد كذلك عدداً من الأدباء والفنانين قد تبنوا هذه الاتجاهات.

فابتداء نجد أن "عطيل" في عالم شكسبير، مع أن "اياجو" يطلق عليه كلمة ذا الشفاه الغليظة، إلا أن الإنسان يحس أن السبب في الاعتراض على زواجه من "ديدمونة" كان يرجع إلى أنها من الطبقة الأرستقراطية لا لكونها بيضاء[3].

وعلى كل فالقول بأن الوراثة هي الأساس في الفروق الطبقية موجود بحسم في القصص الإنجليزية التي كتبت في القرن التاسع عشر، وفي نهاية القرن التاسع

(١) الإنسان ص ٢١.
(٢) الطليعة العدد ٨ من السنة الرابعة ص٦٦.
(٣) أمال جديدة في عالم متغير ١٠٨.

عشـــر حيـــن كان الصراع حول إفريقية قد وصل إلى الذروة وجدت أعمال تؤكد فكـــرة الـــتمييز العنصــــرى على نحو ما هو معروف فى أعمال كبلنج Kippling وريدرهاجارد Rider Haggard.

"وهكـــذا أصبحت الوراثة فى نظر هذه العقيدة هى السبب الأساسى فى قيام هذه الفوارق العنصرية[1].

وهذه النظرة التى تشوه الإنسان الأسود توجد فى "كانديد" لفولتير وفى "الأب جوريـــو" لفوتـــران، وفى "تمبكـــتو" لموباســـان "وفى بـــاريس المجهولة "لبريفات وانجيـــليمون، حتى "دوماس" الذى تجرى فى عروقه دماء زنجية يتهكم فى روايته الطويـــلة "جورج" على الزنوج الذين نسوا ثورتهم من أجل الحرية حين وجدوا فى طريقهم بعض البراميل المملوءة بالنبيذ[2]، ولا شك أن هذه النظرة قد تغيرت أخيرا كما فى أعمال سارتر، وتنيسى وليامز.

(٢) ويهمـــنا هـــنا أن نتعرض لتلك النظرية الشهيرة التى تعرض لها هيبوليت تين Hippolyete Taine وتعـــتمد عـــلى مرتكـــزين يقولان بالتأثير المتبادل بين العوامـــل الطـــبيعية والعوامل النفسية وبأن الأبحاث العلمية لابد أن يكون لها تأثيـــر فى الأدب والفـــن، وقد نصح المؤرخين بضرورة دراسة هذه العوامل النفسية والاجتماعية التى إليها ترجع الخصائص الثقافية والاجتماعية لكل أمة، وقد حصرها فى ثلاثة عوامل هى:

١- الجنس. ٢- البيئة.
٣- القوى الموجهة للعصر والمكتسبة فيه.

وهـــو يقصد بالجنس مجموعة الاستعدادات الفطرية التى تميز مجموعة من الـــناس انحدروا من أصل واحد، وهذه الاستعدادات مرتبطة بالفروق الملحوظة فى مزاج الفرد وتركيبه العضوى[3].

---

(١) فكرة ضائبة عن الأجناس والعنصرية ص٣١.
(٢) دفاع عن إفريقية. سعد زغلول نصار ٥٠ : ٥١.
(٣) الأدب المقارن. د. غنيمى هلال ط ٣ ص٥٥، ٥٦.

فالجنس الزنجى مثلاً له صفاته العضوية الخاصة به، وله خصائصه الفكرية الـتى تظهـر فى نتاجه العقلى والفلسفى والفنى، مهما تفرقت بين أبناء هذا الجنس البيـئات، ومهمـا كان خضوعهم لنظم متنوعة من نظم الحكم ومهما اختلفت بينهم درجة التمدين.

وهـو يـرى أن عـامل الجنس هو أقل العوامل الثلاثة فى اختلاف الإنتاج الفكـرى وتنوعه، فخضوع الجنس للبيئة الطبيعية ونظم الحكم والعادات والتقاليد قد جعلته يكتسب صفات مشتركة ثابتة كأنها الغرائز الفطرية التى لا سبيل إلى القضاء عليها.

كمـا يـرى أن هناك أجناساً كبيرة تندرج تحتها أجناس أخص منها، وحين يـأخذ فى التطبيق على نظريته يقول: إن الأشعار الأنجلوسكسونية يلحظ بها بعض مظاهر لقوة الخيال، وضعف الاعتقاد فى الحياة الأخرى، وفيض من الإحساس أمام الطبيعة، كما تلحظ فى الوقت نفسه دلائل قوة الإرادة والاتجاه العملى[١].

فإذا قيل إن الفرنسيين يحبون الكلام الجيد فهذا حكم يرجع إلى "الجنس" وإذا قيل إنهم يحسنون الكلام فى حضرة الملوك كان مرجع ذلك إلى البيئة[٢] حيث رقى الأدب فى أندية الملوك، وإذا قيل إن النثر الجيد ازدهر فى عصر لويس الرابع كان ذلك بتأثير "اللحظة".

وإذا قيل إن "راسين" هو شاعر الملوك بحق كان ذلك بياناً للموهبة الرئيسية فيـه، وقياسـاً عـلى هذا إذا أردنا أن نبحث عن "شوقى" كان لابد أن تتعدّى إلى تركيـته، وإلى المواطـن الـتى درج فيها طفلاً ودارساً وممارساً للحياة، أما تأثير الـلحظة فنراها بوضوح فى شعره السياسى والوصفى للملوك وحياتهم، فإذا انتهينا إلى أنه شاعر الملوك والأمراء كان مرد ذلك إلى القوة المسيطرة عليه، وهذه القوة قد كان من ورائها: الجنس، والبيئة، واللحظة[٣].

---

(١) نفس المرجع ص ٥٧.

(٢) تنبه لهذا عند الحديث عن رقة شعر عدى بن زيد ابن سلام فى طبقاته ١١٧، وابن قتيبة فى الشعر والشعراء ٦٣، وأبو عمرو بن العلاء فى المؤتلف والمختلف ٢٤٩، وأكد هذا بموضوعية القاضى الجرجانى فى الوساطة ٣١، ١٨١.

(٣) تيارات أدبية د. إبراهيم سلامة ص٩٠.

ومما أخذ على هذه النظرية أنها تقوم بعملية تفسير آلى للظواهر النفسية، فى ضوء جمع الحقائق والوقائع وتحليلها، كما أنها تعتمد على أن هناك جنساً نقياً، مع أن القول بوجود جنس نقى على امتداد التاريخ غير مقبول، وبالإضافة إلى هذا فإن هناك كثيراً من الحالات يكون التأثير فيها من خارج نطاق الثقافة والفن القومى، وقد كان الأولى أن يدرك "تين" نظريته على الوجه الآتى .. هناك أجناس معنوية وفكرية منتبه - على سواء - فى الأمم المختلفة، ونتيجة لها توجد بيئات أدبية وفنية ذات طابع عالمى، ثم هناك عهود يطبعها طابع السيطرة لبعض حالات الفكر، فتتلاقى فيها أنواع من التأثر بمختلف الآداب[1].

وامتداداً من هذه النظرة نجد "هربرت ريد" حين تحدث عن "مسألة الجنس" مع اعتقاده بأن الفن عالمى بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة، يذكر أن أنواعا معينة من الفن كانت مميزة لأنواع معينة من الشعوب، فهناك اختلاف ملحوظ فى أساليب التعبير الجمالى "وهذا يعنى أن هذه الأساليب ليست أصيلة أو فطرية فيهم[2] " ونحن لا ننسى أن نذكر أن ابن خلدون قد دار فى كتاباته حول أساسين علميين يعتد بهما عند علماء الاجتماع وهما أساس الجنس وأساس البيئة، فتأثيرهما حتمى عند بعض العلماء، ولابد من ظهوره فى الأمم وفى الأفراد معاً، وإذا كان ابن خلدون لم يدرس الأساس الأول دراسة علمية، فإنه بلا شك قد درس الأساس الثانى دراسة مستوعبة[3].

وعلى كل فالذى أصبح يطمأن إليه أن أسطورة التفوق بين الأجناس لا تثبت أمام الأدلة العلمية، صحيح أنها قد سادت فترة عند المفكرين فى الغرب، ووجدت لها صداها المبكر عندنا كما نجد مثلاً عند أحمد أمين فى "فجر الإسلام"، وعند توفيق الحكيم فى "تحت شمس الفكر"، وعند العقاد فى الفصول"، وغاية ما يمكن قوله فى هذا المجال أن هذه الأسطورة تنم عن تعصب مكين فى نفوس قائليها وعلى مغالطة ظاهرة[4].

---

(١) عن الأدب المقارن ص٦٢.
(٢) معنى الفن : ترجمة سامى خشبة.
(٣) تيارات أدبية. (١٦٣).
(٤) فى الأدب الحديث عمر الدسوقى ٢/٣٢٤-٣٢٩.

(٣) الأسود يحس أنه ما دام الاضطهاد يقع عليه من خلال جنسه وبسببه، فإن عليه أن يـــعى هـــذا الجنس بحرارة بل وبصخب، إن اليهودى يستطيع أن يعلن أنه إنســـان بيـــن البشـــر، أما الأسود فلا يستطيع أن ينفى أنه أسود، ويستطيع أن يطالب لنفسه بكل ما يتمتع به الآخرون، لقد أهين واستعبد ومن هنا فهو مرغم عـــلى تأصيل ذاته، ومرغم على أن ينهض ويلتقط كلمة زنجى التى رموه بها كمـــا لو كانت حجراً.. ثم يطالب بحقوقه، إنه يكشف الماهية السوداء أولاً من ينابيع قلبه، وبهذا يكون "منارة ومرآة" فى الوقت نفسه.

إنـــه يـــبدأ من "المنفى" ومن هنا فلا يجد فى أول الأمر من يتحدث إليه إلا الســـود.. ليحدثهم بدوره عن أنفسهم، ليحدثهم عن عالمهم. عالم الكهرمان الأسود، إنهـــم مـــن عالمهم عالم الألم والغضب والكبرياء يلجأون إلى الشعر، وهذا بعكس الـــبيض الفقراء مثلهم، وهم فى كدحهم لا ينسون "الغناء" ، ولا ينسون أنهم يبدأون من الجرح الذى يسببه الجنس.

.. وهـــم يـــبدءون بحـــنين إلى العودة إلى إفريقية، "الفردوس المفقود" فهم يكافحون من أجل الانسلاخ من العالم الأبيض البارد الملىء بالفخاخ المنصوبة لهم إلى إفـــريقية سرة العالم، وزهرة الشعر الأسود، إفريقية الباهرة المحروقة، الزيتية كجـــلد الثعـــبان، إفـــريقية النار والمطر والشبح المتأرجح بين الكينونة والعدم[١]، إفـــريقية الـــرجال الأشداء وغابات السافانا وأغانى الجدات، إفريقية بلد الدم الأسود الجميـــل [٢]، وحيـــن يـــرون أن هذا الأمل بعيد يبالغون أكثر فى التشبث بأنفسهم، ويـــبالغون أكـــثر فى تحـــدى العـــالم الأبيض، وقد وضح هذا سارتر من منظور الوجوديـــة فقـــال : ها هم أولاء رجال واقفون ينظرون إلينا، «وأتمنى لو تشعرون مثـــلى بالرهـــبة التى يشعر بها من يعلم أنه منظور، ذلك أن الأبيض قد تمتع ثلاثة آلاف عـــام بامتياز أن يرى الآخرين دون أن يروه، كان نظرة خالصة، وكان نور عيـــنيه يخرج كل شىء من ظلمة الأرض السوداء، وكان بياض بشرته هو الآخر نظـــرة، نـــوراً مكثفاً، كان الإنسان الأبيض، الأبيض لأنه إنسان، الأبيض كالنهار،

(١) أدباء معاصرون (مواقف ٢) جان بول سارتر ترجمة جورج الطرابشى
The African Image, P. 177.
(٢) Modern Poetry from Africa, P.58.

الأبيـــض كالحقيقـــة، الأبيض كالفضيلة، كان يضىء الخليقة كالشعلة، ويكشف عن ماهية الكائنات البيضاء السرية، واليوم ينظر إلينا أولئك البشر السود فترتد نظراتنا إلى عيونـــنا إن ثمـــة شـــعلاً ســـوداء تضىء الآن بدورها العالم، ولم تعد رؤوسنا البيضاء إلا مصابيح خافتة تؤرجحها الريح[١].

ثـــم إنهـــم يصـــفون أوروبا بالعنكبوتية، ويرون الزمن فيها ملطخاً بالعار، ،والليل له صمت مرائى، والشوارع مكتظة برجال الشرطة، كما يرون أن مفاصل العـــالم الأبيـــض تطقطـــق تحت النجوم، وفى النهاية فإن قلوب الناس فى أمريكا صـــناعية، والســـيقان من "النيلون"، وأنه لا علاج للمفاصل التى تصلبت إلا بالدم الأسود فهو "زيت الحياة"[٢].

وهـــو حيـــن يعـــبر عن ذاته يجد نفسه مضطراً إلى استخدام الطباق (أسود وأبيض) وهو حين تفد هاتان الكلمتان إلى فكرة، يتذكر أنه تراكمت حولها رموز لا تنـــتهى، ومن هنا تنساب إلى نفسه سلسلة من التداعيات التى تقول، أبيض كالثلج، وأســـود كالجريمة، وهكذا تكون هذه الكلمة قد احتوت على الخير كله، وعلى الشر كلـــه فى آن واحـــد، ويكون قد أصبح للبياض سواداً سرياً، وللسواد بياضاً سرياً، ويكـــون عـــلى وعى فى الوقـــت نفسه بأنه حين يريد أن يبنى حقيقته لابد أن يهدم حقيقة الآخرين.

وهـــو قـــد يجد نفسه مدحوراً حين يواجه اللغة الأجنبية التى يكتب بها، حين يـــروض مثلاً بكلمات فرنسا قبله الذى جاء من السنغال، حين يحس أن هناك ريحاً شـــمالية" تســـرق منه أفكاره، ولا تظهرها بالحجم الذى يريده لها، وبالإشعاع الذى يحـــبه مـــنها، وفى ضـــوء هذا يحس أن الكلمات البيضاء تتشرب فكره تماماً كما يتشـــرب الـــرمل الـــدم، ويجد أنه فى غليانه كثيراً ما يجد الألفاظ راقدة.. ويجدها بنصف طاقتها.

وهـــو أمام العجز لا يملك إلا أن يجعل الكلمات مجنونة، فهو يحرق اللغة، ويســـتخدم الرمـــزية السحرية، والتباس المفاهيم، واختلاط الحواس، والتشنج الذى ينـــتمى إلى الفولكلور، كما يستسلم للإيقاعات البدائية البعيدة، ويصل إلى حالة من

(١) أدباء معاصرون ص ٧٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٨٠، ٨١، Modern Poetry from Africa, P. 51

حـــالات فقدان الوعى، فهم يردون على مكر المستعمر بمكر مضاد مماثل فما دام المضطهد حاضراً حتى فى اللغة التى يتكلمون فسوف يتكلمون بهذه اللغة لتدميرها.

إن الشـــاعر الأوربى المعاصر يحاول أن يجرد الكلمات من إنسانيتها ليردها إلى الطـــبيعة، أمـــا الأسود فسوف يعمل على تجريدها من فرنسيتها، فهو يضرب بعضـــها بـــبعض، ويحطم تداعياتها المألوفة،، ويزاوج بينها بالعنف.. إنه لا يتبنى الكلمات إلا بعد أن تكون قد تقيأت بياضها، فيجعل من هذه اللغة المنقوضة لغة عليا احتفائية ومقدسة، هى الشعر بعينه[١].

(٤) .. ثـــم كان أن ظهرت فى الثلاثينيات تلك الحركة التى اصطلح على تسميتها الـــزنجية[٢]، Négritude ، ومـــع أنـــه يقـــال إن هذا المصطلح قد ظهر فى العشـــرينيات فى منطقة البحر الكاريبى رد فعل للإحساس بالضياع فى كوبا، وهاييتى، وبورتوريكو والمارتنيك، فإن المصطلح لم يصبح واجهة لتيار كبير إلا فى فرنســـا على ألسنة وأقلام عدد من المثقفين السود مثل سيزير وسنغور ووليـــم داماس، فقد رفضوا القول بأن لهم جذوراً فى فرنسا، وراحوا يؤكدون أنهـــم زنوج فكراً وسلوكاً، الزنجية فى نظر هؤلاء المثقفين ليست سلبية لأنها كما يقولون تثقب لحم السماء والأرض، فهى ضد أوربا والاستعمار، وهى فى صـــميمها شـــعر خالص، ولكنها شعر الزراع فى مقابل شعر المهندسين، ذلك لأن الأســـود فـــلاح قـــبل كل شىء، فهو ينمو مع السنابل ويكتسب لوناً ذهبياً ببطء، وهو أنثى الطبيعة وذكرها فهو فى أعمق ينابيعها (خنوثة)، وفى ضوء هـــذا يكـــون الانبـــثاق الساكن، وتكون فى الوقت نفسه (العذاب)، ذلك الأسود يحمـــل على عاتقه كل آلام البشر، ولكنه ليس العذاب المعروف فى المسيحية، لقد قيل عنها إنها إحدى المساهمات السوداء القليلة فى القاموس الفرنسى، ولقد قال عن جانب منها ليوبولد سيدار سنغور: إن ما يكسب القصيدة زنجيتها ليس هـــو الموضـــوع بقدر ما هو الأسلوب، الحرارة الانفعالية التى تمنح الكلمات

---

(١) أدباء معاصرون ص٩٣، ٩٤.

(٢) هناك من يرى تسميتها الزنوجة على وزن العروبة (دراسات فى إفريقية المعاصرة ص١٩٨) وهى تهدف أساساً إلى إعادة الجوهر النقى للذات السوداء بعد أن فقدته، ويسميها سنغور الشىء الذى يجاهد الشاعر الأسود لإبرازه من أعماقه، وهى عند سارتر غضبه فى مواجهة التعصب، ورد فعل للسيادة البيضاء، وكلمة "لا".

الحيـــاة، والـــتى تحول الكلام إلى فعل، كما وضحها الشاعر إيميه سيزير فى قصيدة يقول فيها:

ليست زنجيتى حجراً يهاجم صخب النهار.

ليست زنجيتى غشاوة من الماء على عين الأرض الميتة.

ليست زنجيتى برجاً ولا كاتدرائية.

إنها تغوص فى لحم الأرض الأحمر.

تغوص فى لحم السماء الحار.

تثقب الإرهاق العظيم بصبرها المستقيم.

إن هناك من يربط بين الزنجية والسيريالية، ومن يربط بينها وبين التعبيرية، ولكـــن هناك من يذهب كذلك إلى أنها لا تنتهى إلى مدرسة أوربية أدبية لأنها تشأ من موقف خاص بقائليه ويصنعه كذلك موقف معين وبطريقة عليها بصمات أرواح قائــليها، ولأنهـــا تشمل العلاقة بين هيكل الثقافة[1] الأوربية والحياة الإفريقية، مع مراعاة أن العلاقات بينهما ينبغى أن تتبع من المستوى الثقافى.

(٥) إذا كـــنا قـــد تعرضنا بصفة عامة لإبداع السود خارج القارة، فإنا سنعرج هنا عـــلى إبداعهـــم داخـــل القارة.. وأول من يقابلنا هنا هذا النموذج الذى يمثله "تومـــاس مفولو" من باسوتولاند، فقد آمن تومس مفولو بكل ما قاله الأوربيون حيـــث تعـــلم فى إرســـاليتهم، وكان أن مجد فى روايته "المسافر نحو الشرق" المســـيحية، وهـــاجم معتقدات قومه فى روايته "تشاكا" مع ملاحظة أنه - أى تشاكا - كان أعظم ملك لقائل الزولو، وكان يطلق عليه اسم "نابليون الأسود"، فهو يسمى بحق رائد أدب الحماية.

ثـــم جـــاء بعد ذلك جيل احتذى "الشكل" فقط فى الأعمال الأوربية. أما الآن فيوجـــد جيلان، أولهما يحاول "التوفيق" بين الحضارتين، ويصل إلى الإحساس بأن مأساة الإفريقى - كما ذكر الكاتب الكمرونى مونجوباتى - هى مأساة الإنسان الذى

(١) أدباء معاصرون ص ١٠٥، ١٠٦، الإنسان ص١٦٥، ١٦٦، دراسات فى إفريقية المعاصرة ص١٩٨.

ترك لأخطائه فى عالم لم يخلقه ولم يفهمه.. إنها مأساة الإنسان الذى حرم التفكير، والذى عليه أن يتخبط فى طرقات مدينة معادية، وعيناه معصوبتان.. ويوجد داخل هذا الجيل من يرى إفريقية - كما فى رواية الصبى الأسود لكاملارى - مكاناً شاعرياً خالياً من التناقضات ومن يضحى بالحقيقة من أجل الصورة.

ولكن إلى جانب ذلك يوجد التيار الحقيقى والعارم، وأنصار هذا التيار يرون أن الكفاح التحريرى غير من جوهر الأدب وشكله، وفتح الأعين على التحولات الاجتماعية، وعلى الإحساس الخاص بالقومية.. وهم فى الوقت نفسه يدينون النقل عن الأجانب، والأخذ بمنهج التصوير الخارجى الشكلى والقائم على الوصف من غير التعرض لمأساة الإفريقيين الآن تحت ظروف الاستعمار، وهم فى الوقت نفسه يصادرون الفكرة التى تقول إن الإفريقيين أطفال الحياة، وأنه يمكن أن تتم معايشة فى ظل الاستعمار، بين الطبقات الرجعية وبين الجميع.

ويعتبر من يمثل هذا الاتجاه بحق فرديناند أويونو من الكمرون، وعبدالله سادجى من السنغال، وبرنارد دادى من ساحل العاج..[1] الخ. إلا أن الذى يجب ألا ننساه هو أن هذا الأدب النضالى يختلف تمرده عن تمرد أدب الثورات العمالية، ذلك لأن الأسود لا يلغى ذاته وإنما يتعمقها ويوسع دائرتها بوضع اليد على ينابيعها الحقيقية، ولأنه فى الوقت نفسه لا يرغب فى "التحول" من دور الضحية إلى دور القاتل، لا يريد أن يطفو من اغترابه فى قاع المجتمع ليضغط على البيض حتى يصلوا إلى القاع نفسه الذى عاش فيه.

(٦) وإذا أردنا أن نصل إلى بعض خصائصه فى الفن، وجدنا أنه قد سلك سبيله إلى الحضارة راقصاً، فالزنجى بما هو عليه من مرح مطبوع على الولع بالموسيقى والغناء والرقص، وكثيراً ما تتشابك هذه الفنون بعضها مع بعض بحيث ترسم جميعها لوحة فنية حارة.

فهناك الرقصات الفردية،، والرقصات ذات المحتوى (الدرامى)، التى يقوم بها راقصون محترفون مثل رقصات التضحية، ،والشجاعة، والتوتم، والصيد، والقردة، والفرس، وهى فى أساسها تختلف عن فن "الباليه".

---

(١) الإنسان ص ٢٠٥ وما بعدها، والعدد ٣٥، ٣٦ من مجلة نهضة أفريقية .

كمـــا ينتشـــر الغـــناء الفردى والجماعى الذى يصل إلى درجات مذهلة من العذوبة وعشق الحياة والخوف منها، وهى غزيرة إلى حد أن هناك من يقدر أغانى "الكلاما" فى "غانا" وحدها بما يزيد على ستين ألف أغنية، بالإضافة إلى غناء نوع يقـــرب مـــن الملاحـــم ويقـــوم به شعراء متخصصون فى غرب القارة، وإلى هذه الحيوية التى تضيفها البطانة على الغناء، وكذلك عمليات التصفيق المنظمة.

ونحـــن لا ننســـى أن "الإيقاع" يعتبر العمود الفقرى الذى يرتكز عليه جسم الموضـــوع الفـــنى وهيكلـــه، وسواء أكان بسيطاً أم مركباً إلا أنه يمتاز فى الغالب بالســـرعة على نحو ما نرى فى الجاز[1] وبالتحديد ادراك الحيوية من أنه تنفذ سبع دقات على الطبلة فى الثانية الواحدة، ومع أن هناك تشابها فى الآلات المؤدية، مما يـــؤدى إلى تشابه فى الألحان، إلا أن هناك من اهتم بالإيقاع مثل "بلابارتوك" الذى ألـــف "كونشـــرتو" لمجموعة من الآلات الإيقاعية فقط، ومثل الموسيقى النيجيرى "فيلاســـوفاندى" الـــذى سار فى هذا الطريق فى عمله المعروف "متتابعات إفريقية" وهـــو يبـــلغ الـــذروة فى هـــذا العمـــل وبخاصـــة فى الحركة التى تغنى فيها أم أفريقية لطفلها.

وهـــناك من يذهب - مثل الدكتورة سمحة الخولى - إلى أن النوع المركب مـــن الإيقـــاع يحـــل بوجه عام أزمة الإيقاع فى الموسيقى الأوربية الكلاسيكية منذ مطـــلع القرن العشرين، والذى يعطى هذا النوع من الموسيقى حيوية إنه ليس خلفية للصوت على نحو ما نعرف فى الموسيقى والغناء العربى، ذلك لأن له نغماً مفتوحاً ومتدفقاً.

والإيقـــاع هنا ينقلنا إلى الفن التشكيلى الإفريقى، وبخاصة النحت الذى يذكر أنـــه - مع غلبة الإيقاع عليه - يتسم بالخوف والتخويف نظراً للأخطار التى تحيط بالإنســـان فى الطـــبيعية، كمـــا يتســـم بالرؤوس الضخمة والعيون الواسعة ليمثل الأرواح. بالإضـــافة إلى قربه من التجريد، ذلك لأن الإفريقى مضطر بحكم الكتلة الواحـــدة، وبعـــدم الإضـــافة، والبعد عن كسر الخط. إلى عدم التقيد بالتناسب الذى يوجـــد مـــثلاً فى الـــتماثيل الإغريقية التى تعطى الجمال والجلال معاً.. وعلى كل

(١) موسيقى الجاز. لانجستون هيوز. ترجمة نلى عبدالنور ١٠ وما بعدها.

فالانطــباعيون يشـــتركون مـــع الفـــن الإفــريقى فى انفعال اللون وتغيير الشكل، والتكعيبيون يشتركون معه فى البناء الهندسى المتكامل، والسرياليون يشتركون فى الخيال والغموض.

ولعل نقطة الالتقاء الواضحة بين هذا النوع من الفن الإفريقى والفن الحديث، إنهمـــا يعـــبران عـــن "الشـــىء" بـــدلاً من ملء الوسط الذى يحدث فيه بمعنى أن الموضوع وسيلة للفكرة، وأن المقصود هو الصورة الذهنية لا المرئية(١).

ثم إنه لا يجب أن ننسى اهتمام الإفريقيين بالألوان، واستخدامهم الحاد لحاسة البصر، وربما كان لهذه الحاسة أقوى التأثير وأبقاه بدليل أن فكرة الجمال قد نشأت لـــدى الإنسان عن بعض المعطيات البصرية، بالإضافة إلى ارتباط الخبرة الجمالية بـــالمدرك الحسى، ومن هنا يكون "اللون" من أقدر عناصر الموضوع الحسى على اســـتثارة الإعجـــاب وتوليد اللذة، كما هو معروف عند الأطفال والمصورين وعند الذيـــن يـــرون فى الألوان أقوى تعبير عن نضارة الأشياء "والحق أن تأثير الألوان ليـــس مجـــرد تأثير حسى، بل هو تأثير عاطفى (أو وجدانى) أيضاً بدليل أن منظر غـــروب الشمس، ومنظر الزجاج الملون فى بعض الكاتدرائيات يثير فى النفس من الارتـــباطات المتـــنوعة مـــا يخـــترق الحـــواس عـــبر القـــلوب فتنفعل له النفس والجسم معاً(٢).

وعلى كل فالفن الإفريقى بصفة عامة لا ينعزل عن حركة الحياة، وهو ليس ترفاً وإنما فى خدمة الحياة الاجتماعية، وفى خدمة العمل من حولهم.

٣- هل يشعر السود بعقدة اللون!

إذا أخذنـــا رأى الطبيب والعالم النفسى الأسود البشرة فرانز فانون.. نجد أنه يـــرى أن معظم السود فى أمريكا يعتبرون مرضى من الناحية النفسية فطائفة منهم تطمـــح فى كـــل سوكها إلى أن تصبح بيضاء، ذلك أنهم يريدون تحرير أنفسهم من هذا الكابوس الذى يجثم على ذاكرتهم لأن جلودهم سوداء.

---

(١) آفاق الفن. الكسندر اليوت ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ص ٧٢، وما بعدها، العدد ١٠، ٢٨، ٣١ من مجلة نهضة أفريقية.

(٢) فلسفة الفن فى الفكر المعاصر د. زكريا إبراهيم ٧٨.

والصحافة فى هذا المجتمع تلح على الإحساس المرضى وتؤكده فتعلن دائما عن تركيبات، ووصفات لتبيض الجسم[1].

وهـناك طائفـة أخـرى تجد خلاصها فى الانكباب على التراث الإفريقى، والتمسك بكل ما هو أسود كرد فعل لما يلاقونه.

فالأسـود الآن مسئول عن نفسه مسئولية الإنسان الأبيض عن نفسه، ولكنه يزيد عليه أنه مسئول عن لون جسمه، ،وجنسه، وأجداده، ومن هنا يرى نفسه شيئاً فشـيئاً يكتشف سواده، وخصائصه العنصرية، وكل ما يقال ضده، وهو حين يرفع صـوته لمعـرفة السبب يعرف أشياء لا تمت للمنطق بصله، ومن هنا يكون مثل الطفل - كما يقول أخصائيو التحليل النفسى - الذى لا شىء يهز أعصابه أكثر من اصطدامه بالحقيقة، فهو يتنقل بين اللامعقول واللامنطقى ، ويجد نفسه فى دائرة لا تنـتهى من إقناع البيض الذين يظنون متفوقين عليه.. بأنه لا يقل عنهم فى شىء[2] فالإنسان الأسود يرى نفسه فجأة فى حالة عجز أمام قوة حضارية جديدة تعمل دائماً عـلى السـخرية مـنه، وإقلاقه، وحتى الذين انغمسوا غمساً فى الحضارة الغربية وجدوا أنفسهم فى حالة اغتراب .. من نوع آخر، ذلك لأنه كان يتعامل ويعيش مع القيم التى تؤكد انحطاطه، وتدفعه إلى أن ينقسم على نفسه.

ويرى دى فرايز De Vries أن أشد لطمة يقشعر لها بدن الطالب الملون أن يسمع العبارات الدالة على التفرقة توجه إلى من عاشوا داخل المدنية الغربية، وهو حين يعود إلى وطنه فيجد مكانه اللائق به لابد أن تتحرك داخله تلك الإهانات التى انصـبت عـليه، ومن ثم يطالب بالانتقام، ذلك لأن ما وجده هناك قد كان - على أحسن الظروف - هو الإخاء لا المساواة..

---

(١) يذكرنا هنا بالقصة التى تروى عن معاوية من أنه دخلت عليه جارية بيضاء متجردة من ثيابها، وحين أراد أن يهديها إلى يزيد استشار فى هذا الأمر الفقيه ربيعة بن عمر الجوشى، فرأى أن يتحول معاوية عن هذا الأمر، فما كان منه إلا وهبها لعبدالله بن مسعد الفزارى مولى فاطمة بنت رسول الله وكان أسود وكان مما قاله له "بيض بها ولدك!" (معاوية بن أبى سفيان فى الميزان. دار الكتاب العربى - بيروت ص١٣٠).

(٢) الإنسان ص ٢١-٢٥.

وقد يولد هذا عند الشعوب السوداء ما يسميه "ريتشارد رايت" تفكير الضفدع.. وهو تعبير استعارى من نيتشه ليصف به الأدنى حين يتطلع إلى الأعلى، وبخاصة حين يتولد عند الأدنى شعور الكراهية، ذلك لأنه يجد نفسه قليل الحظ فى محاكاة الأعلى، فالذى لا شك فيه أن الرجل الأبيض قد سلب احترام النفس من الإنسان الأسود وولد عنده الإحساس بأنه يجب عليه أن يستعيد شيئاً مما فقد منه، وهذه النغمة لا توجد عند الرجل العادى فقط، ولكن عند الزعماء كذلك، وتفكير الضفدع لا يسيطر فقط على الآسيويين والأفريقيين الذين كابدوا النظام الاستعمارى بل أيضاً على زنوج أمريكا، ونتيجة لذلك يمكن القول بأن القرب المادى من الأمريكى أو الأوربى الأبيض أو البعد عنه ليس لهما أى تأثير، والسبب فى كل ذلك هو الامتهان أو التمييز اللذان يبعثان فى نفر من البشر شعوراً بأنهم خاضعون إلى قوى تتفوق عليهم[1].

وقد يرد سؤال يقول: أليس هناك من السود من ينجحون فى تحطيم الحواجز العنصرية والاجتماعية، ويصلون إلى المكانة التى يستأثر بها الإنسان الأبيض، وبهذا يصلون إلى ما يمكن تسميته بالاندماج؟

والجواب هنا أن الاندماج ظاهرى، وإن كان من العسير التفرقة بينه وبين الاندماج الحقيقى، نظراً للكرامة التى تحيط بالمراكز الجديدة المنتزعة، ومن الطبيعى أن هذه الحالة تختلف عن حالة محدودى الطموح الذين يرضون البقاء داخل الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها معظم ذوى قرابته، ذلك لأنها تؤدى إلى حالة تسمى الاعتزال سرعان ما يحس بها السود[2].

٤- هل الشعور بعقدة اللون دائم أو مرهون بوجودهم فى مجتمع من البيض:

من الطبيعى أن هذا الشعور بالدونية أو بالغيرية، لا يوجد إلا فى المجتمعات التى يشكل فيها الإنسان الأسود أقلية (أمريكا) أو حين يكون الإنسان الأبيض هو

---

(١) اسمع أيها الإنسان الأبيض ص ٢٦-٢٩، لون البشرة وأثره فى العلاقات الإنسانية ص٥٩.
(٢) لون البشرة ص٦٠.

القـــائم عـــلى مقـــدرات الناس (جنوب إفريقية)، وأما فى المجتمع الذى يتشكل من السـود (غيـنيا) فإن هذا الشعور بالطبيعة لا يكون موجوداً، وحتى إن حدث، فإنه يكـون نـتيجة لظروف أخرى فرضت نفسها عليه، ذلك لأن قضيته العنصرية فى إفـريقية وإن كانت ترتكز على قاعدة عريضة من اللون، إلا أن لها عوامل أخرى مساعدة توجد فى الفروق الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وفى ضوء هذه الحقيقة يمكن أن تبرز تلك العنصرية التى اتفق على تسميتها "العنصرية السوداء" والتى تقوم فى المقام الأول على الميراث الثقافى.

وقـد ظهـرت هـذه العنصرية كحقيقة واضحة فى ليبريا وسيراليون.. فقد ظهـرت فى سـيراليون تلك الطبقة من السود التى عملت بريطانيا على نقلهم منها إلى سـيراليون وبخاصة هؤلاء السود من الأمريكيين الذين حاربوا فى صفها ضد الأمـريكيين فى حرب الاستقلال الأمريكية.. بالإضافة إلى بعض سود "جمايكا" فقد تكـون مـن هؤلاء وهؤلاء طبقة سميت "الكولول" وعددهم الآن ثلاثون ألف بينما الإفريقيون نحو مليونين.

وعـلى كل فحين رأى "الكريول" أنفسهم متقدمين ثقافياً واقتصادياً على أهل الـبلاد الأصـليين، عملوا من جانبهم على الترفع عن أهل البلاد، وأبقوا الصلات بينهم وبين الإنجليز.

وهكذا احتفظوا بالبقاء "جسماً ناتئاً، وسط السكان، إلا أنهم أصبحوا يحرمون عـلى أنفسـهم الزواج من السود فى الداخل، وقد وصل بواحد من زعمائهم – هو الدكـتور بـانكول بريت Bankoi Bright إلى أن يقول: أن الكريول يرفضون أن تكـون الأغلبية فى المجلس التشريعى من السود الوطنيين، ذلك لأن الكريول رعايا بـريطانيون بالمولد، وكذلك مسيحيون، أما السكان الآخرون فوثنيون وآكلوا لحوم البشر!

.. والحـال فى ليبريا يشبه الحال فى سيراليون، ذلك لأن الأمريكيين عملوا مـن جانبهم أيضاً على توطين طائفة من العبيد الذين تحرروا فى هذه المنطقة، إلى حـد أنه رفع شعار فى ليبريا عام ١٨٤٧ يقول: "حب الحرية جاء بنا إلى هنا" وقد كـان عدد هؤلاء القادمين خمسة عشر ألفاً إلى جانب مليونين ونصف المليون من السـكان الأصـليين، وقد وصل الأمر بهؤلاء السود الوافدين إلى أن يشكلوا هناك

الواجهـــة السياســـية والاقتصادية والثقافية، وإلى أن تقول الفقرة الرابعة من وثيقة الاســـتقلال: نحـــن شعب جمهورية ليبريا كنا أصلاً من سكان الولايات المتحدة فى أمريكا الشمالية.

والذى لا شك فيه أن أمر هذه التفرقة السوداء آخذ فى الاضمحلال من فترة، ولكن هذا لا يمنع من وجودها حقيقة[1].

وعـــلى كل فإن هناك من يرى - مع الاعتقاد بأن العداء العنصرى ميراث ضـــد الحرية وضد العقل، وأنه موروث من ماضى الإنسان الحيوانى - أن القضاء عـــلى هـــذه العقد ليس أمراً مستحيلاً "كما يعرف كل من اقتنى قطة وكلباً فى وقت واحد[2].

٥- ما حقيقة نظرتهم إلى الرجل الأبيض؟

هـــم يـــنظرون لعالم البيض على أنه عالم متفوق، وعالم البيض فى نظرهم يمثل كله شيئاً واحداً فى نفسية الإنسان الأسود، ذلك لأنه تعاون فيما بينه على قهره واســـتغلاله والـــتعالى عـــليه، وقد يكون هناك استثناء فى نظرة العالم الأبيض إلى إفـــريقية، ولكـــن "بياض" أوربا يعتبر فى ذهن الأفريقى حقيقة قديمة مترسبة.. فقد كـــان هـــذا "الـــبياض" وراء الكشف، والتبشير والاستعمار،، والاحتكار والتمييز، والتفتت، وامتصاص القوى الجديدة أو ضربها ".. وعندما ينظر إلى العالم الأبيض من داخل عالم الملونين، لا يشكل هذا العالم الأبيض إلا كتلة واحدة، تكاد تكون بلا حواجز أو تجزئات، لقد استعمت إلى نفر من الفرنسيين المتحررين يبدون اشمئزازاً صـــادقاً لـــدى معرفتهم بأن أحد الزنوج قد ذهب ضحية تعصب بعض البيض فى المسيســـبى، وبالنسبة لابن آسيا وأفريقية ليس أبيض المسيسبى هو الذى قضى على الـــزنجى، بل أبيض الغرب ومن العسير جداً على بيض أوربا الغربية أن يفهموا، ويتحققوا كم هى صغيرة القارة الأوربية فى أذهان الشعوب الملونة"[3].

---

(١) دراسات فى إفريقية المعاصرة د. عبدالعزيز كامل ص١٧٤، وما بعدها العدد ٤١ من مجلة نهضة إفريقية.

(٢) آمال جديدة فى عالم متغير ١١٤.

(٣) اسمح أيها الإنسان الأبيض : ٣٠، ٣١.

ثم إن الإنسان الأبيض ليس بشرة بيضاء وعينين زرقاوين وشعراً أشقر فقط ولكـنه إلى جانب ذلك احتكار واستعمار وعرقلة لتقدمهم، وذود لهم عن الاقتراب من عـالهم الخـاص، يقول الرئيس كنيث كاوندا إنه دخل على الحاكم فى بلاده، وحين حياه لم يرد عليه وإنما التفت إلى سكرتيره قائلاً.. أبلغ هذا الرجل بلغة البمبا أن يقول صباح الخير يا سيدى.. وطول المقابلة كنت أتكلم بالإنجليزية ولكن الحاكم كـان يـرفض الاستماع إلى ويطلب من سكرتيره أن يترجم أقوالى إلى لغة البمبا، وذلـك ترفعاً بنفسه وبلغته أن يتكلمها أسود مثلى، وهكذا أراد الحاكم أن يلغى تلك السـنين الطـوال التى قضيتها فى دراسة الإنجليزية وآدابها، وأصر على اعتبارى "إفريقيا جاهلاً"[١]، وهذا الأمر لم يكن مقصوراً على الحاكم وإنما تعداده إلى عمال بيـض فى صـيدلية، اضـطراه حين تكلم بالإنجليزية إلى أن يقبضا على دراعيه ويسوقانه للخارج كالضفدع[٢] أن الرجل الأبيض فى أمريكا مثلاً يولد أمريكياً، أما الأسود فيكافح ليكون أمريكياً وهو يصدم دائماً كلما احتك بعالم البيض فهم ينظرون دائماً إلى العالم على أنه خريطة ملونة "إننى عندما أنظر إلى العالم، وأقيم الشعوب والقادة لا يمكننى – حسب ما تربيت وتشكلت فى المجتمع العنصرى - إلا أن أرى أبيـض أو أسـود أو ملوناً، حتى أصبح تعبير الأبيض بالنسبة لى يعنى أنه مستغل ورجعى وعنصرى ومتواطئ وانتهازى، وأصبح تعبير غير أبيض يعنى باختصار شديد أنه ثورى مناضل يكافح ليتحرر أو يموت حتى ولو كان أبيض كالكوبيين أو أشقر كجيفارا[٣].

عـلى أنه يجب ألا نغفل عن أن تركيز البيض على التفرقة العنصرية يقابل مـن الأسـيويين والإفـريقيين بالتحدى والكبرياء، وقد كانت نتيجة هذا أن ظهرت عصبيات قارية، وعصبيات ألوان فى مواجهة تلك العصبيات التى تقول بالآرية أو السامية، فالأفريقى أصبح فى الغالب يشيد بنسبته إلى موطنه، ولا يعلن هروبه من جنسه الأسود، بل أصبح لا يسره أن ينتمى إلى سلالة البيض، كما أصبح يغير فى أشـياء كـثيرة حـتى فى المعتقدات على نحو ما هو معروف فيما يسمى بالكنائس المسـتقلة، وكنائس المتنبئين، والعبادات المستحدثة، وإلى حد أنه أصبح يدعو أحياناً إلى الكراهية، ولا شك أن هذا يعتبر عقبة فى وجه الدعوة إلى الإخاء والمساواة.

---

(١) زامبيا فى سبيل التحرير. كنيث كاوندا. ترجمة حسين الحوت ص١٧.

(٢) نفسه ص ٢٦.

(٣) تصريح للزعيم الأمريكى الأسود ستوكلى كارمايكل (المصور عدد ٢٢٤٢، ٢٩ سبتمبر ١٩٦٧).

ولعل أهم دعوة فى هذا المجال هى تلك الدعوة التى دعا إليها ماركوس أورليوس جارفى M.A.Garvey والتى تدعو إلى النقاء العنصرى الأسود، وترفض "المولدين" الذين يكونون ثمرة التقاء بين الجنسين، لأن عملية الالتقاء هذه تضيع عليهم حقوقهم، وتجعلهم يذوبون فى غيرهم وقد نظرت هذه الدعوة إلى إفريقيا على أنها أرض الميعاد، والوطن القومى للسود".. ومن هنا أطلق على حركة جارفى اسم الصهيونية السوداء، وكانت الخطوات تكوين كنيسة خاصة بالسود، وجريدة، وإنشاء خط ملاحى بين أمريكا وإفريقية، والمناداة بإمبراطورية زنجية اعتبر نفسه رئيسها المؤقت[١].

وهكذا فإن عقيدة "السيادة للبيض" تثير عقيدة "السيادة للسود"، وأن العنصرية الأوربية تولد العنصرية الأفريقية[٢].

٦- هل الأسود همجى؟

هناك من يؤكد أن الإنسان الأول العاقل قد ظهر على الهضاب العالية لإفريقية الشرقية والشمالية والوسطى، ثم إن الإنسان الأسود قد عرف الزراعة قبل أكثر من خمسة آلاف سنة فى الوقت الذى كان فيه الكثيرون من أبناء الأجناس الأخرى يجهلونها، ويعيشون فى الوقت نفسه فى البقاع الخصبة معتمدين على الغير.

والثابت من الجنس الأسود، أنه زرع الأرض، واعتمد على ثمرتها من قبل أن يعرف الماشية. وهذه الخبرة بالزراعة هى التى جعلت للسود تلك المكانة الملحوظة فى البرازيل، فلم يحدث فيها ما حدث فى الأقطار المجاورة من التعصب والنفور بين الأوربيين المهاجرين وقبائل الهنود الحمر فى أمريكا الجنوبية، فقد كان السود أساتذة للمهاجرين إلى البرازيل فى فنون الزراعة باعتراف المؤرخين البرتغاليين، وكان لهذا الفضل حقه الملحوظ فى شعور البرازيليين البيض والسود بالمساواة والتقارب فى المنزلة الاجتماعية[٣].

(١) دراسات فى إفريقية المعاصرة ١٩٣-١٩٥، الديانات فى أفريقية السوداء هوبير ديشان. ترجمة أحمد صادق حمدى ص١٧٦، ١٧٧.

(٢) صحوة إفريقية. بازيل دافيدوسون. ترجمة عبدالقادر حمزة ص٢٢٤.

(٣) يوميات عباس محمود جـ١ ص٢٨١، ١٨٢، مجلة الأدب الأفريقى الآسيوى العدد الأول مقال لسنغور عن الزنوجة والعروبة.

وعلى كل فهناك كتب عديد تنصف أفريقية، وتتحدث عنها بنبرة موضوعية ولعل من أهمها فى هذا المجال كتابين قد مر بنا ذكرهما وهما، "إفريقية تكتشف من جديد، و"فجر التاريخ الأفريقى" وهناك مثقفون مرموقون قد وقفوا كثيراً عند هذا الجانب مثل ليوبولدسيدار سنغور، ومثل أ.أ توافور من نيجيريا، ونحن لن ننسى هنا كوامى نكروما وهو يقف وقفة طولية ليؤكد الحجم الكبير لدور بلاده فيقول: لقد استطاع أجدادنا منذ قرون طويلة أن يشيدوا إمبراطورية شامخة، شيدوها قبل أن تكون لبريطانيا أية أهمية فى الوجود. وقبل أن تتجمع قبائلها فى شعب موحد. وظلت هذه الإمبراطورية قائمة، تظلها أجواء الحضارة من تمبكتو إلى باماكو إلى شاطئ المحيط. وكان بها العلماء والفقهاء يحوطهم الاحترام والتبجيل، ومن حولهم شعب غانه رافلا فى أثواب المخمل والحرير، يصوغ صناعة أفانين الذهب والجواهر والفضة والنحاس، وتنتج أناملهم أروع أنواع النسيج.. نحن لا نخجل من ماضينا فإنه يشع علينا فخراً [1].

ومع هذا فما أكثر الذين ذكروا عن الأفريقيين إنهم أولاد سيئون ومهيجون.. بفتح الياء وأطفال لابد لهم من أولياء أمور.. وحين كانوا يرضون عنهم كانوا يسمونهم البرابرة النبلاء على أن الصفة التى لصقت بالأسود هى الهمجى وبخاصة حين انخرط فى عمليات إرهابية مثل حركة الكيكويو فى كينيا، ومثل تفجيرهم الثورة بعد الثورة على الإنسان الأبيض فى الفترة الأخيرة.

.. وكلمة الهمجى إذا كان المقصود بها إهانتهم وتشكيكهم فى أنفسهم، فإن المقصود بها كذلك أن تكون مسوغاً للسيطرة عليهم سياسياً واقتصادياً وفكرياً، وقد تنبه ريتشارد رايت لعملية الدمغ هذه فكان أن وقف بأناة عند هذه الكلمة، موضحاً فى أول الأمر أنها تشبه سيفاً ذا حدين على الصعيد النفسانى، وأن هذه الكلمة الصاخبة تعنى عند السود معنى غير المعنى الذى يراد بها عند البيض فيقول: إن الهمجى موجود بالطبع ولكن ليس كما يعتقده الأوربيون، لقد لعب الأوربيون دوراً جوهرياً للغاية فى تشويه معنى الكلمة كى يكونوا قادرين على التصرف كما يشاءون، إنك تلاحظ أن حياتنا القبلية هادئة ومنظمة كل التنظيم، وأن النظام سائد

(١) العدد ٨، ١١ من نهضة إفريقية.

فى كــل قــرانا النظيفة، وأن بنى قومنا يطيعون سلطات القبلية، وإذا كان هناك ما يمكنــنا أن نــأخذه عــلى حياتنا القبلية فهو هذا الضجر المميت الذى لا يقطع حبله سوى الاحتفالات الدينية[1].

إذن مــتى يــبدأ التشــويش والاضطراب؟ إنه يبدأ عندما يتدخل الأوربيون الــبيض فى شئوننا، وينتزعون أحد أبنائنا، وينقلونه إلى محيط غير محيطه ودائرة غيــر دائرة، نهل من الغريب أن يتذبذب هذا الإنسان المنتزع من بيئته، ويتصرف تصرفاً فيه بعض المقاومة؟ وهل يصح أن تسمى هذه المقاومة وحشية؟

ثــم يذكــر أن هــناك مســلكاً وحشياً بالفعل، ولكنه فرض فرضاً على هذا الإنســان، حين كان هناك هدف واضح ومحدد وهو استغلاله تحت ستار الإنقاذ من الوثــنية[2]. بالإضــافة إلى وجود طائفة تسمى مروضى الزنوج للهدم من كيانه[3] ومــن الطبيعى أن إنساناً وقع عليه مثل هذا الضغط، لابد أن يكون همجياً بالمعنى الذى يريده السود، لا بالمعنى الذى يريده البيض.

(١) صحوة إفريقية ص ١١٠، ٣١٤ وما بعدها.
(٢) اسمع أيها الإنسان الأبيض ٣٢ وما بعدها.
(٣) مشاهير الزنوج ، لا نجستون هيوز ترجمة عمر الإسكندرى، ص٤٠.



الباب الأول

صلات السود بالعرب

الفصل الأول

صلات السود بالعرب قديماً



أولاً: الصلة بالأحباش قبل الإسلام؟

(١) لقـد كـان هناك تماس بين الأحباش والعرب من وقت بعيد، وهناك من يذهب إلى أن النشـاط اليمـنى فى الحبشـة يـرجع على الأقل للقرن العاشر قبل الميلاد[١].

والـثابت أنه فى هذا الزمن المبكر قد تحركت نواة يمنية صلبة إلى الحبشة تتمثل أكثر ما تتمثل فى قبيلتى الحبشان والأجاعز، وهناك من يشكك فى أن السود الوطـنيين كانوا يستطيعون وحدهم القيام بهذا النوع من الحضارة فى الحبشة لولا هـذه الأمـواج العربية القديمة التى وضعت بحسم أساس السامية فى الحبشة، وقد ازداد هـذا الـتأثير أكـثر ما ازداد حين تصدع سد مأرب حوالى منتصف القرن الخامس ق.م، وكان هذا السيل الذى لا ينتهى من الهجرة مخلفاً وراءه اليمن.

وقـد أثبـتت النقوش القديمة فى بلاد الحبشة أنهم كانوا يستخدمون فى هذه الفـترة المـتقدمة الـلغة والكتابة السبئية[٢] وإذا كان هناك من يقول: بأن الحروف الأثيوبيـة قـد تطـورت عن أصل يونانى، فإن هذا الرأى يجب طرحه الآن تماماً وبشـكل لا يقبل المراجعة، ذلك لأن الحروف الموجودة فى المخطوطات الحبشية إمـا مطابقـة تمامـاً للسبئية، وأما أنها تشبهها إلى درجة لا تدع مجالاً للشك فى تطورهـا عـن السـبيئة، وإذا كان لا يمكننا أن نقول إن اللغة الأثيوبية هى مجرد واحـدة من اللهجات العربية، إلا أن هذا لا يمنع الاستنتاج الذى ينتهى إلى أن اللغة الأثيوبيـة القديمـة بعد انفصالها عن اللغات السامية الشمالية قد سارت فى طريقها نفسـه فترة من الزمن: ولكن عملية الانفصال عن العربية كانت فى وقت مبكر لم

(١) السودان ووادى النيل د. محمد عوض محمد ص٣٥.

(٢) تاريخ العرب. فيليب حتى. ترجمة محمد مبروك نافع جـ١/٦٧، ٦٨ بين الحبشة والعرب للدكتور عبدالمجيد عابدين ص١٠.

تكن فيه العربية قد وصلت إلى أشكالها الحالية، وإلى قواعدها التى كانت فى طريق الاستقرا [1]. وبالإضافة إلى هذا ثبت أن هناك أماكن، وآلهة وبعض نظم الحياة كانت مشتركة بين الحبشة واليمن، وهذا يدل على الدور العربى الذى لاشك فيه فى الحبشة[2].

(٢) وبالتالى كانت هناك رياح عكسية تهب من الحبشة إلى اليمن، وإذا كانت هذه الرياح غير ذات فاعلية فى عهد المملكة المعينية، والمملكة السبئية، والدولة الحميرية الأولى، فإن الثابت أنه فى عهد الدولة الحميرية الثانية قد غزا الأحباش اليمن غزواً أسفر عن حكم قصير، ولكن ملوك حمير الوطنيين سرعان ما تخلصوا من هذا الحكم، ،وظلوا يحتفظون بمكانتهم حتى حوالى عام ٥٢٥م، وفى النقوش الأكسومية التى ترجع إلى منتصف القرن الرابع نجد الملك الحبشى يذكر أنه ملك أكسوم وحمير وريدان وحبشة وسلع وتهامة، ومن المعروف أن هذه الغزوة لم تكن الغزوة الأولى للأحباش فى بلاد العرب، ذلك لأنه حدث قبل ذلك فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين أن الأحباش تمكنوا من بسط نفوذ مؤقت لهم على بعض أجزاء بلاد العرب الجنوبية، وقد احتفظت النقوش بأسماء تسعة من ملوك حمير فى ذلك العصر.

والثابت وراء هذا أن الهمدانيين قد تحالفوا مع الأحباش ضد الحميريين وأنه قد كان ثمار هذا الحلف أن اتخذ الأحباش لهم قاعدة فى مدينة "سحرت" ثم لما أراد الملك شهريمرعش استخلاصها من أيديهم قامت الحرب مرة أخرى..[3].

ثم إن المسيحية قد أخذت طريقها إلى اليمن بواسطة الأحباش ومن ورائهم الروم، وفى الوقت نفسه وجدت اليهودية لها متنفساً فى عهد الدولة الحميرية الثانية، وربما كان وراء ذلك غزو فلسطين، وتحكيم مقدساتهم على يد تيطس فى سنة ٧٠ م، إلا أن من الثابت أن معظم اليهود فى بلاد العرب كانوا من الآراميين، والعرب المتهودين، وقد وصلت اليهودية إلى الحد الذى تمكنت فيه فى الشطر الأول من

---

(١) Ethiopic Grammar Dillmann and Bezald, P. 7.

(٢) بين الحبشة والعرب ص١٠، ١١.

(٣) تاريخ العرب جـ١ ص٦٣ وما بعدها، بين الحبشة والعرب ص٢٢-٣٤.

القرن السادس من أن تجعل ذا نواس آخر ملك حميرى واحداً من معتنقيها، وهناك مـن يذهب إلى أن اعتناقه اليهودية كان بوازع من الروح القومية التى جعلته ينظر إلى المسـيحية مـن خـلال الأحـباش على أنها أداة للسيطرة[1]، وإلى هذا الملك اليهـودى تنسب تلك المحرقة المشهورة التى ذهب ضحيتها مسيحو نجران فى عام ٥٢٣، وإلى هـذا إشارة القرآن الكريم[2] عند بعض، ولكن أحمد أمين يقول: وذلك بعيـد لأن كلا من اليهود والنصارى يؤمن بالله العزيز الحميد[3]، وعلى كل فحين يصـل هذا النبأ إلى قيصر الروم "جيستنيان" نراه لا ينسى أن للروم ثأراً قديماً فى هـذه الـبلاد، ،فقـد جهزت فى سنة ٢٤ ق.م حملة مؤلفة من عشرة آلاف رجل، وخرجت هذه الحملة من مصر تحت لواء حاكمها أيلوس جالوس Aeliuis Gallus وقـد سـاعد الروم فى هذه الحملة حلفاؤهم الأنباط من أجل تحقيق هدف الاستيلاء عـلى شبكات طرق النقل التى كانت محتكرة لعرب الجنوب، ومن أجل استغلال المـوارد اليمنية لمصلحة روما، وقد توغلوا بالفعل فى المنطقة الجنوبية، وحين لم يحققـوا أغراضهم استداروا محطمين إلى "نجران التى سبق أن استولوا عليها، ثم اتجهـوا بعـد ذلـك إلى سـاحل البحر، ثم عبروا إلى الشاطئ المصرى، بعد مدة اسـتغرقت فى العودة ستين يوماً، ومع هذا فقد كانت أقصى نقطة وصلت إليها هذه الحمـلة المشـئومة، هى مريابا التى يحتمل أنها لم تكن مأرب عاصمة السبئين بل مـرياما الواقعة إلى الجنوب الشرقى منها، وقد لعن الجغرافى المشهور سترابون – الذى كان مؤرخ الحملة، والذى كان صديقاً شخصياً لجالوس – سوء الحظ، وصب جـام غضـبه عـلى خيانـة دليل الحملة "سايليوس وزير الأنباط".. وهكذا انتهت بفضـيحة وعـار، وبكل تأكيد كانت آخر حملة حربية ذات أهمية عظيمة خاطرت دولة أوروبية بإرسالها إلى بلاد العرب[4].

(١) تاريخ العرب جـ١ ص٧٥.

(٢) "قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد" ٨٥ سورة البروج.

(٣) فجر الإسلام ط٩ ص٢٤، وقد ذهب إلى مثل هذا من قبله الطبرى وياقوت الحموى (تفسير الطبرى ٨٤/٣٠، معجم البلدان ٢٦٢/٧).

(٤) تاريخ العرب ص٥٥، ٥٦.

والروم لا ينسون كذلك عملية التقارب بين "ذى نواس" وبين الفرس إلى حد القول بأنه تهود ليعطى الدليل الواضح على أنه ضد الحبشة وضد الروم أعداء فارس.

ولا ينسون كذلك أنه حين كانت سياستهم اقتحام البلاد العربية من الشمال أو الشرق أو الغرب، وأن هذا حين لم يجد شيئاً.. كان لابد من القفز عليهم من الجنوب بوساطة الحبشة، بالإضافة إلى الرغبة فى استخدام القبائل العربية ضد الفرس. وعلى كل فقد تحمس قيصر الروم "جستنيان" حين تمكن نصرانى من الفرار من محرقة "ذى نواس" إليه، ومن هنا نراه يكتب إلى النجاشى ليثأر من اليمن، وكانت الحبشة والنجاشى على رأسها فى ذروة مجدها، بأمرها على البحار تجارة واسعة، ويمخر لها العباب أسطول قوى يجعلها تتسلط بنفوذها على ما حاذاها من البلاد، وكانت حليفة الإمبراطورية البيزنطية، ورافعة علم المسيحية على البحر الأحمر، كما كانت بيزنطه ترفع علمها على البحر الأبيض"[1].

وهكذا يكون الدين – كما قال روم لاندو – قد أصبح كرة قدم سياسية فى هذا الملعب الجنوبى[2].

وسواء أكان الدافع إلى غزو اليمن هو هذا، أم أن الغزو كان من الحبشة ذاتها بغير مؤثر خارجى، فإن الذى لا شك فيه أن قوة عرب الجنوب كانت قد بدأت تضمحل، وتتفتت ابتداء من العصر الحميرى الأول، حين أخذ زمام البحر الأحمر يفلت من أيديهم، بعد أن كان بحيرة عربية.

وكانوا مع ذلك إذا رأوا أن النقل بطريق البحر أصلح فإنهم كانوا ينقلون المتاجر إما عن طريق البحر الأحمر كله إلى القناة التى كانت تربطه بأحد فروع النيل الشرقية، وإما عن طريق الجزء الجنوبى من البحر الأحمر إلى وادى الحمامات، ومنها عبر الصحراء المصرية إلى طيبة أو منف، وكان الطريق البرى عبر الحجاز غاصاً بالمحطات الحميرية[3].

---

(١) حياة محمد د. محمد حسنين هيكل: ٧٤، ٧٥.

(٢) الإسلام والعرب ترجمة منير البعلبكى ٢٢ط.

(٣) تاريخ العرب جـ١ ص٦٩، ٧٠، حياة محمد ص٧٥ الآيات التى تشير إلى ذلك هى "وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة، وقدرنا فيها السير، سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور. (٣٤) سورة سبأ. الآيات ١٧-١٨.

وفي ضـوء هـذا كان الانتصار الحاسم للحبشة على اليمن في عام ٥٢٥، بقيـادة أرياط، ثم أبرهة، وكانت هذه النهاية المؤسفة لذي نواس الذي يقال إنه حين لـم يجـد أمامـه مفراً من الهزيمة اقتحم بجواده البحر ليموت[١]، وقد حفظت عنه قوله:

"المـوت بالـبحر أحسـن من إسارود" وبموته فقدات اليمن استقلالها. وفي صـنعاء أقـام نـائب المـلك الأكسـوني أبرهة واحدة من أعظم كاتدرائيات هذا العصـر[٢]، بعد أن استثار في هذا الأمر النجاشي، وكذلك إمبراطور القسطنطينية، وقـد ورد وصفها في نهاية الأرب، ولعل هذا يؤكد دور روما في هذه الغزوة ذلك لأنـه مـع الغـزو الحربي ازدهر الغزو العقائدي الممثل في المسيحية، فقد صمم الأحـباش عـلى تنصـير أهل البلاد وعلى خلق منافس لمكة الوثنية في الشمال، وضربها في الوقت نفسه اقتصادياً تمهيداً لتوحيد الشمال مع الجنوب.

والذي لا شك فيه أن هذه الكاتدرائية قد اجتذبت عدداً كبيراً من الناس، وأنها سـببت مضـايقات اقتصادية للذين ينتفعون بموسم الحج في الشمال، مما دعا اثنين مـن وثـني العرب، ومن قبيلة فقيم إلى أن يقوما بعملية تدنيس لهذه الكاتدرائية في أمسـية أحـد أيام الأعياد، وقد كان هذا العمل بالإضافة إلى العوامل الأخرى داعياً لأبـرهة بـأن يقـوم بحملته التأديبية ضد مكة في عام ميلاد الرسول عليه السلام (٥٧٠ أو ٥٧١م) وهـو العام الذي يسمى عام الفيل نسبة للفيل الذي كان في جيش أبـرهة، ثم كان أن دمر مرض الجدري هذا الجيش[٣]، فإذا أضفنا إلى هذا التصدع

---

(١) ترى هذه الروايات العربية مثل ما جاء منها في أغاني ٣٠٤/١٧، أما الروايات الإغريقية والحبشية فترى أنه وقع حياً في أيدي الأحباش فقتلوه، وقد مال إلى هذا الرأي فون كريمر (تاريخ العرب قبل الإسلام. د. جواد علي ص١٩١).

(٢) هي التي يسميها الكتاب العرب القليس، والقليس من الكلمة اليونانية اكليزيا Ekklesia ومعناها كنيسة (تاريخ العرب، ص٧٦).

(٣) إلى هذا أشار القرآن ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ ١-٥ سورة الفيل. قال ابن عباس: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نفط جلده، فكان ذلك أول الجدري وقيل: إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام "صفوة البيان - لمعاني القرآن. حسنين محمد مخلوف".

الأخيـــر الجـــارف الذى أصاب سد مأرب[1]، ودخول السفن الرومانية مياه البحر الأحمـــر، أدركنا سر الظلام الذى خيم على هذه البلاد فى هذه الفترة، وأدركنا سر الهجرات الكبيرة التى خرجت من اليمن، بالإضافة إلى أن بعض الباحثين يؤكد أن السـبب الأول فى الهجرة إلى الشمال يرجع إلى تغير مناخى، فتدهور الحضارات القديمة، والتشتت الذى أصاب القبائل، واستمرار حركة الهجرة قبل الإسلام مرتبط - عـلى مـا يظهر - ارتباطاً وثيقاً بتغيرات المناخ وذبذباته وعودته إلى الجفاف النسبى بعد الحالة الممطرة[2].

.. ومـــع أن الظـــروف كـــانت مواتيـــة لهذا الاحتلال، إلا أن تزايد النفوذ الرومانى من خلاله قد أقلق الفرس وجعلهم يستثيرون عليه أهل البلاد الأصليين، ثم إن الأحباش أنفسهم قد دب بينهم الخلاف، وقد ظهر هذا واضحاً حين عمل أحباش اليمن على الاستقلال عن أحباش إفريقية.

وقـــد دعـــا كـــل هذا أصحاب البلاد إلى أن يتحركوا، فكانت "ثورة الأمراء الوطـــنيين" فى هذه الفترة، وكان على رأسها (سميفع أشوع) وقد كان الغرض مها انـــتزاع السلطة من الغاصبين، وطردهم من البلاد[3]، غير أن الثورة الحقيقية كانت تـــلك الـــثورة التى قادها واحد من أبناء البيت الملكى الحميرى.. هو سيف بن ذى يزن الذى ما زال يتجول إلى الآن فى أدبنا، وبخاصة فى السيرة الشعبية.

وقـــد بدأ أولاً يستنجد بالروم، ولابد أنه كان يملك مسوغاً من واقع ظروف البلاد ومن الصلة بين الأحباش والروم، وبين أحباش اليمن وأحباش إفريقية.. جعله يـــركب البحر، ثم يذهب إلى قيصر مستنجداً، ولكنه يأبى عليه هذه النجدة، ثم يقول لـــه (.. أنـــتم يهـــود والحبشة نصارى، وليس فى الديانة أن ينصر المخالف على الموافق[4]).

---

(١) إلى هذا أشار القرآن ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ سورة سبأ ٣٤، آية ١٥ وما بعدها.

(٢) الشعراء الصعاليك د. يوسف خليف ص٦٥ عن بحث وتقرير للدكتور سليمان حزين.

(٣) بين الحبشة والعرب ص٥٧.

(٤) تاريخ مروج الذهب للمسعودى جـــ١ ص٢٨٢.

ثـم نـراه – بوساطة ملك الحيرة العربى – يتصل بالفرس المزدكيين، وفى الـبلاط الفارسـى فى المدائن نراه يقابل كسرى أنوشرون، ثم يعرض عليه شئون بلاده، ويطلب منه النجدة، ثم يذكر له القرابة التى تجمع بينهما وحين يسأل كسرى عن هذه القرابة مندهشاً، نراه يقول له (أيها الملك الجهلة، وهى الجلدة البيضاء، إذ كنت أقرب إليك منهم[1]، وقد استجاب له الإمبراطور الفارسى، وكان أن أرسل فى عـام ٧٥ ق.م ثمانمائة رجل تحت قيادة وهرز (أو وهزر) الذى أسرع فبدد شمل الأحباش فى اليمن، وخلص البلاد من حكمهم.

وحين سلم وهرز الأمور لسيف بن ذى يزن فى مقابل جزية وخرج بسلمان لفارس كل عام، قام سيف بعملية تطهير داخل البلاد من الأحباش، حتى إذا لم يبق مـنهم إلا القـليل جعلهم خدماً يسعون بين يديه، وقد تمكنوا منه فى يوم من الأيام فأثخـنوه بحـرابهم، وتمكن واحد منهم من إعادة سيطرة الأحباش على البلاد، مما جعـل كسـرى يرسل وهرز مرة ثانية فى أربعة آلاف من الفرس وأمره ألا يترك باليمن أسود ولا ولد عربية من أسود إلا قتله صغير أو كبيراً، ولا يدع رجلاً جعداً قططاً قد شرك فيه السودان إلا قتله، فأقبل وهرز حتى دخل اليمن ففعل ذلك[2].

وفى هـذه المـرة قويت قبضة الفرس على أهل البلاد الأصليين، إلى الحد الـذى أحسـوا فيـه أنهـم استبدلوا سيدا بسيد.. (وقد حفظت لنا هذه الرواية فكرة واضـحة عـن التنافس بين القوتين العظيمتين الواقعتين على جانبى بلاد العرب، ونقصـد بهمـا دولتى فارس الزرادشتية، والحبشة المسيحية (وتعاضدها بيزنطة) وتنافس هاتين القوتين على وراثة جارتهما دولة العرب الجنوبية التى قضت نحبها، وكـان عطـف المسيحيين من عرب البلاد على بيزنطة تكأة للتدخل الحبشى، على حيـن أن الميول اليهودية والوثنية نحو فارس أتاحت للأخيرة فرصة صالحة، ولما كـانت صحراء الشام العربية فى الشمال تقف حائلاً دون تدخل قوى العالم إذ ذاك، فإن بلاد العرب الجنوبية كانت بمثابة البوابة التى سلكت منها تلك الدول سبيلها إلى شبه الجزيرة[3]. ونحن لا ننسى أن الذى حكم من صنعاء كان أسود اللون[1].

---

(١) نفسه ص٢٨٢.

(٢) طبرى جـ٢ ص١٤٨ (الجعد: القيصر الشعر، كذلك القطط).

(٣) تاريخ العرب جـ١ ص٨٠.

(٣) فـإذا أردنـا أن نقف وقفة عند الصلات بين الأجناس والشمال متخطين حادث الغزو الذى قام به أبرهة.. أدركنا أن مكة نفسها كانت إحدى المناطق الحيوية التى دار حولها نزاع بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيظزنطية.

ونحـن نـلحظ أنه قد استمرت سبل التجارة بين الشمال والحبشة، فالمطلب أكبر أولاد عبد مناف قد عقد أحلافاً تجارية مع النجاشى، وهاشم قد تلقى من قيصر كـتاباً بشأن أخذ حلف لقريش، وقد كتب قيصر كذلك إلى النجاشى من أجل إدخال قريش فى أرضه[٢].

وعـلى يـد هاشـم بن عبد مناف وأخوته خرجت قريش إلى مجال التجارة الخارجيـة، فقـد اتصلوا فيمن اتصلوا بالأحباش، ووثقوا الصلات التجارية معهم، ومـن هنا كانت رحلاتهم[٣]، وكانت العهود المتعددة مع جيرانهم يقول المرتضى: كـان هاشـم صاحب إيلاف قريش للرحلتين وأول من سنهما فألفوا الرحلتين: فى الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق، وفى الصيف إلى الشام[٤].

وهكـذا نـرى أن الحبشة قد أصبحت متجراً لقريش، ذلك لأن الحبشة كانت أحـد المصـادر الهامـة للـتجارة الشرقية، فمن منتجاتها كان البخور، واللادن، والأطيـاب، وريـش النعام، والعاج، والجلود، والتوابل، كما كانت المصدر الأول لـتجارة الـرقيق الأسود، وفى الوقت الذى كانت فيه قريش تحصل منها على هذه السـلع الهامـة كانت تحمل إليها ما تحتاجه من حاصلات الشام، ومن مصنوعاته، إلى جانب حاصلات الجزيرة العربية نفسها.

وحيـن اسـتولت الحبشة على اليمن ضعف الدور التجارى لقريش، ولكنها ظـلت مسـيطرة على التجارة الداخلية، مما اضطر أبرهة إلى أن يفكر فى انتزاع

---

(١) تاريخ الطبرى ٢٣٦/٣ وما بعدها، وهو الذى قال فيه النبى: أن الله قد قتل الأسود الكذاب الغنى. قتله بيد رجل من إخوتكم.

(٢) ابن سعد جـ١ ص٥٤، ٥٨.

(٣) يشير إلى هذا القرآن ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ ١-٦ سورة قريش.

(٤) الأمالى ٢٦٩/٢.

هـــذه السـيطرة من أيديهم على نحو ما مر بنا، ثم لما انحسر الأحباش عن اليمن استعادت قريش زعامتها[1].

وهـذا التبادل التجارى البحرى الذى كان بين الحبشة والشماليين ربما كانت تشير إليه آيات متعددة من القرآن[2] وهناك من يقول إن قريشاً لعدم تفرغها لشئون الحرب كانت تستأجر "جنداً مرتزقة" من الحبشة وإفريقية للقيام بالحراسة[3].

وقد كان الشماليون يذهبون إلى الحبشة، وهناك روايات عن هذا كثيرة منها أن الشـاعر عمارة بن الوليد المخزومى حاول فى إحدى زياراته للحبشة الاتصال بـإحدى نسـاء القصر الملكى فلما أحس بذلك النجاشى أنهى حياته، كما أنهم سموا بأسـمائهم، فمن رجالهم فى الجاهلية أو يكسوم بن عتاهية، وكان شريفاً وله عقب فى الكوفة[4].

فـإذا أضفنا إلى ذلك أن الرقيق الحبشى المسيحى كانت تزخر به مكة وأنه كـانت فى مكـة مسـتعمرة حبشـية من المحتمل أنها كانت مسيحية[5] أدركنا أن الأحباش كانوا يدخلون فى نسيج الحياة العربية.

ونحـن لا ننسـى هنا تلك الوثيقة التى جاءت فى المحبر لابن حبيب، والتى أورد فيهـا مسـار العرق الأسود، وكيف كان يتردد كالصدى بين عديد من الناس

(١) المحبر لابن حبيب ص١٦٣، مكة والمدينة أحمد إبراهيم الشريف ص١٥٧ وما بعدها.
(٢)﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة النحل آية ١٣).
﴿هُــوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَـــوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ﴾ (سورة يونس آية: ٢٢، ٢٣)
﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (سورة النور: آية ٣٩).
(٣) عصر ما قبل الإسلام للأمان ترجمة مبروك نافع ١٧١.
(٤) الاشتقاق ص٢٠٨، تاريخ الشعر العربى للكفراوى ٢٠٣، ٢٠٤.
(٥) تاريخ العرب جــ١ ص٢٣٠، العصر الجاهلى د. شوقى ضيف ص١٥٠.

وبيـــن أســـر بعيـــنها، وسنوردها هنا كما هى مع مراعاة أنها تجاوزت العرب فى الجاهلية إلى ما بعد الإسلام، وهذه الوثيقة بعنوان أبناء الحبشيات:

نضله بن هشام بن عبد مناف

نفيـــل بـــن عـــبد العزى بن رياخ بن عبدالله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب.

عمـــرو بـــن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن جذيمه من بنى عامر بن لؤى، وأمهم صهال، حبشية كانت لهاشم بن عبد مناف الخطاب بن نفيل، وأمه حية، كامن لجابـــر بن أبى حبيب الفهمى، وذكروا أن ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى عير عمر بن الخطاب فقال له: يابن السوداء، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً منهم ﴾[1].

عمرو بن العاص بن وائل السهمى

معمر بن عثمان التيمى

الحارث بن عبدالله بن أبى ربيعة المخزومى، وأمه سبحاء، حبشية نصرانية.

عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبدالعزيز بن قصى

صفوان بن أمية بن خلف الجمحى

هشام بن عقبة بن أبى معيط

مالك بن عبيد الله بن عثمان الأموى

عمير بن جدعان التيمى

أبو مليكة بن عبدالله بن جدعان التيمى

عبدالله بن أبى مليكة بن عبدالله بن جدعان

عبيد الله بن عبدالله بن أبى مليكة

---

(١) سورة الحجرات . آية ١١.

المهاجر بن قنفذ بن عمرو بن جدعان

عبيد الله بن عبدالله بن معمر بن عثمان التيمى

مسافع بن عياض بن صخر بن كعب التيمى قرطه بن عبد عمرو بن نوفل، أبو فاختته بنت فرظة زوج معاوية ابن أبى سفيان.

السباق بن عبدالدار بن قصى

عبدالله بن قيس بن عبدالله بن الزبير بن العوام

سموه بن حبيب بن عبد شمس

عبدالله بن مسافع بن طلحة، من بنى عبدالدار

عبدالله بن زمعة، أخو بنى عامر بن لؤى

أسامة بن يزيد بن حارثة، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عمرو بن هصيص بن لؤى، وأمه قسامة.

عبد الأعلى بن عبدالله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس يزيد بن كبان الضمرى.

كردوس بت السفلع التغلبى

عنترة بن شداد بن معاوية العبسى. أمه زبيبة.

السليك بن يثربى السعدى. أمه السلكة

خفاف بن عمير، وأمه ندبه، بها يعرف

عبدالله بن خازم السلمى، وأمه عجلى

عمير بن الحباب السلمى، أمه الصمعاء

همام بن مطرف التغلبى

يعلى بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط، وله يقول الشاعر

كأن على مفارق رأسى يعلى خنافس موتت زمن البطاح

شعبه بن هانئ بن قبيعة الشيبانى

سعيد بن عمرو الحرشى

أسيد بن علاج الثقفى

عبدالله بن سبأ ، صاحب السبائية

المتلمس الضبعى الشاعر. أمه يقال لها سحمة

زياد بن عوف بن حارثة بن قتيرة، من التكون، كان فارساً، وأمه هنداب.

محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على

على بن محمد بن على بن موسى

موسى بن محمد بن على بن موسى

جعفر بن إسماعيل بن موسى بن جعفر بن نمحمد بن على

عبدالله بن حمزة بن موسى بن جعفر بن إسحق بن موسى بن جعفر، درج[1].

إبراهيم بن حسن بن حسن

محمد وجعفر ابنا إبراهيم بن حسن

سليمان بن حسن عقيلى .

محمد بن داود بن محمد بن سليمان، حسنى

أحمد بن العباس بن الحسن بن عبيدالله من بنى العباس بن على بن أبى طالب.

العباس بن محمد بن عبدالوهاب بن إبراهيم الإمام

---

(١) وردت هكذا.

العباس بن المعتصم

العباس بن عبدالله بن إسحق المهدى الملقب بنفاطة

أيمن لهبة الله بن إبراهيم بن المهدى – أمه . رمار

أحمد بن محمد بن صالح المخزومى

الأخنس وهو.. الأرقم وهو..[١].

(٤) ومهمـــا يكن من شيء فإن الذى لا شك فيه أن العرب قد استيقظوا على دوى طـــبول فى مكـــة لا على الحدود فقط، ولا فى الجنوب فقط، ولكن هذا الدوى امتد حتى الشمال، وقد أحس العرب أنهم فى خطر حقيقى، فكان أن توقفوا عن الكثير من نزاعاتهم فى الدخل، وأخذوا فى التلاحم، والإحساس بأنهم سيكونون فى خطر حقيقى إذا ظلوا هكذا ممزقين فاليقظة العربية فى الجزيرة كانت على صوت الأحباش، ولكن النشاط العدائى كله تحول بعد قليل إلى قوم من العرب أنفســـهم كـــانوا ســـبب تعطيـــل هذه النهضة [٢]، ولقد كان من جراء هذا كله التعاطف مع الديانة اليهودية، فى مواجهة المسيحية القادمة عليهم من الحبشة، كما أنه فى الوقت نفسه اشتد التفاهم حول الحنفية باعتبارها الدين القومى[٣].

(٥) إذا كـــانت أصداء الحضارتين الرومانية والفارسية تتردد فى الجزيرة العربية، فإنـــنا نـــزعم أن الصوت العالى هناك كان صوت الحضارة الإفريقية المتمثل أساسًا فى التأثير والتأثر من الحبشة.

فالأحباش كانوا يوجدون جيراناً وغزاة وقوة بشرية كبيرة داخل نسيج الحياة العربية فى الجنوب وفى الشمال معاً.

(أ) ففيمـــا يتصـــل بالعقيدة نجد أنه كان هناك تأثير لا جدال فى قيمته، وهناك ثروة عظيمـــة من التأثير لا شك فى أهميتها، وإن كان من الصعب وضع اليد تماماً

(١) كذا البياضات بالأصل.. (المحبر ٣٠٦-٣٠٩)، هناك وثيقة بالأسماء وبخاصة الشعراء فى كتاب المذاكرة فى ألقاء الشعراء لمجد الدين النشاط. تحقيق شاكر العاشور ط١ بغداد.

(٢) تاريخ الشعر العربى د. شوقى ضيف ص٣١.

(٣) نفسه ٣٩-٤١.

عـليها لأنصـارها فى بوتقـة الوجود اليمنى.. ولعلك تعجب أيضاً حين تجد اخـتلاط آثار الحبشة واليمن بالأخبار اليهودية والنصرانية وغيرها مما جاءنا عـن طريق الحبشة أو اليمن، مثال ذلك قولهم إن لقمان كان عبداً حبشياً، وفى روايـة أنه كان قاضياً إسرائيلياً، وقولهم إن طفلاً من بنى إسرائيل كان يسمى صـاحب الحبشـة كان قد نطق فى المهد، وقولهم إن أصحاب الأخدود كانوا قوماً من بنى إسرائيل، أو قوماً من الحبشة، أو قوماً من اليمن أو غير ذلك[1].

وممـا يدل على قوة الصلة فى هذا الأمر أن مذهب الطبيعة الواحدة.. الذى قال به "فرومنتيوس" فى الحبشة منذ القرن الرابع سرعان ما وجد صداه فى اليمن، وأن إرسـال خطـاب بالسريانية على نحو ما فعل يعقوب السروجى – إلى نجران يـدل على أن هذه اللغة كانت مفهومة هناك وهناك الأخبار التى تثبت أنه كان فى دولـة حميـر أسقفيات أربع فى ظفار وعدن، وعلى مدخل الخليج الفارسى، وفى نجـران[2] وقـد كـانت كنيسة صنعاء من الشهرة بحيث قيل أن كثيراً من القبائل العربية قد حجت إليها عدداً من السنوات، وأن بعضهم أقام فيها للنسك والعبادة[3].

وعـلى كل فقد شاعت تأثيرات مسيحية حفظها لنا الشعر العربى، فأمية ابن أبى الصت يعلم العرب كلمة باسمك اللهم .. ويقول:

مَجِّـدوا الله وهـو المجْـد أهْـلٌ ربـنا فى السـماء أمسـى كـبيراً

ويـروى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال إن كاد أمية ليسلم لما سمع هذا البيت.

الحمـد لله مُمْسَـانا ومُصْـبَحُنا بالخيـر صـبَّحنا ربى ومسَّـانا

---

(١) بين الحبشة والعرب ص٩٣، ٩٤.

(٢)هى التى قال فيها الأعشى:

وكعبة نجران حتم عليـ ـك حتى تناخى بأبوابها

نزور يزيد، وعبدالمسيح وقيساهم خير أربابهـا

وممن اشتهر من أسقافتها قس بن ساعدة الأيادى، ومن عظمائها يزيد بن عبدالمدان وكلاهما أديبان (الأغانى ١١٣/٩، بين الحبشة والعرب ص ٩٧.

(٣) بين الحبشة والعرب ص٩٧.

وقال حواس :

وتسمع تزقاء من البوم حَوْلنا	كما ضُربتْ بعد الهدوء النواقسُ
وأعرضتَّ الشِّعرى العبورُ كأنها	مُعلَّقُ قنديل علَته الكنائسُ

وقال بشر بن أبى حازم يهجو عرجاً فى بنى حداء

لله دُر بنى حداءَ من نفرٍ	وكلُّ جار على جيرانه كَلِبُ
إذا عَدَو أو عصىُّ الطَّلح أرجلهم	كما تُنَصَّبُ وسط البيعةِ الصُّلُب

ويشبه ابن زيد العبادى الجميلات بدمى المحاريب وقس بن ساعدة الأيادى أدخل شيئاً جديداً على الأدب العربى لم يكن معروفاً من قبل، وهو التعقيب بالشعر على النثر، متأثراً فى هذا بما كان يفعله رجال الدين من الأحباش فى مقطوعاتهم المساة "سلام" لأنها تبدأ بلفظ سلام ونظن أن نظام التذييل هذا ولو أنه لم يصل إلينا مدوناً إلا فى عصور متأخرة، متأثر بالأدب الحبشى، والمعروف أن الأدب الشعبى فى أية أمة أعمق فى تاريخ أجيالها، وأبعد تأثراً بالأدب الأجنبى من الأدب الرسمى[1].

.. وبالإضافة إلى هذا يوجد تأثير حبشى فى الحياة العربية، خاص بالخرافة والسحر، وهناك من يقول إن العرب قد أخذوا ظاهرة الزار من عندهم ومعنى الكلمة فى الأمهرية الروح الشريرة، ومن الملاحظ أن المصريين إلى الآن يستخدمون بعض السود للقيام بمواسيم حلقة الزار، وبالإضافة إلى هذا التأثير الواضح للحبشة فى اللغة العربية، ونحن لا ننسى الكلمات الحبشية التى وردت فى القرآن الكريم. وفى أحاديث الرسول[2].

(ب) كان من احتدم المعركة بين الأحباش واليمنيين ودخول عنصر ثالث فى الصراع هو الفرس أن رويت أخبار، وأشعار كثيرة حول هذا الصراع، ففى بدء الحملة سار الفرس حتى أتوا ساحل حضرموت بموضع يقال له مثوب،

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى د. أحمد الحوفى ١٢١ بين الحبشة والعرب ١٢١، العدد ١٥ من نهضة إفريقية مقال دراسات فى الآثار الإفريقية فى الحياة العربية القديمة د. عبده بدوى.

(٢) بين الحبشة والعرب ٩٨، العدد ١٥ من نهضة إفريقية.

وقيل إن وهرز أمرهم بحرق السفن ليعلموا أنه الموت ولا وجه يؤملون المفر إليه فيجهدون أنفسهم وفي ذلك يقول رجل من حضرموت :

أصـــبح مـــن مثوب ألفٌ في الْجُنَنْ ... مـــن رهـــط ساسان ورهط مهرشن
ليخرجوا السودانَ من أرض اليمن ... دلهـــم قصـــدَ السَّـــبيل ذُو يـــزَنْ

ومن هذا القبيل هذا الشعر الذي يقال على لسان فارس:

نحـــن خُضْـــنا الـــبحارَ حتى فككنا ... حميـــراً مـــن بـــلية الســـودان
فقلـــنا مســـروقَ إذ تـــاهَ لمـــا ... أن تداعـــتْ قـــبائلُ الحُبشـــان
وفلقـــنا ياقوتـــةً مـــنْ بيـــن عَيْنيـــ ... ـــه بنشّـــابة الفـــتى الساســـاني
..وحويـــنا بـــلاد قحطـــان قَسْـــرا ... ثـــم ســـرنا إلى ذُرى غمـــدان
فنعمـــنا فيـــه بكـــل ســـرور ... ومنـــنا عـــلى بـــني قحطـــان [١]

ولعـــل القصيدة الوثائقية الهامة التي ترسم صورة للفرحة التي شملت الناس حيـــن تخلصـــوا من الأحباش هي تلك القصيدة التي قالها أبو الصلت والد أمية[٢]، والتي تقول:

لا يطـــلب الثار إلا كابن ذي يزن ... في الـــبحر خيّـــم للأعـــداء أهـــوالاً
أتَى هـــرقلَ وقـــد شـــالتْ نعامـــته ... فـــلم يجـــدْ عـــنده النَّصْر الذي سالا
ثـــم انْتَحَى نحو كِسرى بعد عاشرةٍ ... مـــن السّـــنين يهيـــن النفس والمالا
حـــتّى أتى ببـــني الأحرار يقدمهم ... تخـــالفهم فـــوق مَتْنِ الأرض أجبْالا
مـــن مثل كسْرى شهنشاهِ الملوك لهُ ... أو مـــثل وهْرِز يوم الجيش إذْ صالا
لله دَرّهُـــمُ مـــن فـــتيةٍ صَـــبَروا ... مـــا إن رأيـــتُ لهم في الناس أمثالاً
بيـــضٌ مـــرازبةٌ، غـــلبُ أساورة ... أســـدُ تَرّببُ في الغَيْضَاتِ أشبالا [٣]

---

(١) هذه النبرة تتردد في بعض الشعر العربي.
(٢) قيل أنها لأمه لا لأبيه وقيل أنها لجده أبو زمعه.
(٣) في السيرة النبوية لابن هشام ص٦٨ ط الحبلي بيضا مرازبة، وهناك اختلاف في الرواية في حماسة البحتري ١٢، وفي تاريخ الطبري ١٤٧/٢.

أرسلت أُسْدًا على سُود الكلاب فقدْ أضْـحى شريدُهم فى الأرض أفلالا
فاشــربْ هنيــئًا عليك التاجُ مرتفقا فى رأس غمدان[1] دارا منك محِلالا
واطــلِ بالمســكِ إذْ شالَتْ نعامَتُهم وأسْــبل اليــوم فى بُــرْدَيْك إسْبالا

وهــناك قصيدتان كذلك قليتا فى تهنئة سيف بن ذى يزن بالتخلص من حكم الأحباش[2].

... وقد وقف الشعر وقفة متأنية حين حاول الأحباش غزو مكة، ومما يروى فى هــذا أن عبدالمطــلب بعد أن قابل أبرهة تلك المقابلة المشهورة خرج من عنده وهو يقول :

يــا أهــل مكّــةَ قــد وافاكمُ ملكٌ مــع الفُيــول عــلى أنيابهــا الزردُ
هــذا النجاشــى قــد سارتْ كتائبهُ مــع الــليوث عــليها الــبيضُ تتَقّد
يــــريدُ كعبــــتكُم، واللهُ مانعُـــــهُ كمــنع تــبع لمــا جاءهــا حَــرَدُ

ثــم أمر قريشا أن تلحق ببطون الأودية ورءوس الجبال "من معرة الحبشة"، وقلد الإبل النعال، وخلاها فى الحرم، ثم وقف بباب الكعبة يقول:

يــا رب لا أرجُــو لهــم ســواكا يــا رب فامــنعْ مــنهمو حماكــا
إن عــدو الــبيت مــن عاداكــا فامــنعهمو أن يخــربواْ قُــراكا

وروى قوله :

يــا رب إن المــرءَ يمنعُ رحلهُ فامنعْ رحالَك
لا يَغلــبنَّ صــليبُهم ومحــالُهم غدْوا محالك

وهــناك شــعر يروى عن نفيل بن حبيب[3] الأكلبى، الذى كان دليلاً لجيش الحبشــة، ثــم هــناك هــذا الشــعر الذى سجل الفرح برد العدو عن الكعبة، وهو لعبدالمطلب :

---

(١) من مبانى العرب المشهورة وقد جاء وصفه فى نهاية الأرب ٣٨٤/١/ ٣٨٥.
(٢) تاريخ مروج الذهب جــ١ ص ٢٨٢ وما بعدها، الطبرى ١٢٥/٢ سيرة بن هشام ٦٥/١ وما بعدها.
(٣) الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ننافيا تحقيق د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثى ص ٣٨٤

أيّهـــا الـــداّعى لقـــدْ أسْـــمَعْتنى	ثــم مـــا بى عـــن نداكـــم من صَمَمْ
إن للـــــــبيت لـــــــربًا مانعـــــــاً	مـــــن يُـــــرِدْه بأثـــــام يصـــــطلم
رامــــه تـــبع فيمــــن جــــندت	حميـــر والـــحى مـــن آل قـــرم
فانثـــــنى عـــــنه وفى أدراجـــــه	جـــارحٌ أمســـك عـنـه بـــالكظم
قـــلتُ والأشـــرمْ يـــرمى خيلـــه	إن ذا الأشـــــرم غـــــر بالحـــــرم
فجـــزاك الله فيمـــا قـــد مضـــى	لــم يــزل ذاك عــلى عهــد ابرهم

وهـــناك مـــن يذكر فى هذا المجال أن امرأ القيس حين أخذ يعمل على الثأر لأبيـــه، نزل بقيل يدعى مرثد الخير بن ذى جدن الحميرى، وقد كانت بينهما قرابة فاستنصـــره، واستعداه على بنى أسد، ،فأمده بخمسمائة رجل من حمير، ولكن مات مـــرثد قبل رحيل امرئ القيس وكان أن قام بالمملكة من بعده رجل من حمير يقال لـــه قـــرمل بن الحميم وكانت أمه سوداء، فردد امرأ القيس وطول عليه حتى هم بالانصراف، وقال :

وإذا نحـــن ندعو مرثد الخير ربنا	وإذ نحـــن لا نـــدعى عبيداً لقرمل[1]

ومـــع أن ظلالاً من الشك يمكن أن تلقى على هذا الشعر كله، إلا أنه يرسم مـــن أى عصـــر صورة لما حدث بالفعل فى البلاد العربية، ويؤكد فى الوقت نفسه التماس والانصهار مع الأفريقيين.

(جـــ) وقـــد تميز الأحباش بما يمكن أن يسمى "بالأدب المكشوف فهم يميلون إلى الجمـــوح فى العـــزل إلى حد المجون، ولعل هذا راجح إلى فطرتهم، وإلى أنه كان مضيفاً عليهم فى الحياة الاجتماعية وأنهم كانوا فى حالة ضيق داخل هذه الحيـــاة ممـــا جعـــلهم دائماً فى توتر، وأنه لم يكن لهم الحق فى دخول شيء لإعـــلاء غرائزهم وتعديل دوافعهم، وقد وصف النبى عليه السلام حالهم بأنهم "إن جـــاعوا ســـرقوا، وإن شـــبعوا زنوا"، وحين كتب لعثمان من أجل شراء الشـــاعر الحبشى سحيم رد بقوله فى حسم "إنما حظ أهل الشاعر منه إذا شبع

(١) تاريخ مروج الذهب ١/٣١٠-٣٢٦، شعراء النصرانية ١/١٨.

أن يشـــبب بنسائهم، وإذا جاع أن يهجوهم" ومما يدل على هذا أن عندهم نوعاً مـــن الأناشيد الدينية يسمونه "ملكئ" وهو يتعرض لوصف أعضاء القديس أو الشـــهيد بطـــريقة عاريـــة وحادة، ولعل مما يؤكد هذا أننا إذا تتبعنا الشعراء الـــبارزين فى هذا المجال وجدناهم إما أحباشاً، أو عرباً تأثروا بهم، على نحو مـــا سنرى من سحيم عبد بنى الحسحاس وعلى نحو ما نرى من امرئ القيس الذى كانت قبيلته "كندة" مقصد الغزاة من الأحباش، وعمر بن أبى ربيعة الذى يقـــال إن أمـــه كـــانت أم ولد من حضر موت، أو حمير أو الحبشة، وقيل بل الحبشـــية أم أخيه ويرى بعضهم أن الغزل أتاه من "حمير" ومما يقال فى هذا: غـــزل يمـــان ودل حجازى.. وكان للعبيد الأحباش، والإماء الحبشيات ميزات تجعـــل ســـادتهم يؤثرونهم على غيرهم ، ويعتمدون عليهم فى أعمالهم ولاحظ بعض الباحثين أن الجوارى فى بلاد العرب ولا سيما الحبشيات منهن كن أكثر حظوة لدى سادتهن من نسائهن الحرائر لأسباب كثيرة[1].

(د) ومـــن الأحـــباش انتقلت إلى العرب المتأثرات فى الحكمة والقرآن قد تعرض لوصايا لقمان لابنه، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ، وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ.. ﴾ ..[2] الخ)، وقد زعم وهب بن منبه أنه قرأ عشرة آلاف فصل من حكم لقمان، وقيـــل إن النضر بن الحارث قد حفظ من مجلة لقمان ليضاهى بها أقوال النبى فى مجالس قريش، ولقمان هذا قيل إنه حبشى.. ونحن لا ننسى هذا النوع من الحكمـــة الذى جرى على ألسنة مثل ألسنة الأعشى، وقس بن ساعدة وأمية بن أبى الصلت.

(هـــ) وأخيـــراً فهـــناك ظاهرة المرح والمغنين والمسهمين فى تطوير الموسيقى الشـــعرية، ومم هناك الشعراء الفرسان الممتلئون بالجسارة والذين سنرى أنهم ســـيكونون ملامح هؤلاء الذين أطلق عليهم اسم: "الشعراء الأغربة" وبالأضافة إلى هذا نجد تشبيه الأشياء بالرجل الحبشى، على نحو ما نعرف من شعر أبى

(١) بين الحبشة والعرب ص ١٠٦ وما بعدها ، الشعر والشعراء ص١٤٢.
(٢) سورة لقمان آية ١٣-١٩.

الطمحـــان القينى، وأعشى بكر، مهبار الديلمى وعلى نحو ما نعرف من قول العجاج: كالحبشى التف أو تسبجا[1].

ثانيا : الصلة بالأحباش بعد الإسلام :

(١) ثـــبت فضـــل الحبوش على سائر أنواع الموالى، لنقل من الأحاديث والأخبار والخصـــائص والآثار، "ولنا أن نذكر ما به امتيازهم وقبولهم واعتبارهم بأمور يقبـــلها العقل، ويشهد لها الطبع والنقل .. منها كمال عقولهم، ،وصفاء قلوبهم، وحذقهـــم ولطافتهم وفطانتهم ووجاهتهم وكونهم من جنس لقمان الحكيم، وبلال المـــؤذن، وشُقران، والنجاشى، ومهجع وغيرهم ممن أمن واتبع من الصحابة والـــتابعين وخدام سيد المرسلين، وكان جم غفير منهم فى خدمة النبى، وبذلك نـــالوا الشـــرف والفخـــر والـــثواب والأجـــر، وعـــدو من الصحابة التابعين والمهاجرين، والمجاهدين.

(٢) لا شـــك أن العبيد كانوا يشكلون طبقة كبيرة من المجتمع المكى، فهم مع أنهم كانوا يمثلون جانباً مرحاً من جوانب الحياة، غناء، ورقصا وموسيقى، إلا أنهم فى الوقت نفسه كانوا يمثلون الكادحين الذين يعملون فى الأعمال الشاقة، والتى يـــترفع عـــنها الكثير من العرب، فقد كان لا يخلو بيت شريف من العبيد، وقد كـــان مثلاً لعبد الله بن أبى ربيعة عبيد بن الحبشة يتصرفون فى جميع المهن، وكان عددهم كثيراً، وروى عن سفيان بن عيينة أنه قيل لرسول الله صلى الله عـــليه وســـلم حيـــن خـــرج إلى حنين، هل لك فى حبش بنى المغيرة تستعين بهم؟[2].

ويـــبدو أن السواد كان قد دخل فى جرثومة الحياة فى اليمن، فحين قدم أولاد الحارث بن كعب من نجران إلى النبى عليه السلام لإعلان إسلامهم، حدث أن لفتوا نظـــر النـــبى بضخامة أجسامهم، وبسواد لونهم، فقال حين وقع بصره عليهم "من هؤلاء الذين كأنهم رجال الهند"[3]، وقال: اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، النجاشى وبلال المؤذن[4].

---

(١) يريد لبس قميصاً.

(٢) الأغانى ٦٥/١، العصر الجاهلى. د. شوقى ضيف ٥١.

(٣) الطبقات الكبير لابن سعد القسم الثانى من الجزء الأول ص ٢٠٧.

(٤) أزدهار العروش للسيوطى ٧.

٣- الهجرة والحبشة

إذا كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة تطرح سؤالا يقول: ولماذا الحبشة؟ فإن من البدهى أن نعرف أن هذه الهجرة لم تتم عشوائياً وإنما كانت ثمرة بحث عميق، فنحن قد عرفنا أن أرض الحبشة كانت متجراً لقريش، وكانوا يجدون فيها "رفاغاً من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً"[١] ثم إن هذه الفترة التى تمت فيها الهجرة كانت فترة استمرار للعلاقات بين ساحلى البحر الأحمر، ولقد كانت الرحلة سهلة، فهؤلاء المهاجرون لم يجدوا أية صعوبة فى عبور البحر الأحمر والانطلاق إلى الحبشة، فقد تيسر لهم "مركبان" نقلاهما إلى الحبشة، كما أن خروج أبى موسى الأشعرى من اليمن مهاجراً إلى الحبشة يدل كذلك على استمرار العلاقات فى هذه الفترة بين بلاد العرب والحبشة، فإذا أضيف لهذا سهولة وصول أخبار النبى عليه السلام إلى الحبشة، واستمرار وصول الوفود إلى النبى. أدركنا أن العلاقات كانت طيبة بين ساحلى البحر الأحمر، ولم تكن العلاقات لتستمر على هذا النحو من السهولة واليسر إلا نتيجة لظروف طبيعية تحتم وجود هذه العلاقات، فظروف الحياة القاسية فى شبه الجزيرة العربية، وسهولتها فى الحبشة، تجعل هجرة اليمنيين إليها سهلة مستمرة[٢].

ومهما يكن من أمر فإن المسلمين كانوا على وعى بحماية المسيحية فى اليمن ضد اليهودية، وكيف أن الأحباش كان من همهم تحطيم الوثنية العربية فى الشمال.

وفى ضوء هذا نرى النبى عليه السلام يرسل "بعثة استطلاعية" للتعرف الكامل على البلاد، ولتحسس رغبة النجاشى، فى وصول عدد كبير من المسلمين إلى الحبشة.

وقد ذكر الرواة أن النجاشى أراد أن يتثبت من حقيقة هؤلاء الذين قدموا عليه، فما كان منه إلا أن أرسل وفداً إلى النبى وهو ما زال فى مكة وهم الوفد الذى حين ظهرت استجابة أعضائه للرسول، قال لهم أبو جهل مع نفر من قريش

---

(١) الطبرى ١/١١١.

(٢) سيرة الحبشة للحيمى تحقيق د. مراد كامل ٦٥.

"خيبكم الله من ركب" وقد رجع هذا الوفد إلى النجاشى وحدثه بما رأى فما كان من النجاشى إلا أن رحب بكل الذين جاءوا وسيجيئون إلى دياره، وهكذا لم يكن رجوع هـذه البعـثة الاستطلاعية "لإشاعة سرت بينهم أن أهل مكة قد أسلموا - كما زعم الـرواة -ولكـنهم رجعوا بعد أن أدوا مهمتهم وفاوضوا الملك فى أمر إخوانهم[1]، ومـن هنا كان إذن النبى لهم بالهجرة إلى الحبشة بعد أن اطمأن تمام الاطمئنان أن هؤلاء المهاجرين سيكونون آمنين من وقت خروجهم إلى حين وصولهم، وأنهم بعد ذلك سيكونون فى أمان غامر فى ظل النجاشى.

وقـد أسـرعت قـريش - على نحو ما هو معروف - فأرسلت بعثة تحمل الهدايـا لإحباط أمر المسلمين هناك، وهناك كان هذا الالتحام الفكرى بين المسلمين وبيـن من قدموا من مكة، وكانت هناك محاولة الوقيعة بين المسلمين ومن يعيشون فى رحابهم.

ثـم كانت الكتب المرسلة من النبى إلى النجاشى بشأن عرض الإسلام عليه، وبأن يخطب له السيدة أن حبيبة بعد أن تنصر زوجها، ثم بشأن رد المهاجرين إلى ديـارهم وفى السنة التاسعة للهجرة أرسل النبى إلى النجاشى هدية مكونة من حلة، وأوانى من المسك فردت إليه لموت النجاشى، فلما عرف النبى ذلك أوفد عمرو بن أمية بكتاب يدعو فيه النجاشى الجديد إلى الإسلام.

وفى ضـوء هذا نرى أن المسلمين قد كرموا فى الحبشة، ولم تسمع المكائد فيهـم مـثل القـول: إنهم مستكبرون عليك، ولذا لم يحيوك بتحيتك التى يحييك بها الـناس وهـم سجود ومثل القول: إنا كنا نحن وهم على دين واحد فخالفونا، وأتوا بديـن مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، فنريد أن نردهم إليه، وكذلك مثل القول: إنهم يخـالفونك فى ابـن مـريم العذراء،ولكن النجاشى قال: ابشروا ولا تخافوا فإنه لا رهبوت اليوم على حزب إبراهيم.

وقـد استمرت الرسائل والهدايا متبادلة بين النبى وبين النجاشى[2] وبلغ من إكـرام النـبى لهم أن وفد الحبشة حين قدم، قام النبى يخدمهم بنفسه، وحين قال له

(١) بين الحبشة والعرب ٧٥ وما بعدها.

(٢) بين العرب والحبشة ٨١-٨٨، سير أعلام النبلاء ١٥٥/٢، الجواهر الحسان بما جاء عند الله والرسول وعلماء التاريخ فى الحبشان. محمد الحفنى القنائى ص٨٧، ٨٨-٢٠٧-٢١٠.

الصـــحابة: نحن نكفيك يا رسول الله، قال لهم (إنهم كانوا لأصحابى مكرمين فأحب أن أكافــئهم) وحين بلغت النبى وفاة النجاشى، قال لأصحابه (أخرجوا فصلوا على أخ لكم)[1].

٤- القرآن .. والحبشة :

(أ) فى ضوء هذه العلاقة الطيبة بين العرب والحبشة، نرى القرآن فى نظر بعضهم يـــتعرض لهـــذه العلاقة، فلقد روى عن عطاء بن أبى رباح أن ذكر النصارى بالخير فى القرآن يراد به النجاشى وأصحابه، ومن هذا قول الله تعالى:

﴿ وَإِنَّ مِـــنْ أَهْـــلِ الْكِـــتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ (الآية ١٩٩ من سورة آل عمران).

﴿وَلَـــتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيـــضُ مِـــنَ الدَّمْـــعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (الآيتين ٨٢، ٨٣ من سورة المائدة).

(ب) شـــغلت الألفـــاظ الحبشـــية الموجودة فى القرآن عدداً من الباحثين وقد اجتهد الأســـتاذ نـــلدكه فى إيـــراد ما استطاع الاهتداء إليه من الألفاظ الحبشية التى اســـتعملها القـــرآن والـــلغة العـــربية، وقد ألقى الأستاذ برجشتراسر بالعربية محاضـــرات مطـــبوعة الآن ذكر فيها طائفة من الألفاظ العربية الدينية التى تـــرجع إلى أصل حبشى[2].. وقد أورد السيوطى فى الإتقان باباً ذكر فيه تلك الألفـــاظ الـــتى وردت فى القـــرآن مـــن غير العربية، وذكر منها قرابة ستة وعشـــرين لفظاً أرجعها إلى اللغة الحبشية، ولكن أكثرها لم يثبت اشتقاقه.. أما كتاب أزهار العروس فى أخبار الحبوشى[3] فقد تعرض لهذه الألفاظ ومعانيها على الوجه الآتى، وتصل إلى نيف وثلاثين كلمة :

١- قيل فول وجهك شطر المسجد الحرام: تلقاء بلغة الحبش.

(١) بين العرب والحبشة ٨٨، الجواهر الحسان ٤١.

(٢) بين العرب والحبشة ٩٨، ٩٩.

(٣) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ح٢٨٣١٨ ورقة ١٠-١٣.

٢- يؤمنون بالجبت والطاغوت: عن ابن عباس الجبت الشيطان بالحبشة والطاغوت الكاهن، وقيل الجبت: الساحر بلسان الحبشة.

٣- قال نافع بن الأزرق لابن عباس أخبرنى عن قول الله تعال: إنه كان حوبا كبيراً، قال إثماً كبيراً بلغة الحبشة.

٤- إن إبراهيم لأواب .. الأواب، الموقن بلسان الحبشة، وقيل الرحيم، وقيل الدعائى بلسانها.

٥- يا أرض ابلعى ماءك : بالحبشة أزدرديه .

٦- واعتدت لهن متكأ : بكلام الحبش يسمون الترنج متكأ.

٧- طوبى لهم : قيل طوبى اسم الحبشة بالحبشية.

٨- طه : بالحبشية معناها يا رجل.

٩- حصب جهنم : عن ابن عباس حصب جهنم بالزنجية حطب جهنم.

١٠- السجل : الرجل (كطى السجل للكتاب).

١١- مثل نوره كمشكاة : المشكاة بلسان الحبشة الكرة.

١٢- تأكل منسأته : المنسأة العصى بلسان الحبشة.

١٣- ياسين : يا إنسان بالحبشة، أو يا رجل.

١٤- إنه أواب : الأواب : المسبح.

١٥- يؤتكم كفلين : ضعفين بالحبشية.

١٦- إن ناشئة الليل: قيام الليل بلسان الحبشة، إذا قام الرجل قالوا نشأ.

١٧- السماء منفطر به : ممتلئة به بالحبشية.

١٨- قسورة : الأسد بالحبشية.

١٩- أنه ظن أن لن يحور : يرجع بالحبشية.

٢٠- كوكب درى: مضئ بالحبشية [1].

---

(١) يلاحظ أن أغلبها يدور حول أمور دينية.

وإذا كان يمكن القول بأن اللغات السامية ترجع إلى أصل واحد، وإن فى هذه اللغة الأم ألفاظ كثيرة مشتركة كالأب والأم والسيد والدم والمهن والسنة والشفة والأمة وغيرها، فهى كلها مشتركة فى جميع اللغات السامية أو فى أكثرها.. إذا كان يمكن هذا القول للوصول إلى أن هذه الألفاظ ألفاظ مشتركة بين اللغتين العربية والحبشية، فإن الذى يحكم هذا كله هو التحقق من لفظ الكلمة ومعناها وكيفية استعمالها فى اللغتين والعلاقة بينهما وبين سائر اشتقاقاتها، وبهذا تكون الكلمة حبشية الأصل إذا تحققت فيها صفة من الصفات الآتية [1]:

١- وجود اشتقاق للكلمة فى الحبشية يكون أظهر وأبين فى العربية ومثل هذا: حواريون، ومنافق، ومنبر فكلمة حوارى مع إدراكنا أن بناءها غير مألوف فى العربية لا يمكن اشتقاقها من حار لأن أقرب المعانى التى تؤديها هو الرجوع، أما المعنى فى الحبشية فهو السير والسفر، والحواريون فى لغة الكنيسة هم رسل المسيح. وكلمة منافق معناها فى الحبشية شك، وراهن وخالف، ولا علاقة فى العربية بين النفاق وكل المعانى التى تؤديها كلمة نفق. وفعل منبر فى الحبشية نبر بمعنى جلس، ولا يوجد اشتقاق للمنبر فى العربية[2].

٢- نقل الكلمة محرفة من الحبشة أو مغايرة للأصل مثل محراب والتى ربما كان أصلها محرام فى الحبشية أى المعبد، وأبدلت الميم باء، وربما كان أصلها مكراب بمعنى المكان المقدس فأبدلت الكاف حاء، ومثل ذلك كلمة بغل[3]، فهى لفظة حبشية أصلها بقل، ومن هنا يتبين أن تغير الكلمة فى حرف من حروفها قد يكون دليلاً على عدم أصالة الكلمة فى اللغة التى نقلت إليها.

٣- انفراد الكلمة فى العربية بحيث لا يكون لها قرابة إلا ما اشتق منها، مثال ذلك كلمة "مائدة" فهى فى الحبشة "مائد" ولا يوجد لها فى العربية أى اشتقاق من مادتها.

---

(١) بين العرب والحبشة ص١٠٠ وما بعدها.

(٢) لكن يلاحظ أن النون والباء فى ابتداء الفعل تدل على الظهور والارتفاع فى اللغة العربية مثل نبت، نبش، نبع، نبغ، نبق، نبذ، نبض... الخ.

(٣) وردت فى القرآن "والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون.. سورة النحل، آية ٧.

ومن هذا النوع كلمات أخذت من الحبشية، وأخذتها الحبشة من قبل من لغات أخرى مثل إنجيل، وجهنم، وتابوت، فهى ألفاظ بعضها يونانى، وبعضها عبرانى.

٤- وجــود نص موثوق به يؤكد أن اللفظة حبشية الأصل من ذلك ما ذكر من أن مشكاة أصلها حبشى، فإذا رجع إلى أصل الكلمة فى الحبشية نجد أن Maskot معناه الكوة، وفى القرآن يرسم المقطع الثانى بالواو مما يدل على أن حركته لم تكن فتحة ممدودة فى الأصل بل كانت كما فى الحبشة تماماً.

ومثــلها كــلمة مصحف، ففى الحبشية كلمة Mashaf مشتقة من صحف أى كتب، والكلمة فى العربية تروى ميمها محركة بالحركات الثلاث.

٥- نــدرة معنى من معانى الأوزان فى العربية مع شيوعه فى الحبشية، ومثل ذلك كــلمة "أخــدود"، فوزن أفعول بالفتح يأتى فى الحبشية (وربما فى لغات يمنية أيضــاً) للدلالة على الجمع ، فيقال أهجور أى بلاد جمع أهجر، وأجموس نوع مــن النقود جمع جمس "ولا نعرف أن أفعول قد ورد فى العربية مفتوح الأول وإنمــا ورد مضموم الأولى للدلالة على معان شتى من بينها معنى الجمع على أن ورود هــذا الوزن للدلالة على الجمع قليل نادر فى العربية، وقد وجدنا أن الســيوطى لم يذكر مما جاء على هذا الوزن للدلالة على هذا المعنى إلا ثلاثة ألفاظ: أمعور: القطيع من الظباء، وأحبوش جيل الحبش، وأركوب الجماعة من الركاب، وإذا أمعنا النظر نجد ألا فارق بين الوزن المضموم الأول الدال على الجمع فى العربية ومثله المفتوح الأول فى الحبشية واليمنية، ذلك أن العرب لم تجر ألسنتهم على نطق أفعول مفتوح الأول (كما لا تستسيغ نطق فعول مفتوح الأول إلا فى ألفاظ قليلة) ونرجع أن أفعول الدال على الجمع فى العربية دخيل جاءنــا عــن طــريق الحبشة أو اليمن، وحين تسرب إلى ألسنة العرب أجروه مجــرى ما ألفوه فضموا أوله، وأدرجوه فى جملة أفعول الدال فى أصل اللغة العــربية عــلى معان كثيرة لا صلة بينها وبين الجمع، ومما يؤيد رأينا فى أن معــنى الجمع فى هذا الوزن دخيل ما نجده من معانى تلك الألفاظ الثلاثة التى أوردهــا الســيوطى: إمعور، وأحبوش، وأركوب، فمعانيها توحى بأنها غريبة جاءت عن طريق الحبشة أو اليمن"[1].

(١) بين العرب والحبشة ١٠٤.

(جـــ) وهناك صلة مشتركة تدور حول مملكة سبأ، فالأساطير الحبشية تتكلم عن ملكة تسمى "ماكيدا" كانت تحكم الحبشة واليمن، وقد زارت سليمان الحكيم ملك بيـت المقـدس، والأحباش يكنون الاحترام لهذه الملكة، ويتخذون حكمها مبدأ لـتأريخهم، كمـا يعتـبرون زيارتها لسليمان الحكيم وإنجابها منه ولداً يسمى منيليك.. أساساً لملكهم.

وسـبب هذه الزيارة يرجع إلى أنه كان هناك تاجر ثرى يدعى "تمارين" أو "تمـر الديـن" فقـد كان يملك خمسمائة وعشرين جملاً، وثلاثمائة وسبعين سفينة، وحيـن سمع سليمان به أرسل فى طلبه ليحمل له بعضاً من تجارة الجزيرة العربية مـن الذهب الأحمر، والخشب الأحمر الذى يستعصى على "السوس" وقد حمل إليه الـتاجر مـا أراد، وفى بيت المقدس شاهد ملكاً عظيماً، فلما عاد التاجر إلى ملكته "مـاكيدا" فى الجـنوب قص عليها ما شاهده ، وما أعجبه من حكمة سليمان الذى كـانت كلماته كالماء للعطشان، والخبز للجائع، والدواء للمريض، والكساء للعارى، كما وقف طويلاً عند أمر الهيكل فى بيت المقدس.

ومـع أن المـلكة استمعت فى أول الأمر فى سأم، إلا أنها بهرت بعد ذلك، ومـن هـنا اسـتأذنت شعبها فى الرحلة إلى سليمان، وأعدت لها الرحلة، وهناك اسـتقبلت بالـترحاب، وبالاهتمام اللائق بها، وزارها سليمان فى جناحها أكثر من مـرة، وطـوف بها فى بعض ملكه، واكتشفت أن علمه محيط بأشياء كثيرة، وأنه يعـرف لغـات الحيـوان والطير، ويملك من القوة ما يجعله يسيطر على الأرواح والشـياطين، ثـم حدثـته عـن أنها وقومها يعبدان الشمس، وأنها سمعت عن إله إسـرائيل، وتـابوت العهد ولوح موسى، وحين شرح لها سليمان طبيعة هذا الدين دخلت فيه.

وحيـن عـرف سـليمان أنها عزمت على الرحيل فكر فى الزواج من هذه الملكة الجميلة، وكان أن دعاها إلى قصره "لتتم حكمتها" وهناك وجدت عالماً رائعاً من الترف، وفى إحدى الليالى التى أسرفت فيها فى الأكل الشهى طلب منها سليمان أن تسـتريح حيـث هى الصـباح، فأنست إلى ذلك، ولكنها دعته إلى أن يقسم بإله إسـرائيل ألا يغتصـبها بالقوة حتى لا تعود حزينة، فذكر لها أنه يقسم ألا يغتصبها

بالقوة إذا أقسمت هى الأخرى ألا تأخذ شيئاً من قصره بالقوة، فما كان منها إلا أن ضحكت منه ثم قالت: ما بال الرجل الحكيم يتكلم كغير الحكماء، وبعد أن أقسما جهز الخدم لكل منهما سريراً فى جانب من الحجرة، وطلب سليمان بلسان عبرى من الخدم أن يغلقوا الأبواب، ويرفعوا الماء من كل مكان فى القصر إلا ما كان منه فى جنب سريره.

وبعد فترة من الزمن بحثت الملكة عن الماء سدى، وحين اقتربت من الماء الذى إلى جانب السرير أمسك بيدها.. وتحللا من القسم!

وفى هذه الليلة رأى سليمان فى حلم أن شمساً ساطعة ظهرت فى السماء وظلت تسير حتى وصلت إلى الحبشة، ثم استقرت هناك.

وفى عودة الملكة جاءها المخاض فى مكان يدعى "بالأزادى ساريا" وولدت طفلاً.(١)

وهذه القصة تروى على صورة أخرى فى مقاطعة "تيجرى" بالحبشة، وإن كانت الملكة فيها تدعى (آطى آزاب) أو ملكة الجنوب، وملخص هذه القصة أن الناس كانوا يعبدون الحية، ويقدمون إليها كل عام بكراً وثلاثمائة رطل من اللبن، فلما جاء الدور على (آطى آزاب) لتربط فى الشجرة انتظاراً للحية ظهر القديسون، وأنقذوها بعد أن قتلوا الحية، ولكن الذى حدث أن نقطة من دم الحية وقعت على قدم "آطى آزاب" فتحولت قدمها إلى حافر حمار، وحين أطلقها القديسون وعادت إلى قومها نصبوها عليهم ملكة.

وحينما سمعت عن حكمة سليمان عزمت على الذهاب إليه، ليعيد قدمها إلى ما كانت عليه.

وقد تنكرت مع خادمة لها فى زى غلامين، فلما اقتربت من باب قصر سليمان عادت قدمها إلى ما كانت عليه، وعندما قابلا الملك أمر لهما بالطعام والشراب، ولكنه اشتبه فيهما، وفى المساء أعد لهما فراشاً فى غرفته وتظاهر

(١) على أساس من هذه القصة تنتمى الأسرة التى كانت تحكم الحبشة، وتسمى نفسها بالسليمانية، ولقب الملك: الأسد الخارج من سبط يهوذا.

بالنوم، وبعد قليل استيقظا، وحين تأكد منهما اغتصبهما وأعطى لكل منهما حقاً من الفضة وخاتماً وقال: إن كان نتاجكما بنتا فأعيداهما إلى ومعهما الحق، وأما إذا كانا ولدين فليكن معهما الخاتم، وعندما عادت الفتاتان أنجبت كل منهما ولداً [(١)].. والقرآن الكريم يقص هذه القصة فى سورة النمل حين تعرض لقصة سليمان مع الهدهد على النحو التالى:

"فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين، إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم، قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين، إذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون، قالت: يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلوا على وأتونى مسلمين، قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون...". الآيات ٢٢-٣٢.

وهذه الملكة عند الكتاب العرب هى (بلقيس) ويقولون إنها ابنة الهدهد بن شرحبيل أو شرحبيل بن مالك من نسل يعرب بن قحطان، وهى الحاكمة الثانية والعشرون لليمن، ويقولون إن سليمان أرسل إليها رسالة مضمخة بالطيب على أجنحة الطير، وفى هذه الرسالة يدعوها إلى دينه، وقد ذهبت إليه فى قافلة كبيرة تتكون من خمسمائة فتى وخمسمائة فتاة كل منهما يلبس ملابس الآخر، كما أخذت معها خمسمائة قالب من الذهب، وتاجاً يرصعه اللؤلؤ والياقوت، وكمية ضخمة من المسك والعنبر.

أما سليمان فاستقبلها فى فناء معبد بنيت حوائطه من قوالب الذهب والفضة، وقد رفع لها عرش على أرض من الزجاج الذى يجرى تحته الماء وقد خالت نفسها وهى تسير على هذا الزجاج الذى يجرى من تحته الماء أنها ستسير إليه فوق الماء، ومن هنا رفعت ثوبها فانكشفت قدمها المشبه حافر الحمار.

(١) سيرة الحبشة ٤٦ وما بعدها.

وقد قدمت الملكة نفسها للملك، فتردد أمام حالة قدمها، ولكنه لم يلبث إلا فترة قصيرة تمكن خلالها من شفاء الملكة، وزفها إلى نفسه.

"وسواء كانت هذه الملكة تحكم الحبشة على ما تقول الأساطير الحبشية أو تحكم اليمن على ما تقول المصادر العربية فهى تدل على وجود علاقة ممعنة فى القدم بين الحبشة واليمن"[١].

(د) وقد اهتم النبى بالأحباش اهتماماً خاصاً، ويظهر هذا الاهتمام فى الأحاديث التى رويت وتؤكد هذه الصلة على نحو ما ذكر صاحب مخطوط رفع شأن الحبشان.

١- هناك حديث مرفوع إلى ابن عباس عن النبى، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة ، لقمان الحكيم، والنجاشى ، وبلال المؤذن. قال الطبرانى، يعنى بالسودان، الحبشيين.

٢- وعن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سادة السودان أربعة لقمان الحبشى، والنجاشى، وبلال، ومهجع.

٣- وروى عن النبى : الجنة لمن أطاعنى ولو كان عبداً حبشياً، والنار لمن عصانى ولو كان شريفاً قرشياً.

٤- وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الملك فى قريش والقضاء فى الأنصار، والأذان فى الحبشة.

٥- وروى من أدخل بيته حبشياً أو حبشية أدخل الله بيته البركة.

٦- وهناك حديث مرفوع عن ابن عباس، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: لا خير فى الحبش إن شبعوا زنوا، وإن فيهم لخصلتين حسنتين: إطعام الطعام، وبأساً عند البأس.

---

(١) المصدر السابق نفسه ٥٣، ومما يلاحظ أن بعض الكتاب اليهود يغذون الأسطورة التى تقول إن بلقيس كانت حبشية انجبت من سليمان، وأنها ذهبت إلى مدينة سوبا بالسودان خوفاً على الطفل، بل إن الرحالة اليهودى ديفيدروبينى David Reubeni يربط ربطاً محكماً بين سوبا، وسبأ.

٧- وعن أنس بن مالك: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السباق أربعة، أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبش.

ثم إن الرواة يذكرون أنه صلى الله عليه وسلم قد نطق ببعض الألفاظ الحبشية فى بعض المناسبات، كقوله عليه السلام وهو يصف أشراط الساعة: إن بين يديها فتنة وهرجاً، وحين لم يعرف الصحابة معنى الهرج سألوه فقال: هو القتل بلسان الحبش.

وكقول النبى لأم خالد: "سناه سناه" حين قدمت من الحبشة فكساها خميصة "كساء له أعلام" وجعل يمسح الأعلام بيده، وسناه يعنى الحسن بالحبشية، وقيل كان خاتم النبى من ورق وكان فصه حبشياً [١].

أما أصحابه ومواليه من الأحباش، فقد ورد ذكرهم كالآتى [٢]:

١- بلال بن رباح مولى أبى بكر[٣].

٢- مهجع مولى عمر بن الخطاب أول من قتل ببدر.

٣- شقران مولى رسول الله، واسمه صالح بن عدى.

٤- أبو بكرة نقيع بن مسروح مولى النبى قتل بخيبر.

٥- ذو مخبر (أو ذو مخمر) ابن أخى النجاشى، ومن رواة الحديث.

٦- ذو مهدم.

٧- ذو روجن.

٨- ذو مناحب.

٩- عاصم مولى زرعة الشقرى.

---

(١) مخطوط رفع شأن الحبشان ورقة ٢٦، ٤٣ ومخطوط أزهار العروش فى أخبار الحبوش ورقة ٥، ٦، ٧، ١٤، ١٥ وبين العرب والحبشة ٨٧، ٨٩، ١١٥.

(٢) أزهار العروش ورقة ١٩-٢١،، الجواهر الحسان ١٤٥.

(٣) استحب عند الشافعية أن يكون المؤذن حبشياً.

١٠- نايل والد أيمن.

١١- أبو لقيط مولى النبى.

١٢- يسار مولى المغيرة (كان يرش المسجد ويكنسه).

١٣- وحشى بن حرب قاتل حمزة، وقاتل مسيلمة.

١٤- أم أيمن (حاضنة النبى ومرضعته ومولاته) واسمها بركة.

١٥- بركة جارية أم حبيبة قدمت معها من الحبشة.

١٦- بريرة مولاة عائشة.

١٧- سعيرة مولاة لبنى أسد.

١٨- نبعة جارية أم هانئ.

وعن عبدالله بن مالك قال: رأيت رسول الله يخطب على ناقة خرماء يمسك بخطامها عبد حبشى.

وأخرج ابن السنى وأبو نعيم كلاهما فى الطب النبوى، قال: دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم، وغليم حبشى يغمز ظهره، فقلت يا رسول الله: أتشتكى شيئاً؟ قال : إن الناقة اقتحمت بى البارحة.

وقيل مات مولى للبنى من الحبشة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: انظروا من كان بمكة من مسلمة الحبشة، فادفعوا ميراثه إليه.

وحكى أن موليين كانا للنبى أحدهما حبشى، والآخر قبطى وقد تشاتما يوماً بكلمتى: يا حبشى، ويا قبطى، فلما بلغ ذلك النبى قال: لا تقولا ذلك، إنما أنتما رجلان من آل محمد.

والأحاديث الواردة فى شأن النجاشى وأصحابه كثيرة.

(و) ونحن نرى أن الأحباش قبل النبى كانوا طبقة كادحة مقهورة، ولكن الإسلام حين جاء يحمل المساواة بين جميع الماس رطب نفوسهم، وجعلهم فى أول الأمر لا يصدقون، ومن هذا ما يروى أن حبشياً سأل النبى هل يدخل الجنة مع

سائر المسلمين، فلما طمأنه النبى ظل يبكى حتى فاضت روجه، قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله يدليه فى حفرته (يعنى بيده الشريفة).

ومما يدل على هذا أن جعالا الحبشى قال للنبى : يا رسول الله، أرأيت إن قاتلت بين يديك حتى أقتل، أيدخلنى ربى الجنة، لا يحتقرنى، فقال صلى الله عليه وسلم: نعم، فقال وأنا متن الريح أسود اللون يا رسول الله، قال: نعم، ويروى أن حبشياً جاء للنبى فقال يا رسول الله فضلتم علينا بالألوان والنبوة، أخبرونى إن آمنت بمثل ما آمنت به، وعملت بمثل ما عملت به، إنى لكأنى معك فى الجنة، فقال له النبى: نعم.

ونحن نراهم يبرزون أكثر ما يبرزون فى ميدانى الحرب والغناء، ،فقد كان منهم فرسان وشهداء[١]، وقد كان العرب يشهدون لهم بهذه المزية، وقد استعاروا منهم ألفاظاً تدل على القتال[٢]، ويبدوا أنه حتى عام ٢٥٢هـ كانوا يحتفظون بمراكز للقوى على نحو ما نعرف من أمر شريح الحبشى[٣].

أما فيما يتصل بالغناء والرقص فلهم فى هذا باع طويل، عن أنس قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة لعبت الحبشة لقدومه بحرابهم فرحاً بذلك.

وأخرج أحمد عن أنس قال: كانت الحبشة يزفنون بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون – بلغتهم – : محمد عبد صالح، فقال النبى ما يقولون، قالوا: محمد عبد صالح[٤]، ولقد كان انجشة حبشياً حسن الصوت[٥].

---

(١) مخطوط الطراز المنقوش فى محاسن الجبوش ورقة ٢٤، ومخطوط أزهار العروش فى أخبار الحبوش ورقة ١٩.

(٢) ومن ذلك المعابل (وهى آلات مدببة تشبه السهام والنبال) فهى فى الحبشة معبلت جمعها معابل، والدروع، والوضف بالوضاف (فى الحبشية وضف وضافى أى رمى بالقلاع). بين العرب والحبشة ١١٢.

(٣) تاريخ الطبرى ٣٥٤/١٩.

(٤) مخطوط أزهار العروش ورقة ٩.

(٥) قال فيه الرسول فى فترة حراء "رفقا أنجشة بالقوارير" فتح البارى لابن حجر العسقلانى ١٠/ ٤٥٠، ٤٥١.

وروى أنه عندما قام وفد الحبشة على النبى قاموا يلعبون فى المسجد وتكمل السيدة عائشة فتقول "فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسترنى بردائه، وأنا أنظر إليهم حتى أكون أنا التى أسأم.

وفى حديث سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن عروة رآهم يلعبون فزجرهم، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: دعهم فإنهم بنو أرفدة (أرفدة جنس من الحبشة يرقصون، وقال ابن الأثير هو لقب لهم، وقيل جد الحبشة[1].

وقد أخذ المسلمون عنهم نوعاً من الرقص الذى يعرف "بالحجل" وهو هذا النوع الذى فعله جعفر حين قدم من الحبشة، فقد صار يحجل حوالى النبى، وفى رواية يرقص، ولم ينكر هذا عليه النبى، وبهذا استدل الصوفية على جواز الرقص فى مجالس الذكر والسماع[2].

وقد استعار العرب منهم بعض أسماء الآلات[3].

وقيل أشياء أتت قريشاً والعرب من أرض الحبشة :

١- الغالية.

٢- حمل النساء فى النعوش إذا متن.

٣- المصحف الذى له دفتان.

٤- الحجل بين أيدى الملوك.

٥- صداق أربعمائة دينار.. ذلك حين بعث النبى إلى النجاشى خاطباً أم حبيبة، فزوجها إياه، وأصدقها النجاشى من عنده أربعمائة دينار[4].

---

(١) مخطوط رفع شأن الأحباش ورقة ٤٥، سير أعلام النبلاء الذهبى ١٠٩/٢.

(٢) الجواهر الحسان ٩٢ وقد جاء فى لسان العرب وفى القاموس كلمة "الدرقلة" أو "الدركلة" وهى تدل على ضرب من رقص الأحباش.

(٣) من أسماء العود "العربطة" فى القاموس العربطة العود أو الطبل أو طبل الحبشة، وفى اللغة القنين من أسماء طنبور الحبشة كما ننجد فى كلمة "قنين" وهى آلة حبشية، وفى الأثر : إن الله حرم الخمور والكوبة (الطبل) والقنين.

(٤) مخطوط رفع شأن الحبشان ورقة ٢١-٢٤ ، سير أعلام النبلاء ٩٤/٢، ١٠٩-١٥٠، ٢٠٥.

(ز) ومما يلاحظ هنا أنه بعد هذه الدفعة القوية التى دفعها النبى عليه السلام للأحباش، وبعد عطر المساواة الذى راح يستنشقه هؤلاء الأحباش فى أول أمرهم غير مصدقين.. بعد هذا نراهم بعد وفاة النبى، ينسحبون من حركة الحياة من حولهم، ويرغبون. العزلة وعدم الاقتراب من الناس، فبلال مثلاً قد سافر إلى دمشق، وآثر حياة العزلة هناك حتى توفى عام ٢٠ أو ٢١هـ، وقيل إن أبا بكرة مولى الحارث، بن كلدة الثقفى نزل البصرة ولم يسمع عنه شىء حتى مات، وذهب وحشى بن حرب إلى حمص فى آخر حياته وظل بها حتى مات. وإلى جانب ذلك رأينا بعضاً كعثمان بن مظعون يعكف على العبادة وعلى الصوم الدائم، ولا يقرب النساء، وقد استأذن من قبل النبى فى الاختصاء فنهاه عن ذلك[١].

(ح) وقد اهتم كثير من المفكرين العرب بدراسة الأحباش على نحو ما مر بنا، وعلى نحو ما يذكره ابن الجوزى من أنه يذكر للحبشة الكرم الوافر، وحسن الخلق، وقلة الأذى، وكثرة ضحك السن، وطيب الأفواه، وسهولة العبارة وعذوبة الكلام[٢].

أما الجاحظ فيرى رأياً آخر، فقد ذكر أن الأمم التى فيها الأخلاق والآداب والحكم والعلم أربع وهى: العرب والهند، وفارس، والروم وحين قال : حكيم بن عياش الكلبى[٣]:

ألم يك ملك أرض الله طرا	لأربعة له متميزينا
لحميرَ والنّجاشى وابنِ كسرى	وقَيْصَرَ غير قول الممترينا

.. علق الجاحظ بقوله فما أدرى بأى سبب وضع الحبشة بهذا المكان[٤] أما الجغرافيون المسلمون فصورة الحبشة عندهم خافتة حتى منتصف القرن الثالث عشر، ولعل ما يعذرهم فى هذا أن تاريخ الحبشة نفسه ابتداء من نهاية القرن

(١) الجواهر الحسان ٣٥٨-٣٥٩ ، بين العرب والحبشة ١١٣.
(٢) مخطوط رفع شأن الحبشان ورقة ١٣٩.
(٣) هو المعروف بالأعور الكلبى، وكان منقطعاً لبنى أمية، ومتعصباً لليمن على مضر.
(٤) البيان والتبين ٣٨٤.

الســابع حتى منتصف القرن الثالث عشر يعتبر غامضاً، فنحن لم نسمع عن رحالة مسـلمين جاسوا خلال هذه المنطقة، فابن خرداذبة واليعقوبى وابن رسته والمقدسى وغيـرهم لم يذكروا من هذه البلاد إلا جرمى، وقد زعموا أنها العاصمة، وقد فرق الخـوارزمى بين مدينتين بهذا الاسم، والمسعودى ذكر أن بلاد الحبشة كثيرة ولكنه لم يذكر منها إلا مدينة كعبر، ويزعم كذلك أنها العاصمة (لعلها انكوبر أو أكسوم أو قـلغور) ويشير ياقوت والمسعودى إلى جزيرة الباضع (لعلها تحريف الناصع وهو الاسـم القديم لمدينة مصوع) وقد أشارا كذلك إلى دهلك وهى مجموعة من الجزر قبالة مصوع فى البحر الأحمر. وكلما تقدم الزمن وجدنا أخبار المسلمين المؤرخين عن هذه البلاد تزداد وضوحاً وتفصيلاً[1].

أمـا شخصية الحبشى فى الشعر العربى فقد رسمت بمهارة، وهى شكل عام ليسـت شخصـية عدوة أو بغيضة، وإنما هى شخصية مرحة وكادحة على نحو ما نرى عند أعشى بكر وبشار، ونحن نقرأ لأعشى بكر قوله :

وترى الزِّقَّ لدينا مُتْرعاً حبشياً كَبَّ عمداً فانبطح[2].

ويقول مهيار الديلمى فى ملامح حبشى :

فقـلتُ ودونَـهُ مـتلاطماتٌ	زَواخـرهنَّ كالأسـدُ الغضـاب
صَـواعدُ كالجِبال إذا أحسَّـتْ	نَسـيماً، أونـوازلُ كـالْجوابى
وأخضـرُ لا يـروق العينَ يُطْوِى	عـلى بيضـاءَ سـوداءِ الإهـاب
يـروع حـداءُ أحبشـها الـنواتى	إذا شـاقتك حاديـةُ العـراب[3]

وقال الشهاب البزاغى :

وخُـذ مـا حَلا من بنات الحُبوش	مـن جـلْبَ زَيـلْعَ أو مـن إزاره
مـن الـلاءِ أكسـبهُ السـواد	جمـالا وصـار عـليهنَ داره

(١) بين العرب والحبشة ١٤٣، ١٤٤.

(٢) عنوان المرقصات والمطربات لنور الدين على بن الوزير ١٧.

(٣) ديوان مهيار الديلمى دار الكتب ٣٨/١، مخطوط رفع شأن الحبشان، ورقة ٣٢، ٣٣، بين العرب والحبشة ٢٥٦.

ولمـــا خشـــينَ عيـــونَ الأنـــام تشـــنُ عـــليهن بالـــنهب غـــاره
تخـــذن تمـــا يمهـــنّ الـــلعوط فـــرحنَ بهـــا دائمـــاً فى خفـــاره

ومن شعره أيضاً :

يـــا ســـائلى عـــن زيـــلع وعـــن طـــريق الحبشـــه
صـــــحبتها وصـــــيفة بحســـــنها مشـــــرُبثه[1]
تذكـــــر أن أصـــــلَها مـــــن فـــــتيات الأنجشـــــه
وعمّهـــا الخـــال فيـــا طـــوبى لمـــن قـــد خمّشـــه
وخدّهـــا لـــو مـــرّ فيـــه الوهـــم يومـــا خدشـــه

ويقول الشيخ عبد البر بن الشحنة فى أمة أمحرية :

حبشـــية ســـألتها عـــن جنســـها فتبســـمت عـــن در ثغـــر جوهرى
فطفقـــت أسأل عن نعومة ما خفى قـــالت: فما تبغيه: جنسى أمحرى[2]

ويقول عبدالعزيز بن خيرة من شعراء الأندلس فى الخال :

فى خـــدّ أحمـــدَ خـــالٌ يصـــبُو إليـــه الخـــلىُّ
كأنـــــه روضُ ورد جـــــنانه حبشـــــىَ

وهذا لم يمنع يزيد بن مفرغ من شعراء القرن الأول للهجرة أن يهجو الأمير عباد بن زياد أمير سجستان فيقول فيه :

لهـــفى عـــلى الأمـــر الـــذى كـــانتْ عواقـــبهُ ندامـــه
.. ونـــبعتُ عـــبدَ بـــنى عـــلا ج وتـــلك أشـــراط القيامـــه
جـــاءتْ بـــه حبشـــية سَـــكاءُ تحســـبُها نعامـــه
.. فـــالهول يركـــبه الفـــتى حَـــذَر المخـــازى والســـآمه

---

(١) مشربثة أى واضعة على رأسها غطاء يشبه الشربوش.
(٢) مخطوط رفع شأن الحبشان ورقة ٣٢، ٣٣، بين العرب والحبشة ٢٥٦.

والعـــــبدُ يقـــــرع بالعصـــا   والحـــــر تكفيــــه الملامــــــه

ومـــثل هذا نجده عند أبى سعد المخزومى[1] ومن قبل عند ذى الرمة وأخيرا فنحن لا ننسى أن العرب تقول للحبشى: أبو البيضاء[2].

(ط) من كل هذا نرى أن الأحباش كانوا يمثلون كتلة مستضعفة ولكن الإسلام رفع معـــنوياتهم، وأدمجهـــم فى حـــركة المجـــتمع الإسلامى الجديد، ولكن بمرور الســـنوات أخـــذوا ينسحبون من حركة المجتمع الجادة على نحو ما مر بنا من قبل.

وبمـــرور الســـنوات كذلك سال المال فى أيدى المسلمين بسبب الانتصارات الـــتى تحققت لهم، وقد دعاهم هذا إلى جانب ترفعهم عن الأعمال إلى اقتناء الرقيق المستجلب.. ولم يكن أحب إليهم من رقيق الحبشة، فقد اشتهر الرجال منهم بأمانتهم وتحمـــلهم للعمل وحبهم له: كما اشتهرت النساء بجمالهن الذى كان مضرب المثل بين جميع أنواع الرقيق[3].

ثـــم إن الإســـلام قـــد أخذ ينتشر على الساحل الشرقى للحبشة لا بين الذين هاجروا من اليمن من قبل ولكن بين الأحباش أنفسهم.

ومع أن الاضطرابات قد وقعت بين المسلمين بنسب متفاوتة فى عهد الخلفاء الراشدين،، والأمويين، والعباسيين، إلا أن هذه البقعة التى كانت تنحصر فى البحر الأحمـــر الجـــنوبى وما على ساحليه الشرقى والغربى، كانت تتمتع بهدوء نسبى، وكـــانت تمثل الخط التجارى المقابل لما تمثله مدينة البندقية التى كانت تنقل التجارة مـــن مـــوانئ الشـــرق والســـواحل الجنوبية لأوربا، أما هؤلاء الخليط من اليمنيين والأحـــباش فكـــانوا يحملون التجارة من موانئ البحر الأحمر والمحيط الهندى من جهـــة، ومـــوانئ مصر الشرقية من جهة أخرى. وحين قامت الدولة الفاطمية، ثم المملوكية فى أواخر القرن الثالث عشر نرى أن الحبشة كانت شبه منعزلة، وكانت نافذتها على مصر هى اليمن.

(١) ألوان د. طه حسين ٦٩، طبقات الشعراء ٢٩٥.
(٢) المعارف لابن قتية ٥٩٦.
(٣) سيرة الحبشة ٦٦.

ثـم نـرى بعد ذلك تحديداً لشخصية الولايات الإسلامية فى شرق الحبشة، ونـرى أن "حق الدين" حين يثور على الأمبراطور "تواياكرستوس ١٣٤٢-١٣٧٢" يجـد التأييد من اليمن، وتظل الحبشة بعد ذلك هدفاً لكثير من السلاطين المسلمين، ومـن الأمـراء المسـيحيين كذلـك، بالإضافة إلى إقبال العالم على شراء الرقيق الحبشى، وكل هذا قد أنزل بها الهزائم والضعف.

ثـم يظهـر بعـد ذلك المد التركى فيطل على البحر الأحمر ويستولى على اليمن، ويمد عينيه إلى الحبشة رغبة منه فى وضع يديه على طريق التجارة الهندى القديـم، وإضـعاف المنافسة البرتغالية التى ظهرت فى هذه المنطقة، بالإضافة إلى ظهـور زعيـم قـوى فى المنطقة هو الإمام "أحمد بن إبراهيم جرانى" أحد ملوك الطراز الإسلامى[(١)].

وهـذا الإمام عند الدكتور مراد كامل لا يخرج عن كونه أداة لتحقيق أطماع الأتـراك الاقتصـادية والسياسـية فى المـنطقة، فقـد اتصلوا به وساعدوه بالمال والأسلحة والرجال ليشن الحرب ضد مولاه الإمبراطور ونجح فعلاً فى ثورته مدة أربعـة عشر عاماً[(٢)]، فنحن لن نستطيع إلا أن ننظر إلى الأمام أحمد كرجل حبشى ظهـر على مسرح الحوادث نتيجة لتطور العلاقات القديمة بين اليمن والحبشة، فإذا كـانت هـذه العلاقات قد سارت دائماً وجهة اقتصادية لا هم لها إلا منفعة السكان الذيـن يقطنون هذا الجزء من العالم، فما الذى يمنع أن تسير هذه العلاقات فى هذه الفترة اليسيرة إلى وجهة غير الوجهة الأولى، وأقصد وجهة سياسية، الغرض منها تمكيـن الأتـراك مـن هـذا الجـزء وإنهاء الحبشة المسيحية والقضاء على هذه الإمـبراطورية الصـغيرة، ولكن هذا الاتجاه الجديد لم يكن مقصوداً لذاته إنما كان وسيلة لغاية ما زالت هى الغاية الاقتصادية الأولى[(٢)].

ومـن الملاحظ أنه كان هناك فى الغالب احتكاك دينى بين الحكام فى مصر والحكـام فى الحبشـة، فمثلاً نرى السلطان الملك المؤيد شيخ المجمودى "قد أوقف الـبطرك على قدميه، ووبخ وقرع، وأنكر عليه السلطان ما بالمسلمين من الذل فى

---

(١) النجوم الزاهرة ج ع ا تحقيق د. محرز ، فهيم شلتوت ص٨١، ٢٦٠، ٣٢٤، ٣٤٩، ٣٥٠.
(٢) سيرة الحبشة ٦٦ وما بعدها ، بين العرب والحبشة ١٦٤.

بلاد الحبشة، ومثل هذا نراه فى عهد السلطان الملك الأشرف برسباى، ومعنى هذا أنــه كــان هناك احتكاك دينى فى هذه الفترة، وأنه كان لا يختفى وإنما يظهر بين الحين والحين[1].

ثــم يظهر ذلك المد التركى فيطل على البحر الأحمر، ويستولى على اليمن، ويمد عينيه إلى الحبشة رغبة منه فى وضع يديه على طريق التجارة الهندى القديم، وإضــعاف المنافسة البرتغالية التى ظهرت بوضوح فى المنطقة، وقد ساعده على هذا ظهور زعيم قوى فى المنطقة هو الإمام "أحمد بن إبراهيم جرانى".

وفى نظــرنا أن حــرب الإمــام أحمــد الجــرانى كانت فى صميمها حرباً تحريــرية، لأن إمارتــه كما كان الحال فى كل إمارات الطراز الإسلامى[2] كانت تدفــع الجزية للحبشة، وقد كان يفرض على بعضهم عدم لبس عدة الحرب، وعدم الإمساك بالسيف، أو ركوب الخيل المسرجة، كما كانوا يقدمون له فيما يقدمون بنتا ينصــرها "الحــطى" بعــد أن يقومــوا بغسلها وتكفينها والصلاة عليها كأنها ميتة، وبالإضــافة إلى هــذا نرى أن هذه الحروب التى قادها الإمام أحمد كانت رد فعل طــبيعياً لاســتعادة "الحروب الصليبية" من خلال الحبشة بعد أن هدأت حركتها فى أوربا، فمع أن هذه الأفكار كانت قد استقرت هناك فى نهاية القرن الثانى عشر، إلا أنــه لــم يأت النصف الثانى من القرن الثالث عشر، إلا وقد صارت الحبشة تظهر أمــام نفسها وأمام العالم المسيحى "بأنها مركز الإمبراطورية المسيحية التى سيلتف حولهــا المســيحيون وسيتحقق على يدى حاكمها القسيس يوحنا آمالهم وأحلامهم، ووجدنــا الحبشــة تتشــبع بفكرة الصليبيين، وتتحين الفرص للاشتراك الفعلى فى محاربة المسلمين[3].

ثــم كــانت ثمــرة هــذا كله التقاء الأحباش بالبرتغاليين، وقتل الإمام أحمد الجــرانى عــلى يد جندى برتغالى عام ١٥٤٣م. ومن هنا نرى أن حروب الإمام أحمــد الجــرانى كانت محاولة لتخليص إمارات الطراز من الاضطهاد الدائم ودفع الجزية، ورد فعل للصليبية السوداء – إن صح هذا التعبير – فى المنطقة، وأنه هو

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ١٤ تحقيق د. جمال محرز، فهيم شلتوت ص٨١، ٢٦٠، ٣٢٤، ٣٤٩، ٣٥٠.

(٢) سمى الطراز لمحاذاته لساحل البحر وهو يتكون من سبع إمارات لكل منها ملك مسلم.

(٣) بين العرب والحبشة ١٥٧، ١٦٩، وما بعدها، الحبشة بولس سعد ٨٦.

الــذى عمــل على الانتفاع بالأتراك فى نهاية المرحلة، من أجل الحرية، ومن أجل دفع شر قادم لا محالة لاغتيال هذه الإمارات الواحدة بعد الأخرى وفى الوقت نفسه من أجل حماية المسلمين داخل الحبشة نفسها.

ثــم ظهر بعد ذلك النفوذ المصرى فى المنطقة، وكذلك كان لظهور المهدية فى السودان دوراً هناك، ولكن الذى لا شك فيه أن الكفة قد أخذت ترجح فى صالح الأحباش، وأنهم تمكنوا من تصفية الإمارات الإسلامية، ومن الوقوف بعنف ضد أن يكون للإسلام دور حاسم هناك.

٦- حسرة الصفات فى الحبشيات :

اجــتمع رأى الحكمــاء وأهل التجارب على أن الحبشيات يجئن فى المقدمة، لأنهن فى مرتبة الاعتدال فى الأمزجة من الحرارة واليبوسة، فالسوداء حارة يابسة فــهى حطــب جهنم، والبيضاء، مرطبة باردة فهى ثلج الشتاء، والحبشية خضراء كــانت أو صــفراء، أو مــاء كانت أو سمراء، متوسطة بين المرتبتين، معتدلة فى الحالــتين، بغيــة فىالوقتين، فى الحر جنة، وفى البرد جنة، وعلى هذا إجماع أهل العقــل والنقل والحكمة.. ويخفى أثر مماً يستدل به على فضلهم، وصحة ما قيل فى حقهــم مــا قاله الحكماء فى كتب الطب فى باب اللحوم فى أن لحم الأسود من كل حيــوان أجود، لأنه يكون أنضج لأجل حرارة الأسود، وقد ثبت بالتواتر والتجارب أن وصــالهن يشــفى العليل، ويطفى الغليل ويزيل الأمراض الحادثة من البرودة والرطوبة، وينفع من أوجاع الظهر والمفاصل وسلس البول والمثانة ويستحب اتخاذ السرارى لأنه سنة الأنبياء والمرسلين، وعملاً بقول الرسول عليكم بالسرارى فإنهن مــباركات الأرحــام، وانكحــوا امهات الأولاد فإنى أباهى بكم يوم القيامة، عليكم بالســرارى فــإن السرور فى السرارى، عليكم بالسرارى فإن أرحامنهن مباركات وأولادهن أنجب [١].

وأفضــل الســرارى هاجــر القبطية ومارية القبطية وما أكثر القصائد التى جاءت فى مدح الحبوش[٢]، وما قيل فى أسمائهم من الألغاز والمعميات[٣].

(١) الطراز المنقوش فى محاسن الحبوش للبخارى. تحقيق د. عبدالله الغزالى ٩٧-١٠٢.
(٢) نفسه ١١٧-١٢٥.
(٣) نفسه ١٢٦-١٣٣.

ثالثاً: الصلة بالسود عامة:

(أ) الاسترقاق:

١- من المعروف أن الرقيق[1] عرف في مصر القديمة، وفي بابل وآشور وفي فارس الهند والصين.. فالحضارات القديمة قد مارست هذا النوع من التعذيب للإنسان، ففي تلك الأيام عرف الإنسان العديد من ألوان الرق، رق الأسر في الحروب، ورق البيع والشراء، ورق الاستدانة أو الوفاء بالديون فإذا وقفنا عند اليهودية نجد أنها أباحته، ولنتأمل الإصحاح العشرين من كتاب التثنية، حيث جاءت هذه الوصية للمقاتل.. حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك، وإن لم تسالمك، بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك.

وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبقي منها نسمة ما بل تحرمها تحريما.

.. والمسيحية قد رأت هذه الإباحة السابقة وأقرتها، إلى حد أن بوليس الرسول أم العبيد بطاعة سادتهم كما يطاع السيد المسيح سواء بسواء، فقد جاء في رسالته إلى أهل أفسس.. أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعده في بساطة قلوبكم كما للمسيح ولا بخدمة العين كمن يرضي الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً أم حراً[2].

---

(١) يطلق عليهم العبيد، وبخاصة إذا كانوا سوداً، وفيما عدا ذلك يطلق عليهم اسم "المماليك" جمع مملوك.. ومعناها ملك اليمين.

(٢) عن حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. عباس محمود العقاد ٢١٦.

وقد سار العرب في هذا الطريق خطوات كبيرة، ولم يكونوا شذوذاً في القاعدة التي سار عليها القدماء فالرقيق في اليونان القديمة كان يقدر بأكثر من ٦٠% من سكان المدن الإغريقية، والرومان كانوا يجعلون من الرق قانوناً حاداً وحاسماً، ومع أن الرقيق في بلاد العرب لم يكن يشكل نسبة كبيرة إلا أنه كان يمثل طبقة كادحة تقوم بالأعمال التي يترفع عنها السادة، ،كما كانوا يسهمون في الحروب التي تقوم بين الحين والآخر.

وقد كانت الأمة يستمتع بها، وقد تؤجر للبغاء[١]، وإلى جانب هذه الصورة القاتمة كانت توجد صورة أخرى تعتبر ثمرة من ثمار الحياة في هذا المجتمع، فقد كان بعض العرب يفاخر بإعتاق العبيد، وكان بعضهم يعلق العتق على مكرمة من المكارم، كقول حاتم الطائي لعبده – ويسميه غلاماً –

أوقدْ فإن الليل ليل قُر

والريحُ يا غلامُ ريح صرّ

إن جلبتَ ضيفًا فأنت حُرُ!

إلا أن هذه اللمسة الإنسانية لا تنفي أن العبد كان مهاناً، ومحاصراً في وظائف بعينها كخدمة المنزل، وكالرعي وتوصيل رسالة إلى قوم،وكالقيام بأعمال الحدادة والنجارة والحلاقة والحجامة، وفي الوقت نفسه كان معرضاً للبيع في أي وقت يشاء السيد وبخاصة في المواسم، ويمكن أن نتعرف على معاملة العبد من قول مالك بن حريم الهمداني[٢].

ونخلع نَعْل العبد من سوءِ قَوْده ... لكيما يكون العبدُ للسَّهْل أضْرَعَا

وقد وعدوه عُقْبَةً فمشى لها ... فما نالها حتى رأى الصُبحَ أذْرعا

وأوسعن عقبيه دماء فأصبحتْ ... أصابعُ رجليه رواعِفَ دمعا

فهم ينزعون نعله ليسلك بالخيل أو الإبل السهل، وما يزال كذلك حتى يتفجر عقبه بالدم.

---

(١) نزلت في هذا الآية الكريمة .. ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا.

(٢) الأصمعيات تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون ٦٥، نهاية الأرب ١٥٤/٢.

مــن هذا نرى أن الرقيق كان منفياً فى نوع كريه من أنواع الحياة، وكانت كل تطلعاته مدحورة، ولعل هذا وراء أنا لم نسمع عن أعمال رائعة لعدد منهم يتفق مع العدد الكمى لحياتهم هناك فقد كان كل جهده أن يكدح ثم ينزوى فى مكان مهين أيضاً بعد الكدح يوما بعد يوم، وعاماً بعد عام.

فالذى كان يحكم وجودهم أنه ليس لواحد منهم الحق فى أى شىء ما لم يقذفه إليهم السيد، وهكذا كان عليهم أن يقسموا حياتهم نصفين قسم للسادة، وقسم يمكنهم من الحياة خدمة هؤلاء السادة[1].

وحــتى الأبناء من السود كانوا من المهانة بحيث لا يلحقون بآبائهم إلا لسبب نــادر على نحو ما سنرى من إلحاق الشاعر عنترة بأبيه.. وكان أسوأ أبناء الإماء حظــاً فى الحيــاة أبناء الإماء السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم، وأطلق عليهم اسم الأغربة[2].

ولعــل ممــا كــان يزيد فى عزلتهم، وربما فى شعورهم بالاغتراب أنهم لم يكونــوا على اتصال بأوطانهم الأولى، وهكذا كان عليهم أن يعيشوا وأن يموتوا فى هذا العالم الذى يضعهم فى قاعه الاجتماعى، والذى لا يسمح لقدراتهم بالظهور إلا فى دوائر بعينها يحرسها فى الوقت نفسه السادة.

٢- ثــم جــاء الإسلام فإذا به يجتث المرتكز الذى تقوم عليه عملية الاسترقاق[3]، وذلــك حيــن نادى بالحرية التامة بين الأجناس أو الأقوام، فالمؤمنون إخوة، والتمايز بالتقوى، والناس جميعاً كأسنان المشط.

ذلــك لأنه اعتبر الأصل فى كل إنسان أن يكون حراً، فإذا ما تعرضت هذه الحرية لنوع من المصادرة، فإن الباب يجب أن يظل مفتوحاً لاسترداد هذه الحرية، فالذى يصادر هو الحرية فى الإنسان لا الإنسانية فيه، وهو بهذه الإنسانية له الحق

(١) حقوق الإنسان فى الإسلام د. على عبدالواحد وافى ١٢٦ وما بعدها.

(٢) مكة والمدينة ٣٨، الاقتصاد الافريقى د. محمد رياض د. كوثر عبدالرسول ٨٤، تاريخ التمدن الإسلامى. جورجى زيدان ٢٠/٤.

(٣) لم تأت فى القرآن كلمات : رق، استرقاق، ورقيق، ولم تذكر فى أحاديث الرسول (لارق فى القرآن. إبراهيم هاشم الفلالى ١٣٦).

فى الحـــرية، فإذا طرأ طارئ لظرف من الظروف فإن هذا الطارئ لابد أن يتغير إما بواسطة الإنسان الذى صودرت حريته، وإما بواسطة الراغبين فى الخير، وإما بواسطة الدولة نفسها.

ونحـــن إذ تعرضـــنا للقرآن نجد أنه تعرض لظاهرة غياب الحرية فى اثنين وعشـــرين موضعاً[1]. ولقد كان انجشة غلاماً حبشياً حلو الصوت قال فيه الرسول "رفقاً أنجشة بالقوارير"[2].

أمـــا الأحـــاديث النبوية فهى تجرى على هذا المنوال الذى يؤكد أن الإسلام شـــرع العتق ولم يشرع الرق، فإذا أردنا تلخيصاً لما صنعه الإسلام فى هذا الأمر قبل أربعة عشر قرناً وجدنا أنه حرم كل أنواع الرق، ولم يبح إلا ما هو مباح الآن بالفعل وفحوى ذلك أنه قد صنع خير ما يطلب منه أن يصنع، وأن الإنسانية لم تأت بجديـــد فى هـــذه المسألة بعد الذى تقدم به الإسلام قبل ألف ونيف وثلاثمائة عامة، فـــالذى أباحه الإسلام من الرق مباح اليوم فى أمم الحضارة التى تعاهدت على منع الـــرقيق منذ القرن الثامن عشر إلى الآن، لأن هذه الأمم التى اتفقت على معاهدات الـــرق تبيح الأسر واستبقاء الأسرى إلى أن يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الأســـرى، أو الـــتعويض عنهم بالفداء والغرامة.. هذا هو كل ما أباحه الإسلام من الرق أو من الأسر على التعبير الصحيح.

وغايـــة ما هناك من الفرق بين الماضى قبل أربعة عشر قرناً وبين الحاضر فى القـــرن العشرين أن الدول فى عصرنا هذا تتولى الاتفاق على تبادل الأسرى أو على افتداء بعضهم بالغرامة أو التعويض، أما فى عصر الدعوة الإسلامية فلم تكن

(١) بيان هذه الآيات موضحاً بالسور والآيات كالآتى :
١- سورة البقرة آية ,١٧٧ — ٢- النساء فى الآيات : ٣، ٢٣، ٢٥، ٣٦، ٩٢.
٣- المائدة : آية ,٨٩ — ٤- التوبة آية : ٦٠. — ٥- النحل آية : ٧١.
٦- المؤمنون آيات : ١،٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧.
٧- النور آيات : ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٥٨. — ٨- الروم آية : ٢٨.
٩- الأحزاب ٤، ٥، ٦، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٥. — ١٠- المجادلة آية : ٣
١١- المعارج الآيات : ٢٩، ٣٠، ٣١. — ١٢- البلد : ١١، ١٢، ١٣.
(٢) فتح البارى لابن حجر العسقلانى ٤٥٠/١٠.

دولـــة من الدول تشغل نفسها بهذا الواجب نحو رعاياها المأسورين فمن وقع منهم فى الأسر بقى فيه حتى يفتدى نفسه بعمله أو بماله إذا سمح له الآسرون بالفداء[1].

ونحـــن لا ينـــبغى أن ننسى أن أسترقاق من يسمى الأسير لم يكن قاعدة لا ينبغى أن نكسرها، ذلك لأن المسلمين حين كانوا يأمنون على أنفسهم كانوا لا يقفون عند ظاهرة غياب الحرية بالنسبة للإنسان الأسير، فقد أطلق النبى الأسرى فى بدر مـــن غيـــر فداء، كما أخذ من نصارى نجران الجزية، ورد عليهم الأسرى، ومن الطـــبيعى أنه إذا تقاتلت فئتان من المسلمين فإنه لن يكون هناك أسر، وعلة ذلك أن الجميـــع يدينون بمبدأ الحرية للجميع، وأن الاعتداء على هذه الحرية مخالف لعقيدة الإســـلام، فإذا اعتنق الناس مبدأ الحرية للجميع وطبقوه فى واقعهم فتلك هى الغاية التى يريدها الإسلام لأهل الأرض جميعاً[2] فالرق لا يكون إلا عن حرب دينية بيننا وبين الذين يحولون بيننا وبين إقامة شعائرنا وبث دعوتنا[3].

وعلى كل فالقرآن لم يرد فيه نص يدل على الأمر بالاسترقاق، أو يدل على اتخـــاذ الامـــاء سرارى، ومما يلاحظ أن ملك اليمين لم يأت فى القرآن إلا بصيغة الفعـــل الماضـــى، وهـــذا يرجع ما نذهب إليه من أن المقصود بملك اليمين هو ما رســـب مـــن زمـــن الجاهلية، ومن أسرى الحروب الإسلامية، ولم نجد آية واحدة جاءت بصيغة فعل المضارع[4].

وعلى كل فالذى يستخلص من الأحاديث والآيات هو ما يأتى :-

١- الحـــق للمســـترق فى طلب الحرية بالمكاتبة، وإلزام القضاء بإجبار سيده على ذلك، كما فرض على المجتمع معاونته بالمال، حتى تتحقق له الحرية التى هى حق من حقوقه.

٢- مـــن قال لعبده : أنت حر بعد وفاتى فليس له أن يبيعه، وليس له أن يرجع فيما قـــال، وذلـــك هو "المدبر" ومن أعتق عبده بأى لفظ ينفذ حتى ولو كان المعتق يمزح أو فى حالة سكر.

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ٢١٩، ما يقال عن الإسلام ١٤٤ وما بعدها.
(٢) مجلة العربى العدد ١٣ مقال لأمين الخولى.
(٣) القرآن ومشكلاتنا المعاصرة د. محمد أحمد خلف الله ٩٢.
(٤) لا رق فى القرآن . إبراهيم هاشم الفلالى ١٢٠ وما بعدها.

٣- فرض على الدولة تحرير الرقاب من الزكاة.

٤- جعل كفارات المآثم عتق الرقاب.

٥- إذا لطم السيد عبده أو جلده فكفارته عتقه.

٦- يقتل السيد بعبده ويقطع ويجدع بجدعه.

٧- الترغيب فى تزويج الأرقاق والمسترقات من الحرائر والأحرار.

٨- الأمر بأن يطعم السادة مواليهم مما يأكلون، ويكسونهم مما يكتسون .

كما نهى عن كل ما يجرح شعورهم، ويمس إنسانيتهم بالفعل أو بالقول سواء أكان ما يقال جداً أو مزاحاً.

٩- من يجئ من المسترقين إلى جماعة المسلمين يحرر، وليس لأحد أن يعيده للرق.

١٠- حث القرآن على الإعتناق، وجعله من أعظم القرب إلى الله.

١١- كل مسترقة تنال حريتها بمجرد إنجابها.

١٢- حرم إباحة المسترقة لكل من أرادها.

١٣- من ارتكبت الفاحشة من المسترقات توقع عليها نصف العقوبة التى توقع على الحرة.

١٤- إذا أنكر السيد عتق عبده يحلف المسترق، ويقضى له بذلك، وفى ذلك مخالفة للقاعدة التى تقول: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

١٥- ولاء المكاتب لمن دفع المال وهيأ له فرصة التحرر وحرمان مالكة من الولاء لئلا يتقاعد الناس عن تسهيل أمر الحرية لمن يطلبها(١).

"وقد يقال هذا صحيح بالنسبة لمستقبل حرية الإنسان، ولكن لماذا لم يضرب الإسلام ضربته السريعة والحاسمة بتحرير الرقيق الموجود بالفعل، وإعطائه.. صكا "سريعاً" بذلك، ولعل مما يزكى ذلك أن الخطة التى اتخذت لتصفية هذه الآثار لم تنفذ كما ينبغى فى المجتمع الإسلامى، بل لقد وصلت إلى حد ينكره الإسلام!

(١) لا رق فى القرآن ١٣٠، ١٣١.

وللإجابة على هذا يجب أن ندرك أن الإسلام جاء والرق نظام معمول به فى كـل العالم وأنه قد آثر التدرج فى هذه الحالة، بعد أن جفف كل الينابيع التى ترفده، وإذا نظـرنا إلى مـا حدث حول هذا الموضوع نجد الرق قد ظل نظاماً مقراً حتى ألـغى مـن حيث المبدأ إبان الثورة الفرنسية وقد ظل فى أمريكا حتى ألغاه إبراهام لـنكولن مـن حيث المبدأ كذلك عام ١٨٦٣، وكان موجوداً فى الحبشة حتى الغزو الإيطـالى الأخير، بل لازلنا نسمع عن حالات منه حتى الآن، فإذا أضفنا إلى ذلك أن العـبيد الذيـن حـررهم لـنكولن لم يطق الكثير منهم الحرية، وآثر العودة إلى أسياده، ذلك لأن العملية لا تحتاج إلى تشريع من الخارج، قدر ما تحتاج إلى تحرير الإنسـان من الداخل، وقد فعل الإسلام هذا بالمعاملة الحسنة، وبالسلوك الذى جعل المؤاخـاة تـتم بين بلال بن رباح وخالد بن رويحة الخثعمى، وبين حمزة ومولى النـبى زيـد، بل إن زيداً هذا تزوج ابنة عمة النبى عليه السلام، وكان على رأس جيش فيه الجباه العالية من المهاجرين والأنصار.

وهكذا نرى الإسلام بعد أن ينضجهم من الداخل، وبعد أن يخلصهم من آثار العـبودية السابقة، يشجعهم على طلب الحرية، ويعطيهم الوسائل لذلك وفى اللحظة الـتى يطلبونها بأنفسهم، وقد كان من فضائل الإسلام الكبرى فى مسألة الرقيق، أنه قد حرص على التحرير الحقيقى له من الداخل والخارج، فلم يكتف بانية الطيبة كما فعـل لنكولن بإصدار تشريع لا رصيد له فى داخل النفوس، مما يثبت عمق إدراك الإسـلام للطـبيعة البشـرية، وفطنته إلى خير الوسائل لمعالجتها، وهذا إلى جانب تطوعـه بإعطـاء الحقوق لأصحابها مع تربيتهم على التمسك بها واحتمال تبعاتها عـلى أساس الحب والمودة بين جميع طوائف المجتمع، قبل أن يتصارعوا من أجل هذه الحقوق كما حدث فى أوربا [1] وهكذا وضعت الخطة التى تتلخص فى تضييق الروافد التى تغذى الرق، وفى توسيع المنافذ، التى تؤدى إلى العتق والتحرير [2].

فالإسـلام كان ولا يزال مع الحرية، والإسلام كان ولا يزال ضد العوارض الـتى تقف فى سبيل حرية الإنسان، ذلك لأن الحرية حق أصيل، وصفة جوهرية،

(١) شبهات حول الإسلام: محمد قطب ٢٧ وما بعدها.

(٢) حقوق الإنسان فى الإسلام. د. على عبدالواحد وافى ١٢٦.

ثـم لأنهـا إلى جـانب كونها قيمة إنسانية أساس المسئولية[1]، وهكذا وجد السود أمـامهم. مجـتمعاً مفتوحاً، فدخلوه فهم لم يترددوا فى الدخول إلا كتردد أى إنسان يفتح أمامه باب فجأة، وتشرق عليه الشمس بنور بها فجأة ونحن لا تعرف أنه كان لهـم تجمع خاص تدارسوا فيه هذه الدعوة الجديدة ثم انتهوا فيها إلى قرار، أو أنهم عـزموا عـلى أن يكونوا نواة صلبة، بحيث يمكنهم التأثير فى المجتمع الجديد، أو ليكونوا "مراكز قوى" لضرب المحاولات التى ربما تحطم مكاسبهم الجديدة فى يوم مـن الأيـام، ذلك لأنهم لم يروا من الإسلام "مناورات" لضمهم، فهو لم يتقرب إلى بعـض دون بعض، وهو لم يركز على أفراد منهم ويترك الآخرين فى القاع، وهو لـم يحكـم عليهم بالبقاء غضباً كما يحدث الآن فى شارع بعينه، أو حى بعينه، أو عـلى أطراف القبيلة أو المدينة، فهو لم يعزل، ولم ينبذ ولم يدمغ، ولم يصم النوع، ولم يتعصب، وإنما أعطى أملاً جميلاً للإنسانية وعمل فى الوقت نفسه على تصفية التناقض الموجود أصلاً بدون صراع.

ونحـن هـنا لا ينبغى أن ننسى أن نذكر أن عدد الأرقاء الذى كان موجوداً فعـلاً فى الجزيـرة العربية لم يكن يكون مشكلة تتطلب الحل الحاسم والسريع، فقد كان عدد الأرقاء هناك لا يقاس بما عند الفرس أو الرومان مثلا، ثم إن عددهم بين المسلمين الأوائل لم يكن يزيد "على عدد الأصابع فى اليدين" فإبقاء الأمور على ما هى عليه مؤقتاً مع عمليات "التضييق" و"التوسيع" التى تحدثنا عنها لم يكن مستغرباً، ولكـنه لـم يـتركها ولم يغفلها ولم يؤجلها بين الإغضاء والاستحسان لهوانها وقلة جدواها، بل جرى فيها على دأبه فى علاج المساوئ الاجتماعية والأخلاقية، يصلح مـنها مـا هـو قابل للإصلاح فى حينه، ويمهد للتقدم إلى المزيد من الإصلاح مع الزمن كلما تهيأت دواعيه[2].

ولكـن المشـكلة تراكمت بعد ذلك، وأخذت طريقاً مخالفاً لما سنه الإسلام، بحيـث انقلبت الصورة إلى "توسيع للروافد" وبالتالى إلى "تضييق المنافذ" ومن هنا رأيـنا البيت العربى على حد تعبير أحمد أمين قد تحول إلى "عصبة أمم"[3]، ورأينا

---

(١) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة ٩٤.
(٢) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ٢١٨.
(٣) ضحى الإسلام ٩/١.

صـــمت كثير من العلماء عن القول بحرمة هذا النوع من الاسترقاق المعروف في هـــذا العصر أو في العصور السابقة سواء ما يتصل منه بالسود أو بالبيض كبنات الشراكســـة الـــلاتي كن يبعن في الآستانة قبل الدستور، ومع هذا كنت ترى العلماء ساكتين عن بيعهن والاستمتاع بهن بغير عقد نكاح، وذلك من أعظم المنكرات، ولو ســـألت الفقيـــه عـــن حكم المسألة بعد شرحها له لأفتاك بأن هذا الاسترقاق محرم إجماعـــاً، وربما قال لك إن مستحل ذلك يكفر لأنه يعتذر بالجهل، وعلى كل فذلك بمـــا يعللون به مثله، وهو أنه مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة، وماذا يمكن أن نعمل وراء بيان حرمة العمل، وبراءة الإسلام[1].

إن القـــول بأن الأرقاء في الشرق كانوا يعتبرون جزءاً من الأسرة، وكانوا يســـتطيعون الـــزواج من بنات هذه الأسر، وكانوا يستطيعون أن يصلوا إلى ذروة الهـــرم الاجـــتماعي لأن الطـــريق أمامهم كان مفتوحاً "ومن الأمور المشهورة أن الأرقـــاء عند العرب يكونون من الأبناء المدللين"[2] القول بهذا، بل إن التعاطف مع العـــبيد أساساً لن يؤثر في أنه ارتكب خطأ في حق الإنسان الأسود، ثم إنه لا ينبغي أن ننســـى أن نذكـــر أن العـــبيد بصـــفة عامة – وبخاصة السود – منهم – كانوا يسيرون في طريق مسدود، وكانت تضيق أمامهم الفرص كلما اقتربوا من الوظائف الكـــبيرة في المجتمع، فنحن نعلم أن شرط "الحرية" كان يجب أن يتوافر في أشياء كـــثيرة، وعلى سبيل المثال نذكر أن الصفات الواجبة والتي لا يمكن إهمالها للكاتب كـــانت عشـــر صفات، الثالثة منها الحرية، فقد شرطوا في كاتب القاضي أن يكون حـــراً، لمـــا في العـــبد من النقص، فلا يعتمد في كل القضايا، ولا يوثق به في كل الأحوال، فكاتب السلطان كذلك بل أولى"[3].

صـــحيح أن كثيراً من الكتاب قد نفذوا إلى الإسلام من خلال هذه التطبيقات الموجـــودة في الـــرقعة الـــتي يقوم عليها الإسلام، وصحيح أن هذه التطبيقات لها الأهميـــة العلمية، ولكن جانب الحقيقة الآخر الذي يجب أن يدرك هو ما نعرفه من تراثنا من أن الرجال يعرفون بالحق ولا يعرف الحق بالرجال.

---

(١) القرآن ومشكلاتنا المعاصرة ٩٣، تفسير المنار ١٠٢٩/٥.

(٢) حضارة العرب ٣٧٨.

(٣) صبح الأعشى : للقلقشندي ٦٥/١.

ب- الإماء :

١- لقـد عـرفت البشـرية النساء المملوكات[1] قبل الرجال المملوكين، ذلك لأن الزواج في القبائل البدائية أوشك أن يكون كله سبياً واغتصاباً من نساء القبائل الأخـرى، أما الحاجة إلى استرقاق الرجال فلم تظهر ضرورتها إلا بعد وجود أعمـال بعينها يمكن أن توكل للأسرى لحقارتها، أما قبل ذلك فلقد كانت عملية الاسـترقاق بالنسبة للرجال تشكل عبئاً إلى حد أنه كان يتخلص منه في بعض الأوقـات بالقـتل، فالمرأة لها مشكلات خاصة تسبق بها مشكلات الرق، ولها مشـكلات كذلك تختلف عن مشكلات الرجل حين يتحرر كل منهما، وبخاصة إذا لم يكن لها عائل أو زوج[٢].

ومع أن المرأة في الجاهلية العربية كانت عضواً عاملاً في الحياة هناك، إلا أن الـرجل العـربي كان "يئد" طفولتها في بعض الأحيان، كما كان يمتلئ بالمرارة حين يبشر بها[٣]، ومن هنا نتبين واقع نظرته بالنسبة للإماء.

فالأمة كانت تدور في دائرة الكدح والتسري، وكان للسيد حق التصرف فيها بـدون عقـد أو مهر كما أن له حق أو بيعها، وبكلمة شاملة كانت "متاعاً" له حق التصرف فيه كما يشاء.

ويمكـن أن نطل على مكانتها من خلال وصية أكثم بن ضيفي لبنيه[١] فهو يقـول ".. ولا تفشـوا سـراً إلى أمـة"، ومن أقواله "لا يغلبنكم جمال النساء على صراحة النسب".

---

(١) إذا كانت كتب اللغة لا تفرق بين السبي والأمة، فإن الروح العام للشعر الجاهلي ولحياة أبناء السبايا وأبناء الإماء توحي بأن بينهما فرقاً في المكانة الاجتماعية، فالسبايا عربيات يؤخذن اغتصاباً في حرب أو غارة وثمنهن الدم، أما الإماء فغير عربيات ويشترين بالمال للخدمة والتسري ولذلك باهى الشعراء بالسبي وبالاستيلاء على السبايا ولم يباهوا بالاستيلاء على الإماء، كما تهاجوا بالأمهات الإماء ولم يتهاجوا بالأمهات السبايا، وبرءوا من أن تكون أمهاتهم إماء ، ولم يبرءوا من أن يكن سبايا (المرأة في الشعر الجاهلي. د. أحمد الحوفي ٤٩٢، ٤٩٣.

(٢) المرأة في القرآن الكريم – عباس محمود العقاد ١٩٥.

(٣) القرآن يقول "وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون "سورة النحل آية ٥٨.

ومــن الشعر يمكن أن نتعرف على دورهن فى المجتمع، فهن طاهيات فى قول طرفه:

تــبيتُ إمــاءُ الحىّ تُطْهِى قدورنَا ويــأوى إليــنا الأشعثُ المتحرّف[٢]

وهــن راعيــات عند ذى الأُصبع العدوانى[٣]

وهــن حَواطــب عــند قَيْــس بن الحطيم[٤]

وهـــن بغايـــا عـــند الأعشـــى[٥]

وقــد يســمين "المظــلمات" لأنهن يطرقن وقت الظلمة، على نحو ما قالت العوراء بنت سبيع فى رثاء أخيها :

صــيان طاوى الكَشْح لا يُرْخى لمظلمة إزاره[٦]

وقــد اشتهرت طائفة كبيرة منهن بالغناء، وهن ما يطلق عليهن القيان، ومن أشهرهن قينتان كانتا تغنيان لأمية بن أبى الصلت[٧] وبنت عفزر، وزينب، وحمامة وأرنــب وخــليدة وهريرة، وهريرة هذه كانت سوداء وهى التى خلدها الأعشى فى شــعره[٨]، وكتب الأدب تعرف الكثير من القيان[٩] على نحو ما نرى من قول عبد يغوث:

وأنحــرُ للشــرب الكــرام مطيتى وأصــدع بيــن القينــتين ردائيا[١٠]

---

(١) المعمرون والوصايا. تحقيق عبدالمنعم عامر ١٥.

(٢) ديوان طرفة ٤٤ والمتحرف هو من أذهبت السنون ما له.

(٣) المفضليات ١٥٨/١.

(٤) معجم البلدان ١٤٨/١.

(٥) ديوان الأعشى ١٠.

(٦) موانى شواعر العرب ١٤٧.

(٧) المحبر لابن حبيب ١٣٨.

(٨) الأغانى ١١٣/٩.

(٩) القينة "الأمة المغنية من التقين وهو التزين، وقيل إنها الأمة مغنية أو غير مغنية، وقيل الجارية تخدم، وقيل الأمة غنت أو لم تعن، ويطلق هذا على المغنية إذا احترفت الغناء، وهذا من عمل الإماء دون الحرائر" لسان العرب ٢٣١/١٧.

(١٠) الأغانى ٣٢٥/١٦.

ويكمن أن نتعرف على القيمة الحقيقية للقينة، من قول عمرو ذى الكلب[1]:

فلستُ لحاصن إن لم تروني ... ببطن صريحة ذات النّجال

وأمي قَيْنَةٌ إن لم تروني ... بعروش تحت عَرْعرها الطوال

فهو يتحدى أعداءه إن لم يهاجمهم من أماكن بعينها، ويرى أن أمه قينة وليست حرة إن لم يحقق ما يريد.

وقد كان هناك من يجبرهن على البغاء من أجل المال، أو من أجل أن يلدن أولاداً ليتصرف فيهم بالبيع، وقد كان من عادات البغايا منهن أن ينصبن على بيوتهن المنعزلة رايات خاصة ليمكن الاستدلال عليهن، فإذا ما كبرن عملن فى الغالب قوادات، ولقد كانت هذه الطائفة محتقرة كأشد ما يكون الاحتقار لأنهن يجمعن بين كونهن إماء وبغايا[2].

أما نظرة العبد إلى الأمة فيمكن أن نتعرف عليها من قول السليك:

أشاب الرأس أنّى كل يوم ... أرى لى خالةً وسط الرِّجال [3]

٢- ثم جاء الإسلام فرفع من قدره الأمة حين عمل على نقل ملكيتها من دائرة العبودية إلى دائرة الزوجية، فقد أمر المسلمين بالتزوج منهن[4] وفضل الزواج بالمملوكة على ذات الحسب المشتركة[5]، وفرض لهن حقوقهن[6]، وجعل أصحاب المال ومن يملكونهم سواء فيما عندهم من رزق الله[7].

وحرص الإسلام على البر بهن فى عواطفهن وإحساسهن، كما حرص على البر بهن فى أرزاقهن ومعيشتهن، فكان عليه السلام ينهى المسلم أن يقول "عبدى

(١) ديوان الهذليين ١١٩ (ط. دار الكتب).
(٢) المرأة فى الشعر الجاهلى ٥٠٠ وما بعدها.
(٣) الكامل للمبرد ٣١١/١.
(٤) "وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله ٢٤ النور ٣١".
(٥) "ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم" البقرة ٢٢١.
(٦) ﴿الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيمانهم ﴾ ٣٣الأحزاب : آية ٥٠
(٧) ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ النحل : ٧١.

وأمــتى" وإنمـــا يقول "فتاى وفتاتى" كما يتحدث عن أبنائه، وكانت وصيته بالصلاة والـــرقيق مـــن آخر وصاياه صلوات الله عليه قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى، ولم يحصـــل أولئك المستضعفون من النساء والرجال على تلك المعاملة طوعاً لأوامر دين من الأديان قبل الإسلام، ولا تلبية لسعيهم أو خوفاً من تمردهم وعصيانهم، ولم يكـــن أحـــد مـــن أقوامهم يناصرهم أو يتقبل منهم شكايتهم، بل لم يكن فى الأرقاء أنفسهم من يعتقد أن له حقاً فى شكواه[1].

ثـــم نـــرى الإســـلام يحرم عملية البغاء التى كانت تحترف من هذه الطائفة التعيســـة، كما حرم المخادنة بمعنى أن تقتصر المرأة على رجل واحد مسافح، وقد جعل الإسلام عليهن نصف عقوبة الزنا[2]، بسبب الظروف القاسية التى عشن تحت وطأتها.

والـــذى لا شك فيه أن النظرة إلى الأمة قد أخذت تتغير عما كانت من قبل، وممـــا يـــدل على ذلك أن عاصية بنت ثابت زوجة عمر لما أسلمت ذكرت له أنها كرهت اسمها وطلبت منه أن يسميها فقال: أنت جميلة. فغضبت وقالت: وما وجدت اسـماً تسمينى به إلا اسم الأمة، ثم ذهبت إلى النبى فسماها كذلك: وذكرت ما كان بينها وبين عمر، فقال النبى: أما علمت أن الله عند لسان عمر وقلبه [3].

وإنه يندر أن نجد فى شعر المسلمين فى صدر الإسلام، من هجى برق الأم كمـــا كان يحدث فى العصر الجاهلى[4]، ولكن هذه النبرة الكريهة سرعان ما أخذت فى الظهـــور على حياء، فقد مر بصرى بين القتلى يوم الجمل فسمع عمير الضبى يقول:

لقـــد أوردتـــنا حومـــةَ الموتِ أمنا	فـــلم نصـــرف إلا ونحـــنُ رواء
أطعـــنا بـــنى تَيْـــم لشـــقوةِ أمـــنا	ومـــا تيـــمُ إلا أعـــبدٌ وإمـــاء[5]

(١) المرأة فى القرآن الكريم ١٧٢ وما بعدها.
(٢) ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ ٤ النساء الآية : ٢٥.
(٣) الإصابة ٨/٤٠.
(٤) المرأة فى الشعر الجاهلى ٤، ٥.
(٥) مروج الذهب ٢/ ٢٤٩.

ثم جاء عصر الفتوح، وكان تدفق الأعداد الغفيرة من الإماء، ذلك لأنه إذا تم الدخـول عـنوة دون الاستجابة للشروط المتعارفة، كان يعتبر كل من فى هذا البلد الـذى فـتح عنوة ملكاً للفاتحين، فكل من يقع فى أيديهم من بنات المحاربين ومن نسـائهم يصـبحن إمـاء، وينقلن مع الأسلاب[1] للبيع أو الاستخدام، ومع أن هذا الجانب الذى اصطلح على تسميته (أسرى الحرب) قد كان مشروعاً إلا أنه ظهرت بعـد ذلك رحلات النخاسين ومغامراتهم، ومسيرتهم وراء الجنود المحاربين "لاقى هـؤلاء النخاسون فى العربى فاتحاً سخياً، ولا سيما فى الفتوح الأولى ومواقع الهند والـروم، ولكـن هـذا العربى أن كان مصدراً من مصادر الرقيق أخذ يعتمد على النخاسين الجوابين فى أطراف المعمورة لشراء الجوارى، وبنوع خاص على يهود الأندلـس الذيـن كانوا يتوغلون فى أوربا وينتقلون إلى روسية فيحلمون من هناك جماعات من الجوارى السلافيات، والجرمانيات اللاتى عرفن فى بلاد العرب باسم الصقلبيات"[2].

وإلى جـانب هذيـن المصدرين القائمين على الأسر والشراء، وجد مصدر يسـمى "الرقيق المسلم" وهو الجموع التى كانت تستولى عليها جماعة القرامطة، ثم تـبيعها بيـن الأرقـاء، ولقد كان فيما استولوا عليه عام ٣١٢هـ ٩٢٤م خمسمائة امرأة.. كما يوجد مثل هذا فى ثورة الزنج، وبالإضافة إلى هذه المصادر كان يوجد "المولدات" الشهيرات، واللاتى كن ثمرة الجوارى الجليبات (فإذا وقعت إحداهن فى يد نخاس تفنن فى تزيينها وتعطيرها والدعوة لها)[3].

من هذا كله أصبحن داخلين فى نسيج المجتمع، فهن فى المنازل يقمن بدور الـزوجة أو الخـادم أو الماشـطة أو المرضع أو المربية، وهن فى القصور يقمن بالـترفيه عـلى السادة بالرقص والغناء والمداعبة وقول الشعر فى بعض الأحيان، وقـد عرف منهن نوع يسمى الغلاميات (الخدم البنات)[4] وهن فى بيوت النخاسين

---

(١) كا هناك استثناء كما حدث لبنات يزدجر بن شهر يار ب كسرى، حين قال على: إن بنات الملوك لا يبعن قدموهن.

(٢) الجوارى . د. جبور عبدالنور ٢٤ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق نفسه ٢٧، ٢٨.

(٤) تاريخ العرب ٤٢٨/٢.

على موعد دائماً مع قادم، كما أنهن كن مرح الخمارات وشغلها الشاغل، وأصحاب حظـوة عند الطارقين وبخاصة الشعراء والمغنين، وقد تخرج عدد كبير منهن فى الأدب والغـناء وبخاصـة بيـن ما يطلق عليهن (الجوارى السميرات) اللاتى كان بعـض شـيطانى الذكاء يتوسل بهن فى بيته الذى يزار دائماً على قضاء الحاجة، وعقد الصفقة. وتلقى الهدية، وللجاحظ كلام هام فى هذا المجال[1].

وإلى جـانب النخاسـين الذيـن كانوا قوام هذه التجارة، كان يوجد المغنون أيضـاً، فهؤلاء كانوا يطلبون الجوارى ثم يثقفونهن، ثم يعرضوهن من جديد للبيع فيـزداد ثمـنهن، وقد كان من المغنين الذين امتهنوا هذه المهنة إبراهيم الموصلى، وابنه اسحق، ويزيد حوراء، ودحمان، وإبراهيم بن المهدى[2].

وقد وقفن كذلك وراء الشعراء، فلو أخذنا العصر العباسى مثلاً لوجدنا بشاراً يعشـق (عبده) وأبا العتاهية يحب (عتبة) وأبا نواس يتوله فى (جنان) والعباس بن الأحنف يتودد إلى (فوز)، كما أن ابن أبى عيينة كان لا يرغب فى شىء رغبته فى (دنيـا) ومثله حماد ومطيع بن إياس بالنسبة (لجوهر) ويمكن أن ينسحب هذا على مسلم بن الوليد، ودعبل، وأبى الشيص، والحسين بن الضحاك.

وفى الوقـت نفسـه كان لهن تأثير لا ينكر على الخلفاء والأمراء والوزراء والكتاب ووجوه الأمة.

ولو أخذنا منهن واحدة سوداء هى (خليدة المكية) لوجدنا أنه كان لها أثر لا يـنكر عـلى عصـرها[3]، فقد تلقت الغناء على أيدى أساطينه الأول جميلة، وابن سـريج ومالك ومعبد، وجودت فيه، ولقد كان ممن فتن بها كاتب الأمير رباح الذى قيل فيه:

فتـنتْ كـاتبَ الأميـر ربـاحٌ يـالقومى خـليدة المكيـه

وكان ممن تدله فيها محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان إلى حد أنـه بعث إليها خاطباً[4]، فما كان منها إلا أن قالت لرسوله، قل لصاحبك إن أردت

(١) الحيوان ٢٨٩/٥.
(٢) الأغانى ٢٥١/٣.
(٣) الأغانى ٣/ ٧٣، ١٤٣، الجوارى المغنيات ٤٤.
(٤) الجوارى المغنيات ٢٤٣، ٢٤٤.

نكاحـــاً مباحاً، أو زنا صراحاً فهلم إلينا فنحن له..فأما نكاح السر فلا والله لا فعلته ولا كـــنت عـــاراً عـــلى القيان، وأخيراً انتهى الأمر بمحمد بن عبدالله إلى أن قال لرســـوله أرجـــع إليها وقل لها: تختلف إلى أردد بصرى فيها لعلى أسلو، وإذا كان تعـــليم الغـــناء فى أول أمـــره كان مقصوراً على الجارية الصفراء والسوداء، فإن إبراهيم بن هانئ يقول (ومن تمام آلة الزمر أن تكون الزامرة سوداء)[1].

... وهذا يسوقنا إلى أن الأمة السوداء كان مرغوباً فيها عند بعض، فها هو الفرزدق يتزوج من زنجية تسمى أم مكية ويقول فيها :

يـــا رب خـــود مـــن بـــنات الـــزنج

تمشـــــى بتـــــنور شـــــديدِ الوهْـــــج

أخـــــثمَ مـــــثل القـــــدح الخَلـــــنج[2]

وبشار يقول فى جاريته السوداء :

وغـــــادةٍ ســـــوداء بـــــراقة	كالمـــــاء فى طيـــــب وفى ليـــــن
كأنهـــــا صـــــيغت لمـــــا نالهـــــا	مـــن عنـــبر بالمســـك معجـــون[3]

والشاعر بن أبى الشبل يقول حين عوقب فى سوداء يحبها :

غـــدتْ بطـــول المـــلال عاذلـــةً	تلومـــــنى فى السّـــواد والدعـــج
ويحـــك كيـــف الســـلو عـــن غرر	مفـــترقات الأرجـــاءِ كالسَّـــبَج
يَحْمِـــلْنَ بيـــن الأفخـــاذ أســـنمةً	تحـــرق أوبارهـــا مـــن الوهـــج
لا عـــــذب الله مســـــلماً بهـــــم	غيـــرى، ولا حـــان مـــنهمُ فَـــرجَى
فإنـــــنى بالســـــوادِ مبـــتهجُ	وكـــنت بالـــبيض غيـــر مبـــتهج[4]

وأبو الشيص يقول فى جارية سوداء اسمها تبر :

(١) الأغانى ١٧٠/٥ ، البيان والتبيين ٩٣.

(٢) رسائل الجاحظ ٢١٤، ديوان الفرزدق ١٤٣/١.

(٣) الأغانى ١٩٣/٣.

(٤) الأغانى ٢٠٢/١٤، السبج: خرز أسود، وفى لاحان منهم استعمل ضمير جماعة الذكور موضع ضمير جماعة الإناث.

لـــم تُنْصـــفى ياســـميةَ الذهـــب	تتـــلفُ نفســـى وأنـــت فى لعـــب
يابـــنة عَـــمٍّ المســـك الذكىّ ومَنْ	لـــولاك لـــم يُـــتَّخَذْ ولـــم يطـــب
ناســبك المسكُ فى السواد وفى الـــ	ريـــح فأكـــرم بـــذاك مـــن نسب [1]

ونسمع هذه النغمة المحبة من الشاعر بن أبى الزوائد الذى كان يعشق جارية سوداء[2]، ونسمعها من شعراء يقولون :

أشـــبهك المســـكُ وأشـــبهته	قائمـــةً فى لونـــه قـــاعده
لا شـــكّ إذْ لونكُمـــا واحـــدٌ	انكمـــا مـــن طيـــنةٍ واحـــدة[3]
(و) ومـــن يك معجباً ببناتِ كسرى	فـــإنى مُعجـــبٌ ببـــنات حـــام [4]
(و) أحـــبُّ لحـــبها الســـودانَ حتى	أحـــبُّ لُحـــبِّها سُـــودَ الكـــلاب[5]

وقـــد قيـــل إن سبب التغاضب بين ابن زيدون وولاة كان بسبب ميله لجارية سوداء.

وهناك فصل فى الجزء الثانى من نهاية الأرب فى فنون الأدب ص٣٨ وما بعدها تحت عنوان : ومما قيل فى السواد (وهو يختص بالمؤنث) وكله نغمات حب وتولـــه بالإنسانة السوداء وقد تنبه لهذا البلاغيون وعدوه تحت باب تحسين المشبه حينما تختلف فيه الأهواء كسواد النساء وطولهن[6].

ويقال : إن ديوان ابن سكرة الهاشمى يُرْبى على خمسين ألف بيت، منها فى قَيْـــنة سوداء يقال لها "خمرة" أكثر من عشرة آلاف بيت"[7]، ومن قصائده القصيدة التى أولها :

---

(١) الأغانى ٤٩/١٦.
(٢) الأغانى ١٢١/١٤.
(٣) نهاية الأرب ٣٨/٢.
(٤) عيون الأخبار ٤٠/٤.
(٥) عيون الأخبار ٤٣/٤.
(٦) فن التشبيه. على الجندى ٢٢٤/١.
(٧) يتيمة الدهر للثعالبى . تحقيق د. مفيد محمد قميحة ٣/٣ .

وســـوداء بـــورك فى بضـــعها ... ولانـــال بؤســـاً فمـــا أضـــيقا [1]

ونـــرى هـــذا فى ديـــوان ابن عنين[2] حين كتب إلى الملك عبدالعزيز سيف الإسلام صاحب اليمن يطلب رواة :

يـــا ســـيد عرضـــه عار من العار ... وجـــودُه فى الـــبرايا ســـائر سارى

قـــد كان لى من بنات الزنج جارية ... صـــبورة عـــند إعسارى وإيسارى

لهـــا مـــن الـــروم أولاد كـــأنهم ... قـــداحُ نـــبع أُجيـــلتْ بيـــن ايسار[3]

تضـــمهم فى حشـــاها ليلـــتها ... وأكـــثر الـــناس إشـــفاقاً من البارى

وكـــنت أجررتهم عنها فما امتنعوا ... عـــن حجم أخلافها يوماً بإجرار [4]

وقـــد شـــقيت فخلصـــنى بقـــرتها ... البيضـــاء، أو أختها السوداء من قار

وله فى غلام أسود :

ومـــاذا عـــليم لـــو كـــلفتُ بأسودٍ ... محلـــته فى العيـــن والقـــلب مـــنهم

وقـــد عابـــنى قـــوم بتقـــبيل خدّه ... وما زال من عيب..أسود الركن يلثم

لـــئن ضـــم جـــنح الليل أثناءُ برده ... لقـــد شـــق عن مثل الصباح التبسم

ومـــا شـــأنه لـــون الســـواد لأنـــه ... يغـــر الثـــنايا والخلائـــق معـــلم

ونرى ابن المعتز يقول فى زامرة بيضاء فى فمها ناى أسود:

كأنمـــــا تلـــــثم طفلالهـــــا ... زنـــتْ بـــه مـــن ولـــد الـــزنج

والصَّابى قال فى قدح بلور:

كأنهـــا فيـــه، وقـــد حازهـــا ... روميـــةٌ حُبـــلى بـــزنجية[5]

---

(١) نفسه ٣/١٤.

(٢) تحقيق خليل لمردم ١٠٠.

(٣) المجتمعون على الميسر.

(٤) اجر الفصيل شق لسانه لئلا يرضع.

(٥) قراضة الذهب فى نقد اشعاراً لعرب لابن رشيق. تحقيق الشاذلى بو يحيى ص٩١.

والمعزل مكحول بن عبيد الله:

أو ما اهتاج أحمر مُتطير ... حسبت الليل زنجياً جريحا

وما أجمل قول مسلمة :

وهام بالخال أقوامٌ وما علموا ... أنى أهيمُ بشخص كلّه خال[1]

وقول الشريف الرضى فى تفضيل السود :

أحبّك يا لون السّود فإننى ... رأيتك فى العينين والقلب توأمَا

وما كان سهمُ العينْ لولا سوادها ... ليبلغ حبّات القلوب إذارى

إذا كنت تهوى الظبى ألمى فلا تلم ... جُنونى على الظبى الذى كله لما[2]

وقد توله أبو الشيعى بجارية سوداء له تُسمَّى "تبر" فقال :

لم تنصفى يا سمية الذهب ... تتلف نفسى، وأنت فى كعب

يا ابنة عم المسك الذكى ومن ... لو ردك لم يتخذ ولم يطب

ناسك المسك فى السواد وفى الـ.. ... ريح، فأكرم بذاك من نَسب[3]

.. ومما يلاحظ أن العرب وقفوا بعطف بعد الإسلام خاصة عند أولادهم من السود، على نحو ما نعرف من عمرو بن شأس وولده عرار، وعلى نحو موقف الشاعر الحكم بن عبدل من ولده الذى كان يقال عنه (أنه من أخبث الناس) ومع هذا اكتفى الشاعر بأن يعرض بأخواله فقط فقال:

يا رب خال لك مسودّ القفا ... لا يشتكى من رجله مَسَّ الحفا

كأن عينيْه إذا تشوّفا ... عيا غراب فوق نيْقِ أشرفا[4]

(١) ديوان الصبابة ٩٧.

(٢) نفسه .

(٣) ديوان ابن عنين ١١٢.

(٤) الأغانى ٤٢٣/٢ والنيق بالكسر: أرفع موضع بالجبل.

ومــن كــل هذا نرى أن الأمة السوداء كانت مشتهاة، وكان لرواج سوقهن وإقبال الرجال عليهن، ولغرام الشعراء بهن أن أخذن بالتأنق، وعمدن إلى التصنيع أسوة بشقيقاتهن البيض والسمر، فقلدنهن فى كل شىء حتى فى الاكتحال، برغم أن الكحــل لا يبدو عليهن سواد بشرتهن، مما دفع أعشى سليم إلى أن يقول فى زوجته دنانير بنت كعبوبة:

كأنهـــا والكحـــل فى مـــرودّها   تَكْحَــلُ عيــنيها بــبعض جــلدها[1]

ويــبدو أن الزنجى والزنجية كانا يرتبطان بالجنس المبذول على نحو ما هو معــروف من قصة الخصماء التى حدثت لأبى زيد الدلال، وكيف كان يزين للفتاة زنجيــاً، وللفــتى زنجية، وعلى نحو ما رآه عروة بن الورد فى إحدى غزواته وما رآه كذلك توبة بن الحمير[2]، ولم يغب هذا عن الجاحظ فى كتاب الحيوان[3].

كما أن غناء السوداء وتوقيعها كان يستجاد، فها هو سيف الدين المشد يقول:

ســــوداء كالعنـــبر معجونــــةُ   بالمسْـــك والمـــاورْد والعـــود
كأنمـــا نغمـــةُ مـــزمارها   لمـــا بـــدا مـــزمارُ داود[4]

ويقول أبو إسحق إبراهيم بن خفاجة :

ســوداء مطــربة الغِــناء كأنهـــا   فى الحالــتيْن حمامــةُ ورقـــاء[5]

وقــد نقــف على جد يختلط بالهزل فيما يتصل بهن، فقد قيل إن رجلاً دخل على الحطيئة وهو مضطجع على فراشه وإلى جانبه سوداء قد أخرجت رجلها من تحت الكساء، فقال له : ويحك، أفى رجلك خف؟

قال : لا والله ولكنها رجل سوداء، أتدرى من هى ؟

قال : لا .

(١) الجوارى ١٣، رسائل الجاحظ ٢١٤.
(٢) الأغانى ٢٧١/٤، ٢٧٢، ٨٤/٣: ٢٣٧/١١.
(٣) ٣١٦/٥.
(٤) نزهة العمر فى التفضيل بين البيض والسود والسمر.

قال : هي والله التي أقول فيها :

وآثرتُ إدلاجي على ليل حُرَّة	هضيم الحشا حُسانةِ للمتجرِّد
تُفرقُ بالمِدرى أثيثاً نباتهُ	على واضح الذِّفرىَ أسيلِ المقلَّد

ثم قال: والله لو رأيتها يا ابن أخي لما شربت الماء من يدها، أما السوداء فجعلت تسبه أقبح سب وهو يضحك[1]، وقيل إن بعض العميان تزوج بسوداء فقالت له: لو نظرت إلى حسني وجمالي وبياضي لازددت صبا، فقال لها: لو كنت كما تقولين ما تركك لي البصراء[2].

وهناك من توله بهن إلى حد الضنى والموت على نحو ما أورد ابن الجوزي من أن (أبو عبدالله الحبشاني) كان يعشق سوداء إلى حد أنه أشرف بسبب هذا العشق على الموت، ولقد قالوا لمولاها: لو وجهت (صفراء العلاقمية) إليه فلعله يعقل إذا رآها، ولما أذن دخلت عليه فقالت: كيف أصبحت يا أبا عبدالله؟

قال : بخير ما لم تبرحي.

قالت: ما تشتهي؟

قال : قربك.

قالت: فما تشتكي؟

قال : حبك.

قالت: فتوصي بشيء!

قال : نعم أوصي بك إن قبلوا مني.

قالت: إني أريد الانصراف.

قال : فتعجلي ثواب الصلاة علي.

---

(١) الأغاني ٢/٢٠٠، ٢٠١، الحسانة: الشديدة الحسن، ،والأثيث: الكثيف الشعر. الذفرى: العظم الشاخصي خلف الأذن. الأسيل: الطويل، المقلد: العنق.

(٢) نهاية الأرب ٤/٢٢.

فقامت ، فانصرفت، فلما رآها مواليه تنفس الصعداء، ومات من ساعته[1].

.. وكـــثيراً مـــا تجد السوداوات فى كتب الأدب قوادات، أو رسل غرام بين المحبين، وقد ترددت واحدة منهن بين جميل وبثينة.

على أن من أعجب ما قيل أن ديوان (ابن سكرة) يضم أكثر من عشرة آلاف بيت فى سوداء تسمى (خمرة) كان يصفها بالبحر، ويجعلها مادة لملحه.

ومن أقواله فيها :

هـــل لـــك يـــا "خمـــرة" فى بَحْرةٍ	مُـــرْبحةٍ .. مـــا مثـــلها بحُـــرهْ
ســـيرى إلى البصـــرة واسترزقى	بـــربّك بالـــنكهة فى البصـــرة
فـــلو عرضْـــت الـــريقَ فى سوقها	لا بـــتعت التفـــلة بالـــبَدرهْ
تـــزكُو بهـــا الـــنخل، وتحمرُ فى	غيـــر أوانِ الحُمْـــرة البُسْـــرهْ!

وقـــد قيـــل إنه حلف بالطلاق ألا يمر يوم عليه دون هجائها، وحين عرفت امرأته بالقصة كانت تجيئه بالدواة والقرطاس، عقب الانتهاء من صلاة الصبح، ولا تفارقه حتى يكتب شيئاً فيها[2].

وعـــلى كل فقد رسمت لهن صور رقيقة فى المؤلفات العربية، ونحن يهمنا جـــانب الصورة الخاص بالسواد. أو ما يقرب، نفقد قيل إن البربريات أنشط للخدمة وأصـــلح للـــتوليد لأنهـــن أحـــدب الإناث على أبنائهن، كما أنهن مطبوعات على الطاعـــة، وقـــد قيل إن البربرية إذا جلبت بنت تسعة أعوام، ثم عاشت فى المدينة ثلاثـــة أعوام، وبمكة ثلاثة أخر، ثم نزحت إلى العراق فى الخامسة عشرة للتأدب.. إذا اجـــتمع لهـــا ذلـــك تكـــون قد جمعت إلى جودة الجنس، شكل المدنيات، وخنث المكيات، وآداب العراقيات.. واستحقت أن تخبأ فى الجفون، وتوضع فى العيون.

وقيـــل إن مســـاوئ الـــزنجيات كثيرة، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن وتحـــددت أسنانهن، وقل نفعهن، وخفيت المضرة منهن، ويغلب عليهن سوء الخلق،

(١) ذم الهوى لابن الجوزى تحقيق د. مصطفى عبدالواحد ٥٢٠.
(٢) الأغانى ٢٠٤/١/ ٢٢١، ١١٠/٨، ٣٥٤/١٧، يتيمه الدهر للثعالبى ٣/٣.

وكــثرة الهــرب ولكن الغم ليس فى خلقهن، وأما الرقص والإيقاع فيجريا مجرى الفطرة منهن.

والحبشــيات تغــلب عليهن نعومة الجسد ولينه وضعفه، ولا يصلحن للغناء والرقص، كما أنهن عرفن بالترهل والاستعداد لمرض الصدر.

أما البجاويات فمذهبات اللون، حسنات الوجه، ناعمات البشرة، ملس الجسم، فهن جوارى متعة[1].

وقد كتب بعض العلماء رسائل فى حيلهم وخداعهم، وفى فن تقليب الجوارى لمعــرفة الطبيعى من المصطنع، بعد أن غالوا فى تمويه ما يريدون ستره عن عين المشــترى، فكــم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبه، وكم من مرة جعلوا العين الــزرقاء كحــلاء، وحمــروا الخدود المصفرة، وسمنوا الوجوه المقعقعة، وأعدموا الوجــوه شــعر الــلحى، وأكســبوا الشعور الشقر حالك السوداء وجمدوا الشعور البسيطة، ورطلوا الشعور الممرطة، وأهبوا آثار الوشم والجدرى والنمش والحكة. يقول بعض النخاسين: "ربع درهم حناء يزيد ثمن الجارية مائة درهم فضة[2].

وقــد كــان ممن اهتم بهن فى مؤلفاته الجاحظ على نحو ما هو معروف فى مؤلفــه رســالة القيان وعلى نحو ما فى كتابه المحاسن والأضداد، وكذلك الحافظ جــلال الديــن أبى الفضل عبدالرحمن السيوطى فى مؤلفة نزهة فى التفضيل بين البيض والسود والسمر.

كمــا اهــتم الــبلاغيون فى باب الطباق[3] بالجمع بين الأسود والأبيض فى المرأة، وهكذا يعكس تصور الناس للسواد والبياض.

ويمكن أن نرى هذا عند عدد كبير من الشعراء قد تلاعبوا باللونين الأبيض والأسود، على نحو ما نرى من قول الحسين بن مطير فى المهدى :

---

(١) الجوارى ٣٢، ٣٣، ضحى الإسلام ٨٧.

(٢) الجوارى ٣٠، ٣١.

(٣) الطباق أو المطابقة فى الكلام هى الجمع بين الشيء وضده فى جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة مثل الجمع بين البياض والسواد (الصور البديعية بين النظرية والتطبيق.. د. حفني شرف ٢/٧٦).

لــو أنّ مــن نــوره مثقالَ خردلةٍ في السّود طرا إذن لا بيضتْ السود [1]

وهناك من شبه نفسه بهن في حالة ضعف، كقول طاهر بن الحسين إلى ذي الرياســتين: أنـــا أعزك الله كالأمة السوداء إن حُميل عليها دمدمت، وإن رُفه عنها أشرتْ[2].

وأخيراً فقد قال عنهن الجبرتي. وأما الجواري السود فإنهن لما علمن رغبة القــوم في مطــلق الأنــثى، ذهبن إليهم أفواجاً فرادى وأزواجاً، فنططن الحيطان، وتســلقن إليهم من الطيقان، ودلوهم على مختبآت أسيادهن، وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك[3].

وقــد اســتدل الدكتور لويس عوض من هذا على سبق الجواري السود في المطالــبة بالحــرية، وعلى أن الحملة الفرنسية حين قدمت إلى مصر كانت تحمل معهــا أفكار الثورة الفرنسية عن تحرير المرأة، وأنها روجت بين المصريين لهذه المبادئ. ما استطاعت لذلك سبيلاً[4]، فإن صح هذا وهو غير صحيح كما يظهر من السياق كانت المرأة السوداء هي رائدة الحرية في العصر الحديث.

(جـ) استيلادهن :

١- لقــد كــان العرب في الجاهلية يتمسكون بطيب العنصر، فكانوا يتزوجون من الحرائــر، أما إذا كسر واحد منهم هذه القاعدة، فإنهم سرعان ما يعتبرون هذا الكســر خروجاً على القانون السائد بينهم، لأنهم بالإضافة إلى المحافظة على النقاء العنصري كانوا يرون أن الإماء أوعية للشهوة سواء أعتقن أو لم يعتنق، كمــا كانوا يرونهم طبقة دنيا في الحياة الاجتماعية، لهذا فقد أثر عنهم قولهم: إننا قوم نبغض أن تلد فينا الإماء.

(١) الأغاني ٢٢/١٦.
(٢) البصائر والذخائر ٤٣٢/١.
(٣) عجائب الآثار ١٦١/٣، ١٦٢.
(٤) الأهرام في ١٩٦٧/١١/١٧.

ولهذا نراهم يتربصون بأولاد الإماء فيطلقون عليهم اسم الهجناء، فى مقابلة الصـــرحاء الذيـــن يكونـــون من الحرائر أو من النجيبات أو المهيرات، كما كانوا يسمهونهن.

أمـــا أولاد السوداوات فكانوا فى منزلة دون الهجناء، وكانوا يطلقون عليهم اسم الأغربة[1].

فالأمـــة فى الجاهلية لم تكن تعنى شيئاً هاماً عند الرجل، على نحو ما نرى مـــن تلك القصة التى تقول بأن "القتال الكلابى" قتل جارية لعمه كانت قد أغضبته، فإذا بعمه يدعى أنها كانت حاملاً ثم يقول:

أدوا إلى بـــــنىّ لا أبـــــالكم فـــــإن أم بـــــنىّ لا أباليهـــــا[2]

وقد ظل التعبير "بالأم الأمة" نغمة سائدة فى الشعر العربى القديم، على نحو مـــا نـــرى عند أوس بن حجر. وعميرة بن جعل، وحسان بن ثابت، والأسود ابن يعفـــر[3]. ونحـــن لا ننسى أن البلاغين حين يتكلمون عن التعريض وهو تضمين الكـــلام دلالة ليس لها ذكر يضربون له مثلاً بقول محمد ابن عبدالله بن الحسن: لم يعرق فى أمهات الأولاد ، يعرض بالمنصور بأنه ابن أمة[4].

ويجـــب أن نعرف ها هنا أن الأولاد الإماء الذين تحدثنا عنهم، يختلفون عن أولاد الســـبايا لأن الســـبايا عربيات بعكس الإماء، ولأنهم كانوا يعتقدون أن السبايا يلدن الأولاد النجباء، ولقد كان من أولاد السبايا المبرزين دريد بن الصمة سيد بنى جشم، والأشهب بن ثور بن حارثة واخوته الذين كانوا من أمنع العرب لحوزتهم[5].

٢- ثـــم جاء الإسلام فصفى كل ينابيع الرق وحرمها ما عدا رق الوراثة وهو الذى يفـــرض عـــلى من تلده الأمة، ورق الحرب وهو الذى يفرض على الأسرى، وفى الوقت نفسه عمل على تجفيف هذين الرافدين بأسباب كثيرة منها أن أولاد

(١) الأغانى ١٦٥/٢٠، الشعراء الصعاليك د. يوسف خليفة ١٠٨.
(٢) المحبر ٢٢٦، ٢٢٧.
(٣) لسان العرب ٢/ ٣٠٠، المفضليات ٦٠/٢، ديوان أوس بن حجر.
(٤) نهاية الأرب ٦٠/٧.
(٥) المرأة فى الشعر الجاهلى ٤٨٤ وما بعدها.

الإماء من أسيادهن يعتبرون أحراراً متى اعترف الأسياد بهذا، وإذا لاحظنا أن الغـــالب فى أولاد الجـــوارى أن يكونوا من مواليهن أنفسهم، لأن الأغنياء ما كـــانوا يقتنون الجوارى إلا لمتعتهم الخاصة.. تبين لنا أن هذا القيد الذى قيد به الإسلام رق الوراثة كفيل بالعمل على جفاف هذا الرافد نفسه، ونضوب معينه بعد أمد طويل"[1].

فالحـــرية تكون للمولود عقب الاعتراف، وقد جرت العادة بتحرير عقد بهذا يقـــول "أقـــر فـــلان بأنه كان قبل تاريخه وطئ مملوكته التى بيده وملكه المقرة له بالـــرق والعـــبودية، المدعـــوة فلانـــة، الفلانيـــة الجنس، الوطء الصحيح الشرعى واستولدها ولداً يسمى فلاناً، الطفل يومئذ، وهو الآن فى قيد الحياة، وأنه من صلبه ونســـله، ونســـبه لاحـــق بنسبه"، أما الأمة فتصبح أم ولد، وحينئذ تمتنع على البيع والهـــبة، وتكـــون حـــرة عقب موت السيد، بحيث لا تؤخذ فى ميراث أو استدانة، وكثيراً ما كان السيد يحرر أمته أم الولد، ويتزوجها زواجاً شرعياً، رفعاً من شأنها وشـــأن أولاده مـــنها، فتتمـــتع بجميع الحقوق الخاصة بالزوجات الحرائر، وإذا ما حـــررت الجارية تمهيداً لعقد النكاح الشرعى فبوسعها أن ترفض الاقتران بمولاها الســـابق، وعـــندئذ تخرج من عصمته، ولا يحق له أن يعيدها إلى ملكه، بل تطلق حرة من القيود التى فرضها الشرع فى معاشرة الجوارى ما فرض على الزوج من تحريم الاقتراب من أختين[2].

ومـــن أجـــل المـــزيد من حرية الإنسان روى عن النبى عليه السلام قوله: (عـــليكم بالســـرارى فإنهن مباركات الأرحام) ويروى عنه كذلك (أطلقوا الولد فى سبيل الأعاجم فإن فى أرحامهن بركة"[3].

كمـــا روى عن بن الخطاب قوله "ليس قوم أكيس من أولاد السرارى لأنهن يجمعـــن عز العرب ودهاء العجم[4] وهو فى هذا يجرى مع نظرته التى أجملها فى

(١) حقوق الإنسان فى الإسلام ١٢٦.

(٢) نهاية الآرب ١٣٥/٩، الجوارى ١١٦ وما بعدها ، الرق فى نظر الإسلام ٨٦.

(٣) مخطوط رسالة الدرارى فى أبناء السراى ورقة ١٤٦.

(٤) نفسه ورقة ١٤٧.

قـوله (اغتربوا) حين رأى بعضاً من قريش ضعاف البنيان، ومؤكداً لما روى فى الخبر (اغتربوا لا تضووا) وقد ترتب على هذا تشكيل جديد للبنية العربية.

أمـا الأمويون، جرياً وراء نظرتهم العربية النقية، فقد نظروا فى أول الأمر إلى هـذا الأمر بضيق، فقد رأى بعضهم وبخاصة معاوية أن يقتصر أمر السرارى على الخدور، وأن يبعدن عن مناطق النفوذ بقدر المستطاع، وهناك رسالة منه إلى الحسـين بن على يظهر فيها أنه يأخذ عليه زواجه من جارته، بينما يظهر من رد الحسـين أنـه لا يرى فى هذا بأساً[1] ولقد سمعت فى هذه الفترة أصوات تحط من قدرتهـن، وتنادى بنقاء العرق العربى، وفى الوقت نفسه تنظر إلى (الهجناء) نظرة مشوبة بالضيق والاستخفاف.

ثم تغيرت الأمور بعد ذلك شيئاً فشيئاً، فقد قيل إن أهل المدينة كانوا يكرهون التسـرى حتى نشأ من أولادهن القاسم بن محمد بن بكر وسالم بن عبدالله بن عمر بـن الخطـاب، وعلى بن الحسن بن على بن أبى طالب، وهؤلاء أمهاتهم كن بنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى، وهن اللاتى قال فهن على بن أبى طالب لعمر، يا أميـر المؤمنين إن الرسول قال: أكرموا عزيز قوم ذل، وغنى قوم افتقر، إن بنات المـلوك لا يـبعن، ولكـن قوموهن، وقد قومن بالفعل وقسمن بين عبدالله بن عمر ومحمد بن أبى بكر، والحسين بن على.[2]

وقـد روى عن رجل من قريش قال: كنت أجلس سعيد بن المسيب فقال لى يوماً من أخوالك، فقلت : ابن فتاة، فكأنى نقصت فى عينيه، فأمهلت حتى دخل عليه سـالم بـن عبدالله بن عمر بن الخطاب، فلما خرج من عنده قلت: يا عم من هذا. فقال: يا سبحان الله أتجهل مثل هذا من قومك. هذا سالم بن عبدالله بن عمر، قلت: فمن أمه، قال : فتاة.

قـال : ثـم أتاه القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق فجلس عنده ثم نهض، فقـلت : يا عم من هذا. فقال : أتجهل من أهلك مثله. ما أعجب هذا. هذا القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، قلت: فمن أمه. قال: فتاة.

---

(١) الصراع الأدبى بين العرب والعجم. د. محمد نبيه حجاب. ٣.
(٢) الجوارى : ٢ ، ٢٥، ٧٩.

فأمهلت شيئاً حتى جاءه على بن الحسين بن على بن أبى طالب، فسلم عليه، ثم نهض، فقلت: عم من هذا. قال: هذا الذى لا يسع مسلماً أن يجهله: هذا على بن الحسين بن على بن أبى طالب، قلت فمن أمه. قال : فتاة.

قال: قلت يا عم رأيتنى نقصا فى عينيك لما علمت أنى لأم ولد، فمالى فى هؤلاء أسوة. قال: فجللت فى عينيه جدا[1]، وهناك روايات كثيرة فى هذا المجال، وعلى كل فقد ازدادت الرغبة فى الأجنبيات لتنشيط النسل، ولأن العرب فى فتوحاتهم لم يصبحوا معهم نساءهم، ولأنهم يتعففون عن الزنا، أما فى القصور فقد حاول العباسيون فى أول الأمر التشدد على من يدخل منهن القصور، ولقد كان الخليفة المنصور أكثر المتشددين فى هذا الأمر، ولكن الجوارى كن يلجأن إلى الحيلة وبخاصة إذا كان لهن أسر وأهل، فقد كن يدخلن إلى القصور حتى إذا ولدن أسفن عن حقيقتن، على حد ما فعلت "الخيرزان" حين عرضت على المنصور.[2]

والمنصور هذا مع تحرزه كانت فى بيته أروى بنت منصور الحميرية وامرأة أموية، وكذلك كردية، وأمة رومية.

وقد وصل الحال بعد ذلك إلى حد القول بأنه كان للرشيد ما يقرب من ألفى جارية، وللمتوكل أربعة آلاف سرية، بل لقد وصل الأمر إلى حد الترغيب فى الهجناء، فإذا كان عربى من أبناء المهاجرين قد قال (أبناء هذه الأعاجم كأنهم نقبوا الجنة وخرجوا منها، وأولادنا كأنهم مساجر التنانير)[3]، فإنهم بعد ذلك قالوا "بنات العرب والغرايب أنجب، وما ضرب رءوس الأقران كابن الأعجمية".

وقد غالى هارون الرشيد فى حبه لهن إلى حد أن معظم أبنائه كانوا أبناء إماء، وهكذا رأينا تهاوناً فى المحافظة على النقاء العربى، بل رأينا هناك من يعمل على الابتعاد عنه، إلى حد أنه ندر من الخلفاء من كانت أمه حرة ووصل إلى الخلافة بالفعل إبراهيم بن المهدى وهو شديد السواد وأمه أم ولد سوداء، وكان من ينظر إلى الخليفة الطائع لا يصدق أن فيه دماء عربية، فقد كان شبيهاً بسكان

(١) الكامل فى اللغة والأدب للمبرد ٣١١/١، ٣١٣.
(٢) المحاسن والأضداد ١٨٠، ١٨١.
(٣) عيون الأخبار ٣٩/٤.

المـــناطق الشمالية الباردة، والخليفة المقتفى كانت أمه حبشية[1]، وقد تزوج الخليفة (المستكفى) حبشية تدعى "سكرى الوردية".

وكمـــا كانت الجوارى متعددات الألوان، فقد كن كذلك متعددات الاديان فقد كـــانت هناك المجبوسية التى تسرع إلى الإسلام وكانت هناك اليهودية والمسيحية، وكـــثيرات منهن كن يخترن الدخول فى الإسلام طمعاً فى التزوج ثم فى الميراث، فهـــا هو خالد بن عبدالله القسرى عامل العراق للأمويين يبنى لأمه كنيسة مشهورة، والمـــأمون يدخـــل عليه فى عيد الشعانين فترى من حوله الجوارى مزنرات، وفى أعناقهن صلبان الذهب[2].

يمكـــن أن نـــتعرف على مسار هذا الظاهرة من عبدالملك بن مروان الذى يقـــول: من أراد الباءة فعليه بالبربريات، ومن أراد الخدمة فعليه بالروميات، ومن أرد النجابة فعليه بالفارسيات.

ويقـــول : مـــن أراد أن يـــتخذ جارية للتلذذ فليتخذها بربرية، ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية[3].

والجـــاحظ يقـــول : إن أهـــل البصرة أشهر النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات والأغوار، واليمن أشهر النساء عندهم: الحبشيات وبنات الحبشيات: وأهل الشـــام أشـــهى النســـاء عندهم الروميات وبنات الروميات: وكل قوم فإنما يشتهون جلبهم وسبيهم إلا الشاذ[4].

كمـــا يمكـــن التعرف على هذه الظاهرة من الرواية التى تقول : إن بعضهم سئل على ولد الرومية فقال: صلف، معجب، بخيل[5].

وسئل عن ولد الصقلبية فقال: طفس زنيم.

وسئل عن ولد السوداء فقال: شجاع سخى.

---

(١) الدرارى فى أبناء السرارى ورقة ١٤٩، والجوارى ٨٤ وما بعدها، ضحى الأسلام ١٢، ١١.
(٢) ابن زيدون : على عبدالعظيم ١٠٧.
(٣) الأغانى ١٩/ ٥٩، ١٣٨.
(٤) مخطوط الدرارى فى أبناء السرارى ورقة ١٤٧.
(٥) رسائل الجاحظ ٧٥.

وسئل عن ولد الصفراء فقال: هم أنجب أولادا ، وألين أجساداً، وأطيب أفواها.

وحين سئل عن ولد العربية قال: أنف حسود[1].

والجاحظ يرى أن الخلاسى من الحبش والبيضاء يكون عادة أعظم من أبوية، وأقوى من أصليه ومثمريه، كما يرى أن هذا الذى يجئ من البيض والهنود لا يكون على مقدار ضخامة الأبوين، وقوتهما، ولكنه يجئ أحسن وأملح[2].

وهذه النظرة تؤكدها نظرة العلم الحديثة حيث تحدثت عن اختلاط الأجناس[3].

وقد ترتب على هذا أن هذا الجيل المختلط قد أحس بالزهو على العرب أنفسهم، وبالتفاخر عليهم، فها هو بلال بن جرير يقول :

يا ربّ خالٍ لى أغرَّ أبلَجا

من آل كسرى يَغْتدى متوَّجا

ليس كخال لك يُدْعى عشنَجا[4]

وروى عن رجاز من بنى سعد قوله :

أنا ابنُ سُعْدى وتوسَّطْتُ العجمْ

فأنا فيما شئتُ من خالٍ وعم

وقد قيل إن أبا الفضل الهاشمى كانت عنده سوداء يحبها حباً شديداً، وكان أن طلب من ابن الرومى أن يذكرها فى شعره، وأن يستغرق أوصافها الباطنة والظاهرة، فقال هذه القصيدة، وقد أشار عليه ابن الرومى أن (يولدها) فإنها جديرة بأنه تأتيه بولد ذكر فامتثل، وأولدها فأنجبته، ومن هذه القصيدة قوله:

(١) محاضرات الأدباء ٢٠٧/١.
(٢) الحيوان ١٥٧/١.
(٣) ما هو الجنس ؟ ٦٦.
(٤) العشنج : المتقبض الوجه، السيئ المنظر.

سوداءُ لم تنتسب إلى بَرَصٍ الشقْـ ـــــــــر لا كُـــلفةٍ، ولا بهـــقِ
ليســتْ من العبس الأكف ولا الفلـ ح الشّــفاه الخــبائث العِــرق
بــل مــن بــنات المــلوك ناعمة تنشــر بــالدل مَيــت الشّــبق
إن جفـــونَ الســيوفِ أجودُهـــا أســود.. والحــقُ غيــر مُختــلق
وبعــضُ مــا فضّــلَ الســوادُ به والحَـــقَ ذو ســـلم وذو نفـــق
أن لا يعـــاب الســـوادُ حلكـــته وقــد يعــابُ الــبياضُ بالــبهق(١)!

وعــلى كل فقد رأينا ظاهرة استيلاد الإماء تنداح، وتغطى مساحة اجتماعية كبيرة من مساحات المجتمع، وقد استمر الجدل حولهن بحيث شغلن الحياة، ولم يكن بهذا غريباً لأنهن كن بنية حقيقية فى المجتمع، وخلية تتكاثر يوماً بعد يوم.

وقــد اتصل الجدل من حولهن حتى مس فكرة (الخلافة) فقد قيل إن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب (زعيم الزيدية) حاجة هشام لأنه كان يخشى جانــبه عــلى حكمــه، وكــان أن قال له مرة: لقد بلغنى يا زيد أنك تذكر الحلافة وتتمناها، ولست هناك، وأنت ابن أمة.

فقــال زيد: يا أمير المؤمنين، لقد كان إسحق ابن حرة، وإسماعيل ابن أمة، فاخــتص الله ولد إسماعيل فجعل منهم العرب، فما زال ذلك ينمو حتى يكون منهم رسول الله.

وقــريب مــن هــذا ما كتبه المنصور رداً على حجج محمد بن عبدالله (٢)، والصــورة العامـــة لهــذه الحالة يرسمها أحمد أمين فيقول: فكثير من رجال البلاد المفــتوحة ونسائهم وزعوا كأنهم غنائم على الجيش العربى، فكان لكل جندى تقريباً عــبيد وإماء يستخدمهم فى حوائجه، ويستولد الإماء إن شاء، فنتج من هذا أن البيت العــربى دخــلت فيــه عناصر أخرى فارسية أو رومانية أو سورية أو مصرية أو بربــرية، فــلم يعــد البيت العربى عربياً بل بيتاً مختلطاً، ورب البيت هو العربى، أضــف إلى هذا أن هؤلاء الإماء كن يلدن أولاداً يحملون الدمين معاً: الدم العربى

(١) نزهة العمر ٣١.
(٢) ضحى الإسلام ٢٧١، ٢٨٨.

مـــن جهـــة الأب، والـــدم الأجنبى من جهة الأم، وكان عدد هذا النوع كثيراً لكثرة الفـــتوح الـــتى فتحها المسلمون فى عهد عمرو من بعد.. هؤلاء الأرقاء والموالى أنـــتجوا فى الجيـــل الثانى لعهد الفتح عدداً عديداً منهم من يعد من سادات التابعين وخير المسلمين، ومن حملة لواء العلم فى الإسلام(١).

وقـــد كان هناك من تنبه إلى انتشار هذه الظاهرة فى وقت مبكر، فقد قيل إن الأشـــعث بـــن قيس قال لعلى بن أبى طالب، يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء على قربك، وحين كتب محمد بن عبدالله بن حسن بن حسن ابن على بن أبى طالب إلى أمير المؤمنين المنصور.. وأعلم أنى لست من أولاد الطلقاء ولا أولاد اللعناء، ولا أعرقت فى الإماء، ولا حضنتى أمهات الأولاد.

حيـــن كـــتب هذا رد عليه المنصور قائلاً: وأما ما ذكرت أنه لم تعرق فيك الإمـــاء، فقـــد فخرت على بنى هاشم طراً وأولهم إبراهيم بن رسول الله صلى الله عـــليه وســـلم، ثم على بن الحسين الذى لم يولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عـــليه وســـلم – مولود مثله، ومما يروى فى هذا المجال قول المختار لإبراهيم بن الأشـــتر يوم خازر وهو اليوم الذى قتل فيه عبيد الله بن زياد إن عامة جندك هؤلاء الحمـــراء، وإن الحـــرب إن ضرســـتهم هربوا، فاحمل العرب على متون الخيل، وأرجل الحمراء أمامهم(٢).

وقـــد ذكر الجاحظ أنه قيل لعبيد الكلابى: أيسرك أن تكون هجينا ويكون لك ألف جريب؟

فكان رده : لا أحب اللؤم بشىء.

وحين قيل له: إن أمير المؤمنين ابن أمة.

قال أخزى الله من أطاعه.

بـــل إن بعضـــهم وصـــل به الحال إلى إنكار أن يرث (الهجين) مثل أخوين له(٣)، وهناك من أكد أن البدع والضلالات فى الأديان لا تظهر إلا منهم(٤).

(١) فجر الإسلام ٩١.
(٢) الكامل للمبرد ٣١٢/١ – ٣١٤، ٢٧٤.
(٣) عيون الأخبار ٦١/٢.
(٤) الفرق بين الفرق ١٠١.

وقـد أسـهم بعض الشعراء فى إدانة هذه الظاهرة، فقد عرض الكميت بأخذ الفرس والحبشة وغيرهما من نساء اليمن [1]، وقد رأينا الرياشى يقول:

إن أولاد السـراری كـثروا يـارب فيـنا
رب أدخلـنی بـلاداً لا أری فيهـا هجيـنا[2]

وقال بن هرمة :

مـا غيـرتْ وجهـه أمُ مهجّـنة إذا القـتامُ تغشّـى أوجـهَ الهُجن [3]

وقال آخر :

إن المـذرّع لا تُغْـنی خؤولَـتُه كالبغل يعجزُ عن شوْط المحاضير [4]

وقـال عـبدالله بـن عباس فى كلام يجيب به بن الزبير (والله إنه لمصلوب قـريش، ومـتى كان عوام بن عوام يطمع فى صفية بنت عبدالمطلب من أبوك يا بغل، فقال: خالى الفرس[5].

ولكن هذه الأصوات المحذرة والخائفة كانت واهنة، لأن هذه الظاهرة كانت تنتشـر مـن غيـر أن تؤثر فيها هذه الأصوات الواهنة، وذلك لأن حركة المجتمع الجديد، وظروفه كانت أقوى من كل هذه الأصوات.

ولقد كانت خيراً وبركة فى إحداث عملية (توليد) جديدة لا بين الأجسام فقط، ولكـن بيـن العقـول كذلـك (فعقول الناس من الأمم المختلفة كان يتناولها اللقاح،

---

(١) خزانة الأدب ١٧٩/١.
(٢) الكامل ٣١٤/١، والهجين عند العرب الذى أبوه شريف وأمه وضيعة، والأصل فى ذلك أن تكون أمة، وإنما قيل هجين من أجل البياض، وكأنهم تصدوا للروم، والصقالبة، ومن أشبههم.
(٣) مجالس تعلب ٣٨.
(٤)الكامل ٣١٥/١، والمذرع من كانت أمه كريمة وأبوه خسيسا، قال الفرزدق:
إذا باهـلى تحـته حنظـلية لـه ولـد مـنها فـذاك المـذرّع
وسمى مذرعاً إيماء إلى الرقمتين فى ذراع البغل لأن هذه الوراثة من الحمار على نحو قول هديه
ورثـت رقـاش الـلؤم عـن آبائها كـتوارث الحُمُـرات رقْـمَ الأذرع
(٥) الكامل ٣١٥/١.

فالفارسي يحمل عقلاً فارسياً ثم يعتنق الإسلام، ويتعلم اللغة العربية، فينشأ مزيج من العقلين تتولد منه أفكار جديدة، ومعان جديدة، واليوناني النصراني أو الرومي النصراني، أو العراقي اليهودي يخالط العربي المسلم، ويتبادلان الرأي والقصص والفكرة فينشأ من ذلك فكر جديد [1].

ومثل هذا يمكن أن ينسحب على عملية الاستيلاد، التي كانت نشطة على كل المنطقة الإسلامية.

هذا فيما يتصل باقتحام عالم الإماء، أما زواج العربية بغير العربي فقد ظل دائماً أمراً غير مرغوب فيه، ومع أنه كان يتم أحياناً إلا أن المجتمع كان غير راض عنه، على نحو ما نرى من قول الشاعر (أبي بجير) في آل عبد القيس حين تسامحوا في تزويج بناتهم، نظراً لظروف اقتصادية كانت تجتازها القبيلة .. فقد قال:

أمن قلةٍ صرتمْ إلى أن قبلتم	دعارةَ زرَّاعٍ وآخر تاجر
وأصهبَ رومي، وأسودَ فاحم	وأبيض جَعْد من سَرَاة الأحامر
فهلا أتيتم عفة وتكرمًا	وهلا وجلتُم من مقالة شاعر
بنو الأصفر الأملاكِ أكرمُ منكم	وأولى بقربانا ملوك الأكاسر [2]

(١) ضحى الإسلام ١/١٤.
(٢) الصراع الأدبي بين العرب والعجم ٢٩.

رابعاً : الدولة النجاحية :

وأخيراً يجئ دور الدولة النجاحية، نسبة إلى نجاح من بلاد الحبشة، فقد كان من عبيد الحسن بن سلامة، وقد وصل الأمر إليه حين تولى كفالة" طفل من آل زياد، ولذلك تُعرف هذه الدولة بالحبشية، وبالعبيد تارة أخرى. المهم أن نجاحاً استولى على زبيد وأعمال تهامة سنة اثنى عشرة وأربعمائة، وضرب السكة باسمه، وكاتب أهل العراق، وأطلق عليه اسم "المؤيد نصير الدين"، وفوض إليه أمر الجزيرة اليمنية، وظل ملكاً لتهامة من "حلى" شمالاً إلى "عدن" جنوباً وقد اتقته ملوك الجبال، وخوطب بالملك.

حتى قتله الملك "على بن محمد الصليحى"، فقد تقدم إلى "زبيد" عام ٤٥٥ وتغلب على هذه الدولة، وكان أن هرب بنو نجاح إلى جزيرة "دهلك" فالمجتمع اليمنى فى هذا العصر تألف من العنصرين العربى والحبشى، وكان الأحباش فى تهامة وخاصة فى زبيد ونواحيها كالنجاحيين، أما العرب فكانوا فى "الصليحية" وحين حدثت الفتنة بين الفريقين، رأينا السلطان الخطاب يهجو الدولة النجاحية فيقول:

يا صفوة العرب الذين نمت بهم ... فى المجد خير معارف وأروم

ما العذر ما إن لا تزال عبيدكم ... أمراءكم هذا من التسخيم

هل بعد أن أضحت مقاول يقرب ... تبعاً لعبد تافه مخروم

ويقول :

هل فاتكم فعل العبيد وما ... جاءوا وإليه من الفعال[1] النكير

(١) السلطان الخطاب حياته وشعره: إسماعيل قربات حسين ١٤ وما بعده.

خامساً : كثرة السود بعد مجيء الإسلام:

كـــان عدد الأرقاء حين ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية لا يكون مشكلة، وكان عددهم بين المسلمين الأوائل لا يزيد على عدد الأصابع فى اليدين(١)، فلم يكن الحـــال فى الجزيـــرة العربية كالحال فى أمم الحضارة الأخرى، حين كان الرقيق الأسود هو الذى يكون الكثير من الملامح هناك.

أما بعد ظهور الإسلام، وكثرة الفتوحات، ومخالفة التعاليم الصريحة للإسلام فيمـــا يتصل بتصفية الرقيق، فإن انتشار الرقيق كان موجه لم يستطيع أحد الوقوف أمامها.

ولقـــد كان مكونات هذا الرقيق، هذا العدد الوافر الذى كان يجلب من شرق وأوسط أفريقية، كما أن الحكام والقواد كانوا يرسلون الأعداد الغزيرة إلى الجزيرة العـــربية، ولكـــن الملاحظ أن التركيز لم يكن تماماً على الرقيق الأسود، ذلك لأن حـــركة الفـــتوح لم يكن لها دور يذكر فى الشرق الأفريقى، كما أن موجات الفتح اكتســـحت الشـــمال الأفريقى، ولم تكتسح فى الوقت نفسه جنوب الصحراء، فكسر الإســـلام لـــلحاجز الصـــحراوى وقيام عشر دول باسمه كان بوسائل أخرى غير السيف(٢).

وقد كان المنحدرون فى قلب إفريقية فى الغالب مسلمين غير عرب، ويمكن القول بأن ظاهرة اندماج العرب بالسود فى السودان قامت على غير العنف، وعلى اســـتبقاء الناس فى أراضيهم من غير إرسالهم كهدايا أو كقوى عاملة أو مرفهة إلى العواصـــم الكبيرة.. ويمكن أن نستدل على هذا من عامل لمروان أهدى إليه غلاماً أســـود، فإذا بمروان يقول لكاتبه عبدالحميد: اكتب إليه فأذمم فعله، فإذا بعبد الحميد يكتب للعامل: لو وجدت لوناً شراً من السواد، وعدداً أقل من الواحد لأهديته(٣).

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ٢١٨.
(٢) راجع فى هذا مع حركة الإسلام فى إفريقية. د. عبده بدوى.
(٣) الوزراء والكتاب للجهشارى ٨١.

وعلى كل فنحن نرى السود بصفة غامة يتكدسون فى الأعمال المجهدة والحقيرة كالخدمة، والحجامة، وإجراء الخيل[١].

ونحن لا ننسى أنه فى عام ١٤٠ هـ نجح الخوارج فى تأسيس دولة مستقلة فى الجهات الجنوبية الغربية من دولة المغرب، وهى دولة بنى مدرار التى كانت عاصمتها سلجماسة، ولقد كان مؤسس هذه الدولة زنجى اسمه (عيسى بن يزيد الأسود) وهذا الأمر يدل دلالة صريحة على أن الخوارج كانوا مخلصين كل الإخلاص بالتزام فكرهم السياسى والديمقراطى نظرياً وعملياً[٢] وقد كان أصحابه يتزوجون من السوداوات وقد (ضوى إليهم قوم من أباق العبيد[٣] وقد كان منهم الشاعر الأسود (أبو العطاء السندى).

ونحن نعرف قبل ذلك أن السود كانوا يشكلون جزءاً مهماً من جيش أبى مسلم الخرسانى[٤]، كما قيل إن القائد محمد بن صول قتل منهم أربعة آلاف بسيوف الخرسانية.. كما قيل أيضاً إن جزءاً كبيراً منهم كان فى جيش (طارق بن زياد).

.. ومما قيل كذلك إنه عام ١٤٥ هـ وثب (السودان) بالمدينة على (ابن الربيع) فقاتلهم بجنده فهزموه، وقد كان جنده يعيثون فى الأرض فسادا، ولكن السودان قتلوا نفراً من الجند، فهابهم الجند، وكانوا يقولون: ما هؤلاء السودان إلا سحرة أو شياطين[٥].

هذا بالإضافة إلى رافد متجدد كان يدفع السود إلى قلب البلاد، كالزط الذين كانوا يقدمون بعد الإسلام من السند.

وليس معنى ما نريد أن نؤكد عليه فيما نؤكد أن عدد السوداوات كان قليلا فى الجزيرة العربية، ولكن ما نريد أن نؤكده هو أنهن كن أقل من البيضاوات القادمات بوسيلة أو بأخرى من أماكن كثيرة فى العالم.

---

(١) الحيوان ٣/٣٢، ٤٣٥.
(٢) الحركات السرية فى الإسلام ص٣٦.
(٣) البخلاء ٣٢٢.
(٤) ابن الأثير ٤/٣٠٥.
(٥) الأغانى ١٠/ ١٥٤، ١٥٥.

ولمـــا لم يكن هناك إحصاء للنسب بين البيض والسود، فإنه غاية ما نهتدى إليه هو هذه الأرقام التى تتناثر هنا وهناك، والتى يبدو على بعضها المبالغة على نحــو ما قيل مثلاً إن الرقيق الذى أحصى فى حوزة عثمان كان يزيد على الألف، وإن الزبير بن العوام كان مما يملك ١٠٠٠ عبد وأمه،، وكان عمر بن أبى ربيعة يمــلك أكــثر من سبعين عبدا، وكان أى أمير قوى يملك من العبيد والجوارى ما يقــرب مــن ألــف، بــل لقد كان الجندى العادى فى الجيش الشامى عند معركة صــفين يمــلك من عبد إلى عشرة عبيد يقومون على خدمته، وما يقال عن العالم الــذى عاش فيه "هارون الرشيد" يفوق الخيال، وقد روى أن قصر المقتدر (٩٠٨-٩٣٢) كــان يضــم ١١,٠٠٠ يونانى وسودانى، وهناك من يذهب إلى أن الجوارى كن أكثر من الحرائر فى المنازل العربية [1].

ومن الملاحظ أنه فى أخريات الدولة الفاطمية ظهرت طبقة جديدة هم جماعة الســود، ذلــك لأن الخــلفاء الفاطميين قد استعانوا فى أخريات حياتهم بقوات من الســودانيين والأحــباش،ن كمــا قيــل إنه كان منهم فى أيام صلاح الدين الأيوبى ١٠٠,٠٠٠ مقاتل.

وفى الحديــث عــن التشيع بعد الفاطميين قال القاضى الفاضل فى إحدى رســائله مصوراً تظاهر المصريين بالتشيع ".. قد وصلنا البلاد وبها أجناد السودان يــزيد عــلى مائة ألف كلهم أغنام أعجام.. وخدام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد الــنحل[2]" وقد جمع كنز الدولة أمير أسوان عدداً من السودانيين، وحاول أن يعيد بهــم الأمر للفاطميين، ولكن الملك العادل شقيق صلاح الدين هزمه، واضطره إلى الهرب برجاله إلى بلاد النوبة[3].

وقــد عرفت مصر فى القرن الثامن عشر طائفة كبيرة تسمى (القزلار) كان مــنهم مصــطفى قــزلار وأحمد بك قزلار وقد كانوا من الخصيان السود الذين يختصون فى الأساس برعاية الجوارى فى قصور السلاطين.

---

(١) الفخرى ٣٥٢، المسعودى ٢٧٦/٧، تاريخ العرب ٢٩٣/٢، الجوارى ٣٦، ٣٧.
(٢) راجع الروضتين: أبو شامة ١٤١/١، ابن الكيزانى. د. على صافى حسين ١٩.
(٣) الخطط للمقريزى ٣٢٠/١.

.. ومن قبل ذلك فى عهد الملك الأشرف (برسباى) قيل أنه كان فى القرافة الكبرى، والقرافة الصغرى من السودان نحو ثلاثة آلاف إنسان ما بين رجل وامرأة وصغير وكبير ففنوا بالطاعون حتى لم يبق منهم إلا القليل[1] ولقد كانت أم الخليفة المستنصر بالله الفاطمى سودانية[2].

.. ونحن لا ننس الدولة (النجاحية) التى قامت فى اليمن على يد حبشى يسمى (نجاح) وكانت معاصرة للفترة الأخيرة من الدولة الفاطمية (فالمجتمع اليمنى فى هذا العصر يتألف من العنصرين العربى والحبشى، وكان الأحباش فى تهامة وخاصة فى زبيد ونواحيها، وتمثل الدولة النجاحية بزبيد هذا العنصر الحبشى[3] وهى تلك الدولة التى هجاها السلطان الخطاب بقوله :

هل أتاكم فعل العبيد وما جاءوا إليه من الفعال النكير[4].

ونحن إذا أردنا التعرف عليهم بعد ذلك فى حركة التاريخ، نجد أن كثيراً منهم اندمجوا فى المجتمع العربى، ذلك لأن هذا المجتمع كما أكدنا مجتمع مفتوح، لا يحاصر السود ولا يعزلهم فى أماكن بعينها.

أما عمليات التراكم فيمكن أن توجد فى البلاد التى لا زال للقبيلة أثر حاسم فيها، فالسياح مثلاً والمكتشفون قد لفت نظرهم وجود (بقع سوداء) بعينها فى أكثر من مكان في اليمن، مع أن سكان الجبال الذين قل اختلاطهم بالسود ظلوا على حالهم من بياض اللون.

وقد رأى (والين) قبائل من السود فى منطقة الجوف، كما أن السود الخلص كانوا فى نجد، وفى بقية الجزيرة العربية، ومما قاله (بلغريف) أنه رأى فى الرياض أناسا من الخلاسيين يحملون سيوفا ذات مقابض فضية، فى الوقت الذى يخدمهم فيه عرب خلص من أبناء إسماعيل وقحطان.

---

(١) النجوم الزاهرة ٣٤٢/١٤.
(٢) مع التعليم الدينى السودان. محمد المبارك عبدالله ص١٦.
(٣) السلطان خطاب : إسماعيل قربان حسين ٢١.
(٤) نفسه ٥٦.

وعجـبت (ليدى بلنت) فى رحلتها إلى بلاد نجد عام ١٨٧٨ من أن الناس هـناك لا يلتفتون لأمر اللون، وقد ذكرت أن حاكم مدينة (سكاكة) الزنجية زنجى أسـود (كرية الملامح كزنوج إفريقية)، ثم قالت: (إن مما لا يصدقه العقل أن يحيط بهذا الحاكم الزنجى الذى لا يزال عبداً، رهط من الندماء البيض الخالصى العروبة، يمتثلون أوامره، ويبتسمون استحساناً لأفاكيهه التافهة.[١]

ولا شـك أن البيض تلفت أنظارهم هذه الظاهرة الآن فى البلاد العربية ذلك لأنهم لم يتعودوا على هذا النوع من التسامح فى الألوان فى البلاد الغربية.

.. المهـم أن السـود ظلوا يلعبون دوراً فى الممالك التى كانت تعتمد على العبيد بصفة خاصة، سواء كان هذا الدور دور وتيد أو دور انشقاق، كما كان الحال مع السليمانيين، وبنى زريع ، وبنى حاتم الهمدانيين، والصليحيين[٢].

(١) حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر ٦٨.

(٢) السلطان الخطاب . إسماعيل قربان حسين ٤٢.

سادساً : مكانة السود بين العرب فى الجاهلية والإسلام وهل دامت المساواة التى دعا إليها الإسلام ؟

(أ) نحن نعرف أن العرب فى الجاهلية كانوا يعطون اللون اهتماماً خاصاً وأول ما يقابلنا فى هذا المجال أن سيف بن ذى يزن حين استنصر كسرى على الأحباش فى بلاده ذكر له القرابة، وحين سأل كسرى عن هذه القرابة فى اندهاش قال له (أيها الملك الحلبة، وهى الجلدة البيضاء)[1].

كذلك يروى أنه قال له (أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغربة فجئتك لتنصرنى عليهم، وتخرجهم عنى، ويكون ملك بلادى لك، فأنت أحب إلينا منهم[2] ونحن لا ننسى تلك القصة المثيرة التى تروى تحت باب من ضرب به المثل من الرجال على أفعل التفضيل، فهم يقولون أنوم من عبود، وعبود هذا كان عبداً أسود[3] وعلى كل فالوجدان العربى القديم قد اعتقد فى تلك الأسطورة التى تقول إن نبى الله نوح كان ينام فى أحد الأيام، وعند قدميه قد جلس ابناه سام وحام، وحين هبت ريح وكشفت عنه ثوبه حجب سام عينيه حتى لا يرى عورة أبيه، أما حام فقد نظر وضحك، ثم حين استيقظ نوح غضب من حام ودعا عليه قائلاً: سود الله وجهك وجعل أبناءك وذريتك عبيداً لأبناء أخيك سام، ومن الغريب أن هذا الأمر انعكس على السيرة الشعبية لسيف بن ذى يزن، فالأسطورة تجعله ينقذ ما قاله نوح فى ولديه، بمعنى أن سيفا تسلط على السود فى بلاده[4]، ونحن سنرى مكانة السود فى كثير من الشعر الذى سيجئ بعد ذلك:

(ب) ثم جاء الإسلام بالمساواة بين الناس واعتبر اختلاف الألسنة والألوان من آياته[5]، وقد قيل إن سبب نزول قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ

(١) تاريخ مروج الذهب ٢٨٢/١.
(٢) الطبرى ١١٦/٢.
(٣) نهاية الأرب ١١٩/٢.
(٤) فن كتابة السيرة الشعبية ٢٦٤.
(٥) سورة الروم : ٢٢.

عَلِيمٌ خبير﴾[1]، أن جماعة سمعوا بلالا الحبشى يؤذن فقال عتاب بن أسيد: الحمد لله الذى قبض أبى حتى لم ير هذا اليوم، وقال : "الحارث بن هشام" : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً، وقال سهيل بن عمرو إن يرد شيئاً يغيره، وقال أبو سفيان: إنى لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء، وقد سبق أن هجاه سعد بن طريف فقال.

وذاك أسودُ نوبىُ له ذفر كأنهُ جُعَلٌ يمشى بقِرْواح

وقد كان فيما قاله بديل بن ورقاء للنبى عليه الصلاة والسلام جئتنا بعجرائك وسودانك[2]، وقد هجا حسان هذا[3].

وإذا كان الله يقول: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[4] فإن أمر هذه الخيرية لا يرجع إلى أسباب عنصرية، أو لونية، وإنما مردها إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والإيمان بالله.. وهذه الخصائص لا تستعصى على أحد، لأنها فى إمكان الناس جميعاً.. دون تفريق:

والنبى عليه الصلاة والسلام يقول : "أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى" وها هو عمر بن الخطاب يقول عن بلال: إنه سيدنا، وفى هذا يقول ابن حزم فى كتابه المحلىٰ: وأهل الإسلام كلهم إخوة لا يحرم على ابن زنجية لغية[5] نكاح ابنة الخليفة الهامشى، ثم قال بعد أن أورد عدداً من آراء

---

(1) ٤٩ الحجرات آية ١٣.. أى من آدم وحواء فأنتم فى ذلك سواء فلا محل للتفاخر بالأنساب، وقد كانوا يتفاخرون بها ويزدرون بالضعفاء والفقراء (صفوة البيان لمعانى القرآن).

(2) انظر داعى السماء ١٤٦، مجلة الرسالة العدد ١١٠٣، الحيوان ٣/٤٢، ٥٠٧.

(3) غلبت على شبه الغلام وقد بأن السواد لحالك بعد ولقد كان عتبة بن أبى سفيان شديد الأدمة، وكانت جمامة جدة لأبى سفيان من قبل أم السوداء رسالة دكتوراه للدكتور حسن حنفى ص ٢٧٥.

(4) سورة آل عمران آية ١١٠.

(5) لغية : مهملة.

الفقهـــاء: إن الحجة فى ذلك هى قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وقد تعرض لشيء من هذا فى افتتاحية كتاب جمهرة أنساب العرب [١].

فإذا وقفنا عند ما يعرفه الفقهاء بالكفاءة، رأينا الإمام مالك يقول: الكفاءة فى الدين لا غير، كما استند كثير من الفقهاء إلى ما رواه الترمذى من قول النبى عليه الصـــلاة والســـلام: "إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفســـاد كبير، وقد روى عن الإمام الشافعى فى هذا قوله، لم يثبت فى اعتـــبار الكفـــاءة بالنســـب حديث، ويمكن تأكيد هذا بما ذكره الشوكانى فى الجزء السادس من نيل الأوطار.

ومن المفيد فى هذا المجال الإشارة إلى القول بأن الحكم فى مسألة واحدة قد يختـــلف باخـــتلاف الزمان والمكان والعادة ومصالح الناس، كالذى روى عن أبى حنيفة من أن من غصب ثوباً صبغة باللون الأسود فقد قلل قيمته، والذى روى عن أبى يوســـف فى هذه المسألة: أن الصبغ بالسواد يزيد قيمته، فما وراء ذلك أن أبا حـــنيفة أفتى فى زمان لم يتخذ فيه العباسيون السواد شعاراً لهم، أما أبو يوسف فقد أفتى حين اتخذوا السواد شعاراً[٢].

ومـــا يهمـــنا أن نذكـــره هنا أن حقوق الإنسان إذا كانت ما زالت تتعثر إلى الآن، فإنها أعلنت فى الإسلام منذ أربعة عشر قرناً.

وإذا أردنـــا أن نـــتعرف على نظرة القرآن للسواد، وجدنا أن مادة (سود) قد ورد ثلاث منها بمعنى السيادة[٣].

---

(١) ص١.

(٢) الهوامل والشوامل لأبى حبان ومكسويه المقدمة (ك) والمسألة رقم ١٥٣.

(٣)﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (سورة آل عمران الآية ٣٩) والآية الثانية ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة يوسف الآية : ٢٥) والآية الثالثة : ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ (سورة الأحزاب الآية ٦٧).

وقــد ورد خمس فى وصف اللون باعتباره حالة طارئة على الوجه لا صفة لازمة[1]، كما جاء مرتين وصف للجبال، وللخيط[2].

وهكــذا نرى أن هذه المادة لا تعطى للون الأسود ميزة أو نقيصة فهو لون كباقى الألوان.

وقــد مر بنا حديث الحبشى الذى قال للرسول عليه الصلاة والسلام، أرأيت إن قاتلت بين يديك حتى أقتل، أيدخلنى ربى الجنة، لا يحتقرنى، فلما قال له النبى: نعم عاد يقول : وأنا منتن الريح أسود اللون.

وفى ظلال هذه التعاليم الجديدة، ومن خلال هذه النظرة رأينا نماذج شامخة، وقادرة على العطاء، والإسهام فى حركة المجتمع (فقد ظهر نموذج العبد الذى علمه الديــن القويــم أن العبودية ليست قضاء مبرما على من ابتلى بها، وأن الفارق بين العــبد والســيد ليس بالفارق الخالد الذى لا يغير ولا يستدرك، وأن المروءة تسوى بيــن الســيد القرشى والعبد الحبشى، فمن تطلع من العبيد إلى منزلة السادة فليتقدم إليهــا فهى فى متناول يديه.. وقد سرت هذه النخوة إلى ضمائر الكثيرين من العبيد بعد ظهور الإسلام[3].

ولقــد عد من كبارهم سعيد بن جبير، وقد قيل عنه أنه أورع الخلق وأتقاهم، وكان أعظم أصحاب ابن عباس، وأصحاب الحديث يطعنون فى الذى يجئ من قبل أصحاب ابن عباس حتى يجئ من سعيد بن جبير، وقد قتله الحجاج والناس يقولون:

---

(١) الأولى والثانية في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (سورة آل عمران الآية : ١٠٦). والآية الثانية: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (سورة الزمر الآية: ٦٠) والآية الرابعة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (سورة النحل الآية : ٥٨). والآية الخامسة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (سورة الزخرف الآية ١٧).

(٢) الآية الأولى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (سورة فاطر الآية ٢٧). والآية الثانية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (٣البقرة الآية : ١٨٧).

(٣) بين الكتب والناس . عباس محمود العقاد ١١٥.

كلــنا محــتاج إليــه، وكان منهم حبيش بن دلف الذى كان ينازع ضرار بن عمرو الرياسة[1].

ومنهم مكحول الفقيه، ،وفرح الحجام الذى كان من أهل العدالة والمقدمين فى الشهادة.

ومــن شــجعانهم مهجــع، ووحشى، والغداف، وكعبويه، وأفلح، وكان من عــلمائهم فى مكــة عطاء بن رباح، ومن علمائهم فى مصر يزيد ابن حبيب مفتى مصر، والذى أخذ عنه الليث بن سعد[2] ومنهم مترجمون كزيد بن ثابت الأنصارى والــذى كان يترجم للنبى بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية[3]، وقيل إن منهم (جليبب) زوجه الرسول من أنصارية[4]، والتى حين أبت أمها أن تزوجها منه نزل قــول الله: ﴿وَمَــا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا﴾[5].

ثم بعد هذا رأيناهم إلى حد ما بعيداً عن المناصب الرئاسية، وبعيداً عن مهنة كــان لهــم دور مــن قبل فيها وهى مهنة القتال، فقد عادوا إلى المهن التى أصبح العــرب يترفعون عنها، ووقفوا وقفة خاصة عند الغناء الذى أصبح ملمحا حضارياً مــن ملامــح الحضــارة فى هذه الفترة المتقدمة، وكان أن نبغ منهم عدد كبير فى مقدمتهم ابن مسجح، وزرياب.

ذلك أن الأمويين اعتمدوا على العنصر العربى واحتكوا بالحضارة الرومانية فى الشــام، أمــا العباســيون فقد ركزوا على الفرس، ثم إن العرب لم يشاءوا رفع السيف على الحبشة تقديرا لصنيعها السابق مع المسلمين، وحذرا من إثارة ما بينها وبيــن جــنوب الجزيــرة من ثارات، وتفاديا لما يكون من إشرافها على اليمن كما يشــرف الســيف المسلط، ثم إن السودان إذا استثنينا المناوشات مع النوبة وإقرار

(١) جمهرة أنساب العرب ب ط ٣ ص٢٠٥.
(٢) رسائل الجاحظ ١٧٩ وما بعدها ، فجر الإسلام ١٥٣، ١٥٤.
(٣) التنبيه والأشراف ٢٤٦.
(٤) رسائل الجاحظ ١٨٠.
(٥) ٣٣ الأحزاب ٣٦. نزلت فى زينب بنت جحش الأسدية. صفوة البيان للمعانى القرآن.

المعـــاهدات، رئى أن يغزى من الداخل بالتجارة، والدعاة والهجرات.[1] بالإضافة إلى أن طـــبيعة المـــناطق فى الحبشة والسودان لم تكن فى سهولة المناطق التى تم اجتياحها ببساطة.

ومـــن كل هذا نصل إلى أن المسلمين لم يحتكوا بإفريقية وحضارتها احتكاكاً هامـــاً، وأنها ظلت إلى حد ما بعيدة عن الاهتمامات العربية الإسلامية وبخاصة فى الفقـــرات المـــبكرة.. ولهذا قل دور الرجل الأسود والاهتمام به فى بعض الفترات، وإن كان إهماله قد أدى إلى بعض الانفجارات على نحو ما سيأتى من ثورة الزنج، صـــحيح أن بعضـــاً كابن سيرين كان يرى أنه كلمة يا أسود كالغيبة ولكن مثل هذا حادث فردى لا يعتد به[2].

(جـ) إذا كانت الأمم فى الشرق من قديم قد آمنت بالسواد والبياض وربطت بيـــنهما وبيـــن ظواهـــر الطـــبيعة وطـــبيعة الحياة، فإن العرب قد سمت الشخص بالســـواد[3] وســـمت جماعـــة النخل والشجر السواد أيضاً لخضرتها، وجريا على عاداتهـــا فى عدم التمييز التام بين الأسود والأخضر، كما أنه أى السواد يطلق على كـــثرة من الناس لأن الإنسان حين يرى شخصاً أو مجموعة من الناس من بعيد.. فكأنه يرى طيفاً أسود[4].

وهـــم قد يشتقون من مادة هذا الفعل عدة أسماء لهم مثل: سوادة اليربوعى، ســـويد بـــن مشـــنوء، والأسود بن يعفر بن عبدالأسود، سواد ابن قارب، سودة بن عمارة.

---

(١) حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول - شكرى فيصل ١٢٩، ١٣٠.

(٢) حلبه الأولياء للحافظ الأصبهانى ٢/٢٦٨.

(٣) قال الأسود :

إن المنية والحتوف كلاهما يوفى المخارم يرقبان سوادى

.. وجمعه أسودة وأساود- .. سمط الآلى ١/٣٦٨ ، وقيل:

يغشون حتى ما تعر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

الأغانى ٢/١٩٦.

(٤) جاء فى الحديث "إذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم".

والأسـود : نـوع مـن الأفاعى شديد السواد، وقد استعاذ النبى عليه السلام مـنه، وقـد أطلق اسم الأسودين على الأسود بن عبدالمطلب بن أسد، والأسود بن يغـوث الزهرى، وكلنا من أعز قريش فى الجاهلية (وكانا يطوفان بالبيت متقلدين بسيفين) وقال رجل من قريش يرثيهما :

إذا مـا كـان أمـر فيـه لـبسٌ جـلا الطخيـاء عـنا الأسـودان[1]

وقـد يلقـبون بالـزنجى بن خالد وكان أبيض مشربا حمرة وهذا كما يقال للأبيض أبو الجون، وللحبشى أو البيضاء[2]، وكما يقال للزنجى أيضاً أبو البيضاء من باب التلمح[3].

ويلاحـظ أن لهـذا الـلون عدة مستويات، فهم يقولون الأسمر، والأصحم، والآدم، والأسـحم، والأدلـم، والأربد والجون قالوا: وكان ولد عبدالمطلب العشرة السادة دلما (الدلم جمع أدلم هو الشديد السواد)، ضخماً، نظر إليهم عامر بن الطفيل يطفـون كأنهم جمال جن، فقال بهؤلاء، تمنع السدانة. وقيل كان عبدالله بن عباس: أدلـم ضـخماً، وجـاء فى نهايـة الأرب: ومن ألوان الخيل الدهم وهى ستة. ثم عددها[4].

وقـد عقب الجاحظ[5] على القول بأن العرب تفخر بسواد اللون، بأنها حين تقـول، فـلان هجان، وأزهر، وأبيض، وأغر، فإنها لا تريد بهذا أبيضاض الجلد، وإنما تريد به كرم الجوهر ونقاوته، وقد فخرت (خضر محارب) بأنها سود[6].

وفى الحديث الذى روى عن النبى (أسودهم وأحمرهم سواء) إن الأسود هو العـربى، والأحمـر هـو غيـرهم، كما أن من أقوالهم ما يخفى ذلك على الأسود والأحمر، يريدون العربى والعجمى[7].

---

(١) الحيوان ١٦٢/٤، ١٦٣، المحتبر ١٧٤.
(٢) المعارف لابن قتيبة ٥٩٦.
(٣) مجلة مجمع اللغة العربية جـ١٧ ص٦٤.
(٤) ٦/١٠.
(٥) جاء فى معجم الأدباء ٨٤/١٦ أن جدّ الجاحظ كان أسود وقد كان الجاحظ يقول إذا طلب أحد رؤيته: وما تصنع بشق مائل، ولعاب سائل، ولون حائل.
(٦) رسائل الجاحظ ٢٠٧-٢٠٩ شعراء النصرانية ١٦/١، الأغانى ١٣٣/١١.
(٧) الكامل للمبرد ٢٧٤/١.

.. وقد كان مفهوم اللون الأسود عندهم هو الأخذ بالثأر حين يعتمون به[١] ثـم أصـبح فى عهد العباسيين شعاراً للدولة، وقد جاء فى فقه اللغة، وسر العربية للثعالبى[٢] تحت (فصل فى ترتيب السواد على الترتيب والقياس والتقريب) ما يأتى: أسـود وأسـحم، ثم جون وفاحم، ثم حالك وحانك ثم جلوك وسحكوك، ثم خدارى ودجوجى، ثم غربيب وغافى.

كمـا جاء تحت (فصل فى ترتيب سواد الإنسان) ما يأتى :- إذا علاه أدنى سـواد فهو أسمر، فإن زاد سواده مع صفرة تعلوه فهو أصحم، فإن زاد سواده على السمرة فهو آدم، فإن زاد على ذلك فهو أسحم، فإن اشتد سواده فهو أدلم.

وعـلى كل فنحن نراهم قد وقفوا وقفة طويلة عنده، والتقوا بالنظرة الحديثة إلى هـذا اللون والذى تقول إن اللون الأسود من الألوان التى لها "وزن" فالستائر ذات الـلون الأسود أثقل فى البصر من الستائر الزرقاء والبيضاء، كما أنه ليس من الألـوان المـريحة مثل اللون الأزرق، وعلى كل فقد قالوا، السواد أبداً أهول، وإن العرب لتصف الإبل فتقول الصهب سرع والحسر غزر، والسود بُهُىُ.

وقـالوا : ودهـم الخيل أبهى وأقوى، والبقر السود أحسن وأبهى، وجلودها أثمن وأنفع وأبقى، والحمر السود أثمن وأحسن وأقوى وسود الشاه أدسم ألباناً وأكثر زبداً.

وقيـل : كل شىء من الحيوان إذا أسود شعره أو جلده أو صوفه كان أقوى لبدنه، ولم تكن معرفته بالمحمودة.

وقيـل : كل جبل لوكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة وأشد يبوسة، والأسد الأسود لا يقوم له شىء.

وقيـل : ليس من التمر شىء أحلى حلاوة من الأسود، ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر.. والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجزوع.

---

(١) الأغانى ١٠٤/٩.
(٢) ص١٣٠ (وقد جاء فى كتب اللغة عند ذكر كلمة "مخضرم" أنها تطلق على الأسود إذا كان أبوه أبيض

وقالوا : وليس لون أرسخ فى جوهره، وأثبت فى حسنة من سواد[1].

.. كما يقال للعنب الأسود إذا لأن وهمَّ أنْ يطيب "قد أوشم" ولا يقال للعنب الأبيض "أوشم" لأن يحدث لوناً سوى لونه[2].

وقد جعلوا بعض الفصول فى كتبهم تحت عنوان "الخضاب".

وقد أورد الجاحظ شعراً فى مدح السواد، وشعراً فيه مدح بلون الغراب[3].

ونحن لا ننسى هنا تلك الوقفة التى وقفها الآمدى حين تعرض لبيت البحترى.

واخضرَّ موشىُ البرود وقدْ بدا ... منهنّ ديباجُ الخدود المذْهب

فقد قال ".. ذكر الخضرة لأنه لم يجد لوناً غيرها، ذلك لأن البياض ليس مما توصف به ثياب النساء، والسواد ثياب الحزن والمصائب، وقد جعل حدودهن ديباجاً مذهبا، والذهب يشتمل على لون الحمرة والصفرة والتوريد هو من ألوان الخد، والكحلى لا يلفظ به، والعرب لا تذكره فى الألوان، وكذلك الأزرق لاتستعمله إلا فى صفة الماء والصبح، ويقولون عدو أزرق أى حديد النظر، وسنان أزرق أى حديده، ولم يبق من الألوان ما يخالف لون الخدود المذهبة كما قال إلا الخضرة[4].

وفى الوقت نفسه لا ننسى القول بأن تأثير الألوان ليس مجرد تأثير حسى بل هو تأثير عاطفى أيضاً.

وإذا كان قد ورد اسم (حبشت) فى النقوش اليمنية القديمة، فإنهم قالوا أيضاً الحبش، والحبشان، والحبوش، والأحباش كما كانوا يطلقون كلمة السود أو السودان على ما يشمل الأحباش أيضاً[5].

---

(١) رسائل الجاحظ ٢٠٣-٢٠٦، الحيوان ٧٩/٢.
(٢) لسان العرب (وشم).
(٣) العقد الفريد ١٨٥/٣ ط مكتبة صادر، الحيوان ٤٢٦/٣/ ٤٢٩.
(٤) الموازنة ٩٦/٢، ٩٧.
(٥) بين العرب والحبشة ١٢، زريات ١٢.

وقد تطلق كلمة (الأساود) على أهل النوبة[1]، فقد قالوا: ليس بيننا وبين الأساود عهد ولا ميثاق، إنما هدنة بيننا وبينهم، وكان هذا تعليقاً على المعاهدة مع النوبة بعد أن فتح المسلمون مصر.

ومن أقوالهم فى هذا أنه لا يقال للزنج والحبشة والنوبة بيض ولا حمر وليس لهم اسم إلا السواد[2].

وقد وردت كلمة (السودان) بمعنى اللون كما فى حديث ابن خلدون فى المقدمة عن (السودان والبيضان)، وكما فى إحدى رسائل الجاحظ المسماة (تفضيل السودان على البيضان، وباسم السودان سميت قرية باصبهان فى إيران، كما أن مصر موضع يسمى (منية السودان)[3].

وقد جرى حوار من فترة بين الصحف السودانية وجريدة الجمهورية المصرية[4]، نعقب ما أثاره السيد خليفة المنتصر من أن لفظ السودان مشتق من السيادة لا من السواد، مستشهداً على ما يقول بقول حارث بن خالد المخزومى.

فضَحتّم قريشاً بالفرار.. وأنتمُ قُمّدون سُودانُ عظام المناكب

وقد انتهى الحوار إلى أن كلمة السودان لم تسمع فى فصيح العربية بهذا الجمع إلا جمعاً لأسود من اللون، ويحضرنا هنا ما جاء فى مقدمة ابن خلدون (الحبشة والزنج والسودان أسماء مترادفة على الأمم المتغيرة بالسواد)[5]، وقال الألوسى عنهم فى بلوغ الأرب: إنهم من أتم الناس عقولاً وأعلاماً وألسنة والهاماً[6]، كما أن ابن رشيق كان يرى أنهم أفضل الأمم، كما يحضرنا أن الأخطل

---

(١) فتوح البلدان ٣٣٦.

(٢) رسائل الجاحظ ٢١٠.

(٣) الجغرافيون مثل البلازوى فى فتوح البلدان سموا جنوب مصر بلاد النوبة، وما بعده سمى بر السودان وبلاد السودان: والقلقشندى فى صبح الأعشى يذكر أن المملكة السادسة من ممالك السودان مملكة الحبشة، وقد كان جرير يذكر أثر الحدادة فى آبار الفرزدق ويركز على ما تحدثه من سواد.

لما رأى صدأ الحديد يجلوه فاللون أورق والبنان قصار

(٤) عدد الاثنين ٢٠ مايو ١٩٦٨.

(٥) المقدمة بتحقيق د. على عبدالواحد وافى ٤٩٠/١.

(٦) ١٤٤/١.

يشبه الزقاق إذا امتلأت برجال من السودان لم يتسربلوا[1]، وهناك من وصف عصا أرسلت إلى شجرة بقوله مجيزاً الشطر الأول.

كأنهـا فـوق العصـا هامـة زنـجى عصـى[2]

وقد وقف الشعراء وقفة طويلة عند الأنثى السوداء، فلنتأمل الدوافع وراء هذا فالفرزدق يقول[3].

يـا رب خـود مـن بـناتِ الزنج تحمـلُ تـنورا شـديد الوهـج
أقعـب مـثل القـدح الخلـنج يـزداد طيـباً عـند طـول الهرج

".........".

وأبو الفتح بن قلاقس يقول :

رب سـوداء وهى بيضـاءُ معنى فـهْى مسـكٌ إن شـئْتَ أو كافورُ
مـثل حَـبِّ العيـون تحسـبه النا سُ سـواداً.. وإنمـا هـو نـور!

ويقول الحافظ أبو الحسن بن المفضل القدسى :

وسـوداء قـد أحللتها من حشاشتى محـل سـوادى ناظـرى وجـنانى
إذا رمـت عنها سلوة قادنى الهوى إليهـا .. ومـالى بالسـلوّيدان
ومـا هى إلا المسـك لونـاً وقيمة ونشـرا وزادت عـنه بالـلمعان
وأحببـتها حـبّ الشـباب لأنـنى رأيـتهما فى العيـن يُشـتهيان

ويقول أبو الحسن بن أبى الفتح البكرى :

يـا مـن فـؤادى فيهـا مـتيماً لا يـزال
إن كـان لـليل بـدر فـأنت للصـبح خـال

---

(١) الأغانى ٦٣/١١.
(٢) قال المعتمد بن عباد الشطر الأول فى نزهة له: وكان المجيز ابن جامع الصباغ.
(٣) الأغانى ٣٢٠/٢٣.

وقال بهاء الدين أبو الحسن على بن محمد بن رستم الساعاتى :

زعمـــوا أنـــنى بجهـــل تعشـــقت ... ســـوداء دون بيـــض الْغَـــوانى
ليـــس معـــنى الجمـــالِ فيك بخافٍ ... إنمـــا أنـــت خـــالُ خَـــدِّ الـــزمان

وقال إبراهيم بن سيابة وقد عشق سوداء، فلامه أهلها عليها:

يكـــون الخـــالُ فى وجـــه قـــبيح ... فيكســـوهُ الملاحـــةَ والجمـــالا
فكيـــف يـــلام فى عشـــق على من ... يـــراها كـــلها فى العيـــن خـــالا

وقال الشيخ برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبرى المقرى شارح الشاطبية:

لمـــا أعـــان الله جـــلّ بـــلطفه ... لـــم تســـبنى بجمالهـــا البيضـــاءُ
ووقعـــت فى شَـــرَك الردى متحيلا ... وتحكمـــت فى مهجـــتى الســـوداء

وقال العسكرى :

صرفتُ ودّى إلى السودان من هَجَرٍ ... ولا الـــتفتُ إلى روم ولا خَـــزَرِ!
أصبحت أعشق من وجه ومن بدن ... ما يعشق الناسُ من عين ومن شعر
فـــإن حســـبت ســـواد الخد منقصة ... فانظـــر إلى ســـعفةٍ فى وجنة القمر

وقال يعقوب بن رافع[1] :

أحـــب النساء السود من أجل تكتم ... ومـــن أجـــلها أحببت من كان أسودا
فجئـــنى بمـــثل المسك أطيب نكهة ... وَجِئْـــنِى بمـــثل الـــليل أطيب مرقدا

وقال الشريف الرضى :

أحـــبك يـــا لـــون الشـــباب فإننى ... رأيـــتكما فى العيـــن والقـــلب توأما
ســـواد يـــود الـــبدرُ لو كان رقعة ... بجبهـــته. أو شـــق فى وجهـــه فمَا
ســـكنت ســـواد القلب إذ كنت مثله ... فـــلم أدر مـــن عز من القلب منكما

---

(١) قيل للعباس بن الأحنف.

ومـا كـان سهمُ العين لولا سواده	ليبـلغ حـبات القـلوب إذا رمى
إذا عشـق الظـبى الـلمىُّ فلا تلم	جـنونى على الظبى الذى كله لمى

وله أبيات أخرى مماثلة[1].

وقال بشار :

يكـون الخـال فى خـد مـليح	فيكسـوُه الملاحـةَ والجمـالا
ويونُقـه لأعيـن مبصـريه	فكيـف إذا رأيـت الـلون خـالا

ومثل هذه النغمة نجدها عند عبدالمحسن الصورى[2].

.. وهـناك شعر كثير جداً فى كتاب (نزهة العمر) الذى مر بنا ذكره، وإن كـان الملاحظ بصفة عامة على الشعر الذى من هذا النوع أنه يدور حول التسويغ لـلون الأسود، والاعتذار له أو عنه، كما أنه يعتمد على المقابلة بينه وبين الأبيض، وفى الوقت نفسه يعتمد على الصور الحسية المباشرة، وعلى الأبيات القليلة باستثناء قصـيدة ابـن الرومى التى مر ذكرها آنفا.. فهم يلتمسون العذر له بالحجر الأسود، وبالخـال، وبحبات القلوب والعيون وهم يقفون وقفة طويلة عند العيون الدعج (أى الواسـعة الشديدة السواد القائمة الهدب، والصافية الحدقة والتى تبدو وكأن فيها أثر الـنعاس، وبقيـة مـن حلم.. ومهما يكن من شىء فكثيراً ما يكون هذا الالتماس متعسفاً، وبعيداً عن نضارة الشعر.

(د) وهناك إلى جانب عشق السواد والإعجاب به يوجد جانب آخر ممثلاً فى الحيـاة العـربية لـم يتعاطف مع هذا اللون على نحو ما سنرى. فقد كانت مذاهب العـرب مختـلفة فى "وأد البـنات" فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحـوق العار من ورائهن، ومنهم من كان يئد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء (سـوداء) أو برشـاء (برصاء) أو كسحاء (عرجاء) تشاؤماً منهن بهذه الصفات[3] بالإضافة إلى الضيق بالفقر الواقع أو الفقر المتوقع، ولنتأمل قول المغيرة بن زرار

---

(١) ديوان ١/٥٦٤.

(٢) خاص الخاص للثعالبي ٢٠٤ ط بيروت.

(٣) انظر بلوغ الأرب فى أحوال العرب للألوسى، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن الندوى ٦٠.

وهــو يحاج يزدجرد[1] "وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل من طعامــنا" ومــن المعروف أن السواد عند الصوفية له صلة بالدمامة الروحية، وقد يشبهون أحياناً المرأة السوداء بالضحك[2].

وقــد كــانت كلمة الغراب وكلمة الأسود تنطلق كالشرر فى حالات التوتر، عــلى نحــو ما مر بنا من أمر "بلال" وعلى نحو ما عرف من أن عمار بن ياسر حيــن حمل صحيفة متذمرة إلى عثمان، قال وزيره مروان بن الحكم: إن هذا العبد الأســود قــد جرأ عليك الناس، وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه، وهناك سخرية صاحبة عبدالرحمن بن ملجم من أبيات لكثير، فقد قالت له: إنها لا تليق إلا بزنجية، كمــا أن هــناك سخرية النوار من الفرزدق فقد قالت له: أتتزوج أعرابية نصرانية سوداء مهزولة خمشاء[3].

وقد قيل : إنه جاء أسود وسوداء إلى أبى مهدية فقالا له : قد أردنا التزوج فــاخطب لنا، فقال: إن الله أجل من أن يذكر بينكما، فاذهبا فاصطكا لعنكما الله[4]، وقريب من هذا قول الشاعر محمد وهيب: جلست بالبصرة إلى عطار، فإذا أعرابية ســوداء قــد جــاءت فاشترت من العطار خلوفا، فقلت: نجدها اشترته لابنتها، وما ابنتها إلا خنفساء، فالتفت إلى متضاحكة. ثم قالت:

ولا والله، ولكــن مهاة جيداء، إذا قامت فَنَاة، وإذا قعدت فحصاة، وإذا مشت فقطاة، أسلفها كثيب، وأعلاها قضيب لا كفتياتكم

اللواتى تسمنوهن بالفتوت

ثم انصرفت وهى تقول :

إن الفــتوتَ للفــتاة مضــرطهْ يكــربُها فى الــبَطن حــتى تِثلطهْ[5]

---

(1) الطبرى ٣/٠٠ ط دار المعارف.

(2) الرسالة القشيرية ٧٢٨/٢.

(3) المحاسن والأضداد للجاحظ ١٣٩ (الخانجي): عبقرية الإمام على للعقاد ٧١، الأغانى ٣١٤/٢٣

(4) أخبار البحترى للصولى. تحقيق صالح الاشترط ٢ ص١٤٥.

(5) الأغانى ٨٣/١٩ : فت الشيء: دقة وكسره فهو مفتوت.

وهناك شعر كثير في إدمانهم الشراب قاله أسود بن أبى كريمة:

وقد قال أبو عبيدة : سألت بعض بنى كليب فقلت :

ما أشد ما هجيتم به؟

قال : قول البعيث

ألستَ كُليبيا إذا سيم خُطَّة أقرّ كإقْرار الحليلة للبعْل

.. سواسية سود الوجوه كأنّهم ظرابيّ غِرْبانٍ بمجرودة مَحْل[1]

وقد اهتم الكتاب بهذا النوع من الغضب الذى كان يحدث بسبب اللون: ومن هذا أن شدادا الحارثى – وكان خطيباً عالما – قال لأمة سوداء بالبادية: لمن أنت يا سوداء.

قالت : لسيد الحضر يا أصلع.

قلت : أو لست سوداء؟

قالت : أو لست أصلع؟

قلت : ما أغضبك من الحق؟

قالت : الحق أغضبك، لا تشتم حتى ترهب، ولأن تتركه أمثل[2].

وقيل كانت دنانير بنت كعبوبة الزنجى عند أعشى سليم، وكانت شديدة السواد، فرآها يوماً وقد خضبت يديها بالحناء، واكتحلت بالأثمد، فقال:

تخضبُ كفا بُتكَتْ من زندها فتخضبُ الحناءُ من مسودّها

كأنها والكحُل فى مرودِّها تكحلُ عينيها ببعض جِلْدها

فلما سمعت ذلك قالت :

وأقبحُ من لونى سواد عجانِه على بشر كالقلب أو هو أنصع[1]

(١) البيان والتبيين ١٤٢/١، الشعر والشعراء ابن قتيبة ٤٧٢.

(٢) رسائل الجاحظ ١٩٧.

قسموه أسود، وصاح به الصبيان فطلقها، وقيل إنه قال لها صبيحة عرسها: إن الدنانير تكون سوداء، فما كان منها إلا أن قالت:

بيـاض الـرأس أقبح من سوادى   وشـيب الحاجـبين هـو الفَضُـوح

فامسك عنها حينا، ثم عاودها، فلما فضحته طلقها[٢] وقد سئل ثوبان الراهب عـن لبس النصارى للسواد، فقال: هو أشبه بلباس أهل المصائب فلما قيل لـه: كلكم معشر الرهبان قد أصيب بمصيبة قال:

يـرحمك الله، وأى مصيبة أعظم من مصائب الذنوب على أهلها[٣] وقد قالت امرأة لبشار: أى رجل أنت لو كنت أسود اللحية والرأس، فقال: أما علمت أن بيض الـبزاة أثمـن مـن سود الغربان فقالت: أما قولك فحسن فى السمع، ومن لك بأن يحسن شيبك فى العين كما حسن قولك فى السمع![٤].

أما مفهوم هذا اللون عند الشعوبيين فاعتقد أنه كان يقصد به الزراية، على نحو ما نعرف من أن الإيرانيين المجوس كانوا يسمون الإسلام فى العصر العباسى الدين الأسود، وإذا كان الدكتور عبدالعزيز الدروى يرى أن السر وراء هذا هو أن شعار العباسيين كان السوداء[٥] فكيف تفسر تلك الرسالة التى من أخى الأفشين إلى أخى المازيـار والـتى جـاء فيهـا "إنــه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض (يقصد المجوسـية) غيـرى وغيـرك وغير بابك (الخرمى)[٦] ولقد دخل السواد فى باب المـزايدات السياسـية "حيـن أصبح شعار العباسيين على نحو ما عرف من تلك الحواريات التى دارت بين الرشيد، وبين القاضى أبى يوسف، والأوزاعى[٧].

---

(١) البشر : جمع بشرة وهو ظاهر الجلد، والقلب: جمار النخلة.

(٢) رسائل الجاحظ ، ٢١٤.

(٣) عيون الأخبار ٢٩٧/٢.

(٤) الأغانى ٢٠١/٣.

(٥) الجذور التاريخية للشعوبية ٧٦.

(٦) الطبرى ٣٦٧/١٠.

(٧) نهاية الأرب ١١/٤.

وعلى كل فهم يقولون: هو أسود الكبد وهم سود الأكباد، يعنون الأعداء، ويقال: سويداء قلبه وحبه قلبه، وسواه قلبه، وسوادة قلبه وجلجلان قلبه، وأسود قلبه، وسوداء قلبه بمعنى[1].

ويقولون "سوداء العروس":

ويقصدون بها جارية سوداء تبرز أمام العروس الحسناء، وتوقف بإزائها وتقتفى أثرها، لتكون أظهر لمحاسنها.

فأحسن مرأىً للكواكبِ أن تُرى   طوالعَ فى داجٍ من الليل غيهب

والشيء يظهر حسنه الضد.

ولتكون كالعوذة لجمالها، وإياها عنى أبو إسحق الصابى بقوله فى غلام حسن الوجه بيده نبيذ أسود.

بنفسى مقبل يهدى فتونا   إلى الشَّرْب الكرام بحسْنِ قَدّه
وفى يده من التَّمرى كأسٌ   كسوداءِ العروس أمام خده[2]

ويقولون كذلك "عبد العين" ويقصدون الذى يخدمك ما دامت عينك تراه، قال الشاعر:

ومولى كعبد العين، أما لقاؤُه   فيُرضى، أما غيبة فظنون

قال الجاحظ ، ويقال للمرائى[3].

وهناك من الشعراء من سخر من اللون الأسود مثل كعب الأشقرى، وكحسان بن ثابت حين هجا هنداً بقوله :

غلبت على شبه الغلام وقد   بان السواد لحالكٍ جعْد

(١) جمهرة الأمثال للعسكرى ٢٠٩، مجالس ثعلب ١٣.
(٢) ثمار القلوب ٣١٩، ٣٢٠.
(٣) نفسه ٣٢٩.

وقــد كــان يعــنى بهذا عتبة بن أبى سفيان فقد كان شديد الأدمة[1]، وكانت حمامــة جدة لأبى سفيان من قبل أمة سوداء، وقد اهتم جرير بذكر الآثار السوداء الــتى تحدثهــا الحــدادة فى آبــاء الفرزدق[2]، كما نرى هذا فى مثل قول الشاعر المصرى ابن قادوس :

أهــون بــلون الســواد لونــا ... مــا فيــه مــن حجــة لناســب

لســت تــرى حمــرةً لخــذ ... فيــه .. ولا خضــرة لشــارب[3]

وهــناك من مدح السوداوات ثم عاد فهجاهن كأبى حيان[4] وهناك من كان حذراً فلم يفضل سواداً على بياض أو بياضاً على سواد.

فالبهاء زهير يقول :

اســمع مقالــةَ حــقٍ ... وكــن بحُقــك عــونى

إن المــليحَ مــليح ... يُحــبُّ فى كــل لــون

ويقول الصاحب جمال الدين يحى بن عيسى بن مطروح:

وإذا أنصــفت والأنصــاف بالعاقل أليق

فــبديع الحسن يهوى كيفما كان.. ويُعشق

ويقول شرف الدين صالح بن جعفر بن معاوية :

أنــا ذاك فاســأل إنــنى مذ لم أزل ... بالــبيض والســمر الحســان معذّبا

كــلفاً بهــن مولّعــا لا أبــتغى ... عــن مُذْهبات النسك يوماً مذهباً[5]

(١) الأغانى ٣٨٩/١٤، رسالة دكتوراه مخطوطة للدكتور سيد حنفى حسين ٢٧٥.
(٢) النقائض ٨٥٢.
(٣) فريدة القصر ٣٣/١.
(٤) فن التشبيه ٢٣٥/١ : ٢٣٦ : ديوان أبى حيان الأندلسى تحقيق د. أحمد مطلوب د. خديجة الحديثى ٦٤ وما بعدها.
(٥) نزهة العمر ص ٦١

والملاحظ هنا أن الشعراء اهتموا بالمرأة ، أكثر من اهتمامهم بالمشكلة، وإن هـذا الاهتمام كان لا يتعدى المفارقات اللفظية، وكان يدور فى الغالب حول الأنثى "العشـيقة" فـإذا بعدوا عن المرأة كان كلامهم لا يخرج عن كونه نوعاً من النكت اللفظية، كقول الإمام زين الدين عمر بن الوردى :

لـو كـان يرضَـى بحكـمى	فى الحسـن سـودُ وبيـض
لقـلتُ للسـود سـودوا	وقـلت للـبيض بيضـوا[1]

مـن كل هذا نرى تعاطفا على اللون الأسود وما يمثله هذا اللون[2] وإن كان هـذا لـم يمـنع من وجود نبرة ضد السواد ولكنها ليست زاعقة، ومن هذا أن ابن المرزبان حين ألف كتاب "السودان وفضلهم على البيضان" كان هناك من سخر منه مـثل جـلال الديـن أبى الفضل عبدالرحمن السيوطى، فإنه فى كتابه زهرة العمر يقـول: "ولا أستكثر هذا عليه، فإنه ألف كتاب تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الـثياب، فـإذا فضـل الكلاب على بنى آدم لم يكثر عليه أن يفضل السودان على البياض".

وقد جاء فى كتابه هذا[3] أن الحافظ المنذرى فى تاريخه قال: تنازع رجلان فى فضـائل البيض والسود، فألف أبو العباس الناشئ رسالة فى تفضيل السود على البيض، ثم يرد عليه بقوله: "وهذا عندى أيضاً يشابه الذى عمل مفاخرة بين الذهب والزجاج".

وهناك من نظر بموضوعية للمرأة السوداء، وقد لخص هذا أبو حيان ، فبعد أن مدح السوداوات وقال :

لـنا غرام شديد فى هوى السود نختارهن على بيض الطلى العين نراه يقلب لهن ظهر المجن ويقول :

(١) المصدر السابق نفسه ص٥١.
(٢) تنبه لهذا البلاغيون، ووضعوه تحت باب تحسين المشبه وهو تحسين شيء تختلف فيه أهواء النفوس كسواء النساء وطولن. فن التشبيه ١/٢٢٤.
(٣) المصدر السابق نفسه ص٢.

إذا مـــال الفـــتى للســـود يومـــاً فـــلا رأى لديـــه ولا رشـــاد
أتهـــوى خنفســـاء كـــان زفـــتا كســـا جـــلداً لهـــا وهـــو الســـواد
ومـــا الســـوداء إلا قـــدر فـــرن وكـــانوا وفحـــم أو مـــداد
وجـــوه المؤمـــنين لهـــا ابيضاض ووجـــه الكافـــرين بـــه اســـوداد[1]

.. وعـــلى الـــرغم من هذا فالملاحظ أن كان هناك تعاطف نحو السود بعد مجيء الإسلام.

وهـــذا كله كان يمكن أن يؤخذ على سبيل الفاكهة، أو تنشيط حركة التأليف، أو الأخـــذ بأســـاليب المفاخـــرة، وهى عادة يغذيها دائماً الإنسان العربى، ولكنها لم تستطيع بحسم أن تكون كراهية وعداء للسود، وبخاصة بعد أن جاء الإسلام، فنحن لا نجـــد عـــندهم مثلاً ما يوجد عند قطاع كبير من الإنجليز، حيث ترتبط الأفكار الغامضـــة عـــن الوحشـــية عندهم باللون الأسود، وحيث وجد أن بعض المرضى بعقولهـــم كـــانوا يرون فى أحلامهم أن إنساناً أسود دائماً يحرضهم على فعل ما لا يرغبون فيه، بحيث يعتقد الناس فى شمال أوربا أن الشيطان أسود، وأن روح الشر ســـوداء "وفى جميـــع استعاراتنا وتشبيهاتنا يعبر اللون الأبيض عن البراءة والنقاء بينما يرتبط اللون الأسود بالخوف والشيطان.. والجلد الأسود فى نظر هؤلاء الذين تقع عليه أبصارهم لأول مرة يعتبر بمثابة قذارة وعملية تبرز" [2].

(هـــ) ومـــا دمـــنا تكلمـــنا على اللون الأسود فلابد من انعطافه إلى اللون الأخضـــر، ذلك لأن العرب لم تفرق تماماً بين اللونين[3]، فالسود عند العرب ابتداء الخضر كما قال الشماخ:

---

(١) فن التشبيه ٢٣٥/١، ٢٣٦.
(٢) فكرة صائبة عن الأجناس والعنصرية ٦٧.
(٣) الأخضـــر من الألوان التى تسمى باردة بعكس الألوان الحامية كالاحمرار مثلاً ويقال إنه لون الإنسان المتحفظ والمنزوى والذى يفكر أكثر مما يفعل.
ومن أقوال الجاحظ فى هذا: وأصل الخضرة إنما هو لون من الريحان والبقول، ثم جعلوا بعد الحديد أخضر والسماء خضراء، حتى سموا بذلك الكحل واللون، وقد قيل فى قوله تعالى "مدهامتان" : خضروان من الرى سوداوان، ويقال إن العراق إنما سمى سواداً بلون السعف فى النخل ومائه. (الحيوان ٢٤٦/٣)

ورُحْــنَ رواحاً من زرودَ فنازعت زبالــةَ جلــباباً مــن الــليل أخضرا

وقال الراجز :

حتى انتضانى الصبحُ من ليل خضر مــثل انتضــاء البطل السيفَ الذكر

وهم يسمون الحديد أخضر لأنه صلب، لأن الأخضر أسود، قال الحارث بن حلزة:

فهزمــنا جمــعَ ابــن أم قطــام ولــــه فارســــية خضــــراء

وقال المحاربى مفتخراً :

فى خضر قيس نمانى كلُّ ذى فخر صــعب المقــادة آبى الضيم شعشاع

وقال الفضل بن العباس اللهبى :

وأنـــا الأخضــرُ مــن يعرفــنى أخضــرُ الجــلد فى بيــت العــرب

وقال الغساتى :

إن الخضــارمة الخضر الذين ودوا أهــل الــبريص نمــانى منهم الحكم

وقال حسان بن ثابت :

أو فى السرارة من تيم رضيتُ بهم أو من بنى خلف الخضرِ الجلاعيد[1]

وإذا قالوا فلانُ أخضر القفا: فإنما يعنون به أنه قد ولدته سوداء[2].

وعــلى كل فقد لعب هذان اللونان دوراً فى الحياة السياسية بعد ذلك، وقامت من تحتهما سيوف ووجهات نظر فى الحياة، وبخاصة بعد أن تحدد اللون الأخضر فى ظــل الحضــارة المترفة الجديدة، وأصبح لا يخلط بينه وبين الأسود. والتاريخ يحدثــنا[3]. أن الفضل بن سهل وزير المأمون أخذ عليه عهداً أن يبايع بولاية العهد

---

(١) رسائل الجاحظ ٢٠٧-٢٠٩ ، الكامل للمبرد ١٤٦/١-١٤٨، ديوان حساً ١٣٤ ط التجارية.
(٢) الحيوان ٢٤٨/٣.
(٣) الوزراء والكتاب ٣٠٦ وما بعدها، الصراع الأدبى بين العرب والعجم٦٨، ٦٩.

بعده "لعلى الرضا" وأن يطرح السواد شعار بن العباس، مستبدلاً به الخضرة شعار العلويين، وكل هذا فى مقابل الانتصار له على الأمين، وممن فطنوا لذلك نعيم بن حازم الذى قال: "إنما نريد أن تزيل عن بنى العباس إلى ولد على ثم تحتال عليه، ثم تصير الملك كسرويا"، ومع هذا قام المأمون بتنفيذ ما رآه الفضل بن سهل، ولكن حين وقف على أرض جديدة صلبة أسقط عليها رأس الوزير، ورفع عليها وعلى الدماء اللون الأسود.

من كل هذا نصل إلى أن العرب لم ينظروا نظرة عداء سافر إلى أصحاب اللون الأسود إلا فى مراحل الاحتكاك بهم فى الجنوب، وفى الشمال كذلك، ولكن بعد أن جاء الإسلام تغيرت هذه النظرة تماماً، وأصبحت كلمة العبد لا تخص الإنسان الأسود وإما تخص كل إنسان وقع فى الأسر، أو حكم عليه بالبيع والشراء، أو كان مجهول النسب، والعقاد يعلل لهذا فيقول: فقد غلبت على بعض العرب سمرة تضرب شديداً إلى السود، ونحن لا ننسى قصة معاوية مع "دارمية الحجوية" وكانت سوداء فقد قال لها : ما حالك يا ابنة حام؟ فقالت : لست لحام إ عبتنى أنا امرأة من بنى كنانة[1].

وقد كان من سادتهم من وصف بحلكة اللون، وشابه الزنج بالإهاب الخشن والبشرة الفاحمة.. وعاشوا ثمة وهم يحسون مكان جيرانهم ويحس جيرانهم مكانهم، فوجدت بينهم أسباب المفاخرة ولم توجد بينهم أسباب العداء واللدد[2].

ونحن وإن كنا نوافق على أنه كان يزدرى بالعبد الأسود لعلة اجتماعية كأن يكون مجهول النسب، إلا أننا نرى أنه كان يزدرى به لعلة عنصرية قبل مجيء الإسلام، وبخاصة فى تلك الفترات التى كان يهدد بها الأحباش الجزيرة العربية فى الجنوب وفى الشمال، على نحو ما مر بنا من الاستشهادات، أما القول بأنهم عاشوا يحسون مكان جيرانهم، ويحس جيرانهم مكانهم، وأن ما بينهم وبين جيرانهم كان مفاخرة لا عداء ولدداً، فنحن نستثنى منه كذلك الأحباش، ولا نوافق على التعميم فى هذا، فالمفاخرة كانت بينهم وبين أنفسهم، بل إنهم حين بعد بهم العهد بالإسلام

---

(١) العقد الفريد ١١٣/٢ (لجنة التأليف والترجمة والنشر).
(٢) داعى السماء ٦٥-٦٨.

وصلوا بالمفاخرة إلى حد العداء واللدد، ونحن نعرف العديد من القصص التى تدل على هذا[١].

كما نعرف القصائد المعروفة بالنزاريات فى مقابل القصائد المعروفة بالقحطانيات، ونعرف القصائد المعروفة "بالدوامغ"[٢].

وقريب من هذا تلك القضية التى شغلت الناس فى مصر فترة كبيرة والتى تسمى قضية أهل الحرس، وقصتها أن جماعة من أهل هذه البلدة قد ذكروا أن لهم نسبا عربياً قديما، وأنهم يرغبون فى إثبات ذلك، وقد اشترك فيها الشعراء يحيى الخولانى، وطاهر القيسى، والمعلى[٣].

فالدّوامغ، والنقائض فى الشعر العربى تعتبر امتداداً لبعض الوراثات فى الجاهلية، كما تعتبر صراعاً بين عالم البداوة المنعزل والحضارة التى تزحف على أكثر من اتجاه، ونحن نرى أنه فى حالات الضعف، وفى حالات التصارع السياسى، كان يزدهر فن الدوامغ وفن النقائض[٤]، كماكان يزدهر ما يسمى "بشجرة النسب" التى لا يمكن أن توصلنا إلى نمط عربى نقى "كنمير. الماء" ذلك لأنها لا تتعرض إلا لسلسلة الآباء، أما الأمهات فتسكت عنهن، كما ظهرت الدقة فى المصطلحات، فمن أمثالهم أو شم البرق، ويقال للعنب الأسود إذا لان وهمَّ أن يطيب قد أوشم، ولا يقال للعنب الأبيض أو شم، لأنه لا يحدث لوناً سوى لونه[٥].

(١) قصة الأدب فى اليمن ١٢٤، ١٤٥، حماسة أبى تمام ٥١.
(٢) مخطوط الدوامغ بدار الكتب تحت رقم ٧٠٩ أدب.
(٣) قصة الأدب فى اليمن ٩٧-١٠٠.
(٤) يلحق بهذا ما يعرف بالمفاخرة والمنافرة.
(٥) لسان العرب (وشم).

سابعاً : ما مدى اندماجهم في الحياة العربية ؟..

نعـــتقد أن الإنسان الأسود بعد عهد الخلفاء الراشدين قد قل الاهتمام به، وقد مـــر بنا أن عدداً منهم انسحب من حركة الحياة، إما بالهجرة عند الدوائر التى فيها الضوء، وإما بالإقبال المفرط على العبادة.

فالصـــلة بالإنسان الأسود بعد ذلك كانت قائمة على أساس أنه يقوم بنوع من الـــترفيه داخـــل الحياة الريانة الجديدة، وفى إطارات بعينها لا يستطيع كسرها لأن المجتمع من حوله يحاصره، ويضيق الفرص أمامه.

فالمجتمع فى عهد الأمويين كان يعمل على تأكيد النقاء العربى.

وقـــد روى أن الزبير قتل رجلاً شديد الحمرة، وأن المختار الثقفى قتل رجلاً شديد السواد، وحين هدأت الحرب قال المختار الثقفى :

تعـــلم والله إنى لأظـــن قتيليـــنا هذيـــن عبدين، ولو أن هذين قتلانا لفجع بنا عشـــائرنا! ومن يرجونا، وما هذان وكلبان من الكلاب عندى إلا سواء، وما أخرج بعـــد يومى هذا إلا الرجل أعرفه! فقال له ابن الزبير وأنا والله لا أخرج إلا لرجل أعرفه(١).

ثم إنه كان يمكن أن يكون لهم دور حاسم فى إقامة الدولة العباسية وبخاصة حيـــن نعرف كما مر بنا أن أبا مسلم الخراسانى كون منهم فرقة كبيرة فى جيشه، ولكـــن قوتهـــم الحقيقية ذهبت فى المجزرة التى قامت بالموصل، فقد قالت امرأة عربية لمحمد بن صول:

أما نأنف للعربيات المسلمات أن ينكحهن الزنوج؟

فمـــا كـــان منه فى الغد إلا أن أحصاهم عدا فوجدهم أربعة آلاف، وكان أن أمر بقتلهم جميعاً بسيوف الخراسانية(٢).

---

(١) الطبرى ٥٧٧/٥.
(٢) ابن الأثير ٣٠٥/٤ وما بعدها، أبو الفدا ١٣٦/٢.

ونعرف إلى جانب هذا أنهم اشتركوا فى غزوات موسى بن نصير بصفة خاصة، فقد كان يقدمهم بين يديه "للفتح والغارة" ومن هنا نراهم يوجدون إلى جانب العرب والبربر فى الشمال الأفريقى.. ثم فى الأندلس[1].

ومن المعروف أن أبا جعفر المنصور استخلف على أرمينية عام ١٣٧هـ رضيعة يحيى بن مسلم بن عروة "وكان أسود مولى لهم"[2].

وقد ثبت أنه فى القرن الرابع الهجرى قام خلاف شديد بين أهل السنة والشيعة من الجنود فى مصر، وكان يمثل أهل السنة السودان والترك، وقد طاف أحد السودان المتهيجين بالطرقات وهو يصيح "معاوية خال على" فتبعه العامة.. وأصبحت هذه القولة هى صيحة أهل السنة بمصر حين يريدون قتال الشيعة[3].

ومن المعروف أن الحاكم بأمر الله قرب "عينا" خادمه الأسود، ثم نقم عليه فقطع يمناه، ثم عاد ولقبه "قائد القواد وأستاذ الأستاذين" ولكنه عاد فتنكر له، وقطع لسانه، ثم أخيراً أرضاه[4].

ودور كافور الأخشيد جهير فى مصر.

ومن المعروف أنه كان رئيس المتآمرين على مؤنس المظفر خادمه الأسود المسمى "مفلح"[5].

ومن قبل خرج على العباسيين خروجاً مدويا من كان يسمى "أسود الزبد"[6].

ومع أن حركة المجتمع فى فترات كثيرة قد اتسعت حول السود، ودخل فيها الكثيرون ونعموا بهذا الدخول. إلا أن الإنسان الأسود إلى حد ما ظل معزولاً عن صميم الحياة، كما ظل متراكماً فى مناطق بأعيانها ومغروساً فى وظائف من الحياة لا يمكنه أن يتخطاها إلا بشق الأنفس.

---

(١) فجر الأندلس د. حسين مؤنس ٣٩٥.
(٢) الطبرى ٤٨٠/٧.
(٣) الحضارة الإسلامية ترجمة أبو ريدة ١١٢/١.
(٤) المغرب لابن سعيد ١٢٤.
(٥) عريب ١١١: ١١٢.
(٦) الإمتاع والمؤانسة ١٦٠/٣.

وإذا كانت "الليالى العربية" فى هذه الفترة قد صورت لنا عالماً عربياً مكتظاً بمباهج الحياة، إلا أنها قد صورت كذلك الإنسان الأسود على أنه موضع حقد وخوف جنسى"[1] ثم كان رد الفعل هو هذا التوتر الذى نراه فى الغالب بين الدولة وبين السود، والذى ظلت ظلاله عالقة بالحياة بعد ذلك.

وحين إذا أردنا – بالإضافة إلى ما سبق – أن نأخذ دليلاً من السيرة الشعبية وجدنا ما يؤيد ما نذهب إليه.

"فموقف كاتب سيرة سيف بن ذى يزن، وكذلك مجتمع كاتب هذه السيرة له ما يسوغه، ذلك أننا نرجح أن سيرة سيف قد كتبت فى عصر المماليك الذى اشتدت فيه الحروب بين العرب وبين الحبش كانعكاس للحروب بين العرب والصليبيين، وكثرت الأخبار التى جاءت فى كتب التاريخ عن اضطهاد الحبش للمسلمين.. ولهذا فقد اعتبر العرب أنفسهم من جنس آخر مخالف للجنس الذى ينتمى إليه الأحباش، فاعتبروا أنفسهم أولادا لسام بن نوح: بينما اعتبروا الأحباش أولادا لحام بن نوح، ثم أعطوا لسام وأولاده الفضائل الخلقية كلها بينما ألصقوا بأولاد حام أقبح الرذائل وأسوأ النعوت[2].

وإذا كان قد مر بنا بعض المواقف التى كتبها كتاب وقف بعضهم مع السود، ووقف الآخرون ضدهم، فإنه يهمنا هنا أن نسوق عدة مواقف توضح أن السود لم يكن اندماجهم تاماً فى الحياة العربية.

فهناك الذين انعزلوا بحيث أصبح لا يفهم عنهم ولا يستطاع إفهامهم، ومع هذه العزلة فلم يمنع هذا واحدا منهم أن يقول بإخلاص "لعن الله بلاداً ليس فيها عرب[3].

وهناك من وجد فى نفسه الجرأة منهم ليقول لأمير المؤمنين المنتصر لم قتلت أنت أباك المتوكل؟ حين قال له المنتصر لم قتلت؟

---

(١) فكرة صائبة عن الأجناس والعنصرية ٦٧.
(٢) فن كتابة السيرة الشعبية ٢٦٤.
(٣) البيان والتبين ٢/٥٥ (السندوبى).

ثـم إن الإبشـهى أورد فصلاً فى كتابه بعنوان "ذم العبيد والخدم" وقد أورد فيـه مسـاوئ كثيرة للعبيد، ثم دلل على شدة الانتقام عند العبد الأسود بقصة مثيرة مـن قصـص الجـنس، ثم علق على هذه القصة التى تعتبر نوعاً من الأدب الذى اصطلح على تسميته "الأدب المكشوف".

بقوله :

إن عمرا الأعجمى حاكم السند حي نسمع بهذه الحادثة قال: ما سمعت بمثل هذا قط، وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود[١].

وقد فعل مثل هذا إبراهيم بن محمد البيهقى[٢].

كمـا أورد ابـن عـبد ربـه[٣] فى هذه المشكلة رأى مجموعة من المثقفين اجـتمعوا "بالمربد" فقد طرح فيما بينهم سؤال يقول: أى الأمم أعقل؟ وكان أن قالوا عـن أهلل فارس إنهم ملكوا كثيراً من الأرض، ووجدوا عظيماً من الملك،، وغلبوا عـلى كـثير مـن الخلق: فما استنبطوا شيئاً لعقولهم، ولا ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم.

وقالوا عن الروم : أصحاب صنعة.

وعن الصين : أصحاب طرفة.

وعن الهند : أصحاب فلسفة.

وقالوا عن السودان : هم شر خلق الله.

ولنـتأمل قـول ابـن خلدون فى المقدمة[٤]: قد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب، فنجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع.

... أما نظرة الجاحظ إليهم فتظهر من قوله :

---

(١) المستطرف فى كل فن مستطرف ٢/٦٤.

(٢) المحاسن والمساوئ تحقيق أبى الفضل إبراهيم ٣٩٧ وما بعدها.

(٣) العقد الفريد ٣/٥٠.

(٤) ص٨٦.

وإذا سمعتمونى أذكر العوام فإنى لست أعنى الفلاحين.. ولست أعنى من الأمم مثل.. ومثل الزنج وأشباه الزنج، وإنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع: العرب، وفارس، والهند، والروم، والباقون همج، وأشباه الهمج.

ويقول حين تكلم عن الخطابة: حتى إن الزنج مع العثارة، ومع فرط الغباوة، ومع كلال الحد، وغلظ الحس، وفساد المزاج لتطيل الخطب، وتفوق فى ذلك جميع العجم، وإن كانت معانيها أجفى، وأغلظ، وألفاظها أخطأ وأجهل[1].

كما يقول عنهم :

فإنهم شرار الناس، وأردأ الخلق تركيبا ومزاجاً كمن بردت بلاده فلم تطبخه الأرحام، أو سخنت فأحرقته الأرحام، وإنما صارت عقول أهل بابل وإقليمها فوق العقول.. لعلة الاعتدال[2].

وقد يتفكه بهم فى كتابه البخلاء ففيه على لسان أحدهم:

لم أنتفع بأكل التمر قط إلا مع الزنج وأهل أصبهان، فأما الزنجى فإنه لا يتخير، وأنا أتخير، وأما الأصبهانى، فإنه يقبض القبضة ولا يأكل من غيرها.

وهناك من أرخ لوجودهم فى المجتمع العربى فقال:

والسودانيون كانوا يغمرون الأسواق، وقد عرفوا بقلة الثبات والإهمال كما عرفوا بالميل إلى الضرب على الدف والرقص، وهم أحسن خلق الله بياض أسنان لكثرة لعابهم، وبعابون عادة بنتن الإبط، وخشونة الملمس[3].

وهناك من قال:

إن الدنيا كلها أربعة وعشرون ألف فرسخ، فملك السودان اثنا عشر ألف فرسخ، وملك الروم ثمانية آلاف فرسخ، وملك فارس ثلاثة آلاف فرسخ، وأرض العرب ألف فرسخ.

---

(١) البيان والتبيين تحقيق عبدالسلام هارون ١/١٣٧، ٣/١٠.
(٢) الحيوان ٢/٣١٤.
(٣) راجع ضحى الإسلام ١/٨٧، ٨٨.

ومن قال : أربعة لا تعرف فى أربعة، السخاء فى الروم، والوفاء فى الترك، والشجاعة فى القبط، والغم فى الزنج[1].

ولقد كان يحلو لبعضهم بين الحين والحين أن يقوم بإثارة السود على نحو ما كان يفعل الشاعر أبو يعلى بن الهبارية الذى كان يعير أبا محمد الأعرابى، ويقول: ليت شعرى من هذا الأسود الذى قد نصب نفسه للرد على العلماء وتصدى للأخذ على الأئمة القدماء[2]؟

... ومن الغريب أننا نجد "أسامة بن منقذ"[3] فى باب المخالفة ينقد نصيباً فيصيب، ثم يعرض لسحيم فيقول: والمحب لا يدعو على حبيبته ولا سيما هذا العبد الأسود.

ثم حين يعرض لهذا البيت :

تجعل الندّ واليلنجوج والمسـ ـكَ صلاء لها على الكافور

يعقب عليه بقوله:

ومعلوم أن الزنج على قبح رائحتهم، ونتنها لو تطيبو ببعض هذا الطيب لطابت رائحتهم.

وقد تحول الأمر بعد ذلك إلى نوع من التطرف كقول الشاعر قمر الدولة من شعراء القرن السادس فى أفلح الكاتب وكان أسود.

هذا ابن أفلح كاتب متفرّد بصفاته
أقلامه من غيره ودواته من ذاته

.. ومما يلاحظ على أدب الصوفية أنهم لم يلتفتوا إلى ظاهرة الطعن على السود[4].

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة المجلد ١ ص٢١٥، نهاية الأرب ٢٩٤/١.
(٢) ياقوت ٢٢٦/٧.
(٣) البديع فى نقد الشعر ١٦٥ وما بعدها.
(٤) الرسالة القشيرية ٤٨١/٢، ٥٠٦، ٦٧٥.

ومهمـــا يكـــن مـــن شيء فالملاحظ أنه بعد أن هدأ الزهو العربي، وبعد أن أصـــبحت الأجـــناس الأخرى تلعب دوراً كبيراً وهاماً في الحياة العربية الإسلامية إلى حـــد دحـــر الجنس العربي.. بعد هذا رأينا المجتمع العربي الإسلامي في كثير مـــن المناطق لا يعي فكرة الأجناس أية أهمية، إلى حد أن كافور الأخشيد قد وصل إلى حكـــم مصـــر، وكافور هذا عبد أسود خصي مثقوب الشفة السفلى بطين قبيح القدميـــن ثقيل البدن لا فرق بينه وبين الأمة، وقد سئل عنه بعض بني هلال فقال : رأيـــت أمة سوداء تأمر وتنهى وكان هذا الأسود لقوم من أهل مصر يعرفون ببني عيـــاش يســـتخدمونه في مصالح السوق، وكان ابن عياش يربط في رأسه حبلاً إذا أراد النوم، فإذا أراد منه جذبه بالحبل لأنه لم يكن ينتبه بالصياح، وكان غلمان بن طغـــج يصفعونه في الأسواق كلما رأوه فيضحك، فقالوا: هذا الأسود خفيف الروح، وكـــلموا صـــاحبه في بيعـــه فوهبه لهم.. فنظر الناس إليه من صغر همهم، وخسة أنفســـهم فسابقوا إلى التقرب إليه، وسعى بعضهم ببعض حتى صار الرجل لا يأمن أهـــل داره على أسراره، وصار كل عبد بمصر يرى أنه خير من سيده، وقيل إنه اشـــترى بما يعادل ثمانية جنيهات[1] والملاحظ أن الذين كتبوا عن كافور كتبوا عنه بمرارة، ولم ينصفه إلا القليلون الذين ذكروا علمه، وسعة أفقه، ونحن يهمنا موقف المتنبي منه وتعرضه للونه، كما في قوله:

تفضـــح الشـــمسَ كلما ذرت الشمسُ	بشـــــمسٍ مـــــنيرة ســـــوداء
إن في ثوبـــكَ الـــذي المجـــدُ فيـــه	لضـــياء يُـــزْرى بكـــلّ ضـــياء
إنمـــا الجلدُ ملبس وابيضاضُ النّفس	[م] خيـــرٌ مـــن ابيضـــاض القـــباء
كـــــرم في شـــــجاعة، وذكـــــاء	في بهـــــاء، وقـــــدرة في وفـــــاء
مـــن لـــبيض الملوك أن تبدل اللون	بـــــلون الأســـــتاذ والســـــحناء[2]
(و) فجـــاءت بـــنا إنسان عين زمانه	وخـــلّتْ بياضـــاً خـــلفها ومآقيـــا[3]

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي للبديعي. تحقيق مصطفى السقا وآخرون ١١٠: تاريخ العرب ٥٨٨/٢.

(٢) السحناء : الهيئة.

(٣) المعنى أنه بمنزلة السواد من العين وغيره بمنزلة البياض الذي لا ينتفع به في النظر.

(و) أبا المسك ذا الوجه الذى كنت تائقا ... إليــه وذا الوقت الذى كنت راجيا[١]
أبــا كــل طيــب لا أبا المسك وحده ... وكــل ســحاب لا أخــص الغواديا
يــدل بمعــنى واحــد كــل فاخــر ... وقــد جمــع الــرحمن فيك المعانيا
ومــن قــوم ســام لــو رآك لنسله ... فــدى ابن أخى نسلى ونفسى وماليا

بل ويهمنا منه تعرضه للونى السواد والبياض معاً كما فى قوله :

مــتى كــن لى أن البياضَ خضاب ... فيخْــفى بتــبييض القرون شباب[٢]
ليــالى عــند الــبيض فوادى فتنة ... وفخــر. وذاك الفخر عندى عاب[٣]
فكيــف أذم اليــوم ما كنت أشتهى ... وأدْعــو بمــا أشــكوه حيــن أجاب
جلا اللون عن لون هدى كل مسلك ... كما انجاب عن ضوء النهار ضباب[٤]

ومــع أنه يحلو لبعضهم كابن حنزابه أن يذكر أنه هزئ بكافور وسهل على الــناس أمر لونه، ولقد قيل فى هذا: وكان المتنبى يعلم أن ذكر السواد على مسامع كــافور أمر من الموت، فإذا ذكر لونه بعد ذلك فقد أساء إلى نفسه، وعرضها للقتل والحــرمان، وكــان مــن حســن الصنعة، وإجمال الطلب ألا يذكر لونه، وله عنه مــندوحة.. وقــد ذكر سواد كافور فى عدة مواضع وكان اللائق ألا يذكره[٥]، وما أكثر الأبيات التى ذكر عنها النقاد أنها تحمل المدح والذم فى آن واحد، ونحن نرى أن المتنــبى أراد أن يــنافق كافوراً فى أول الأمر، وأراد أن يبهره بأنه يستطيع أن يقيــم الدليــل والحجة، على ما لا يحتمل دليلاً أو حجة، وقد أسرف فى هذا المجال

(١) أبو المسك كنية كافور لسواده.
(٢) المعنى أنه لرغبته فى شرف المشيب لأنه أوقر وأجل فى العين كان يتمنى فى شبابه أن يكون بياض الشيب خضابا يستر به سواد الشعر كما يستر الشيوخ بياضه بالسواد.
(٣) الفودان : جانبا الرأس . كان يتمنى المشيب فى الليالى التى كان رأسه فيها فتنة عد الغساء لحسن شعره وسواد وكن يفتحون بوصله، إلا أن ذلك الفخر عيب عنده لأنه مباين للعفة والكمال.
(٤) المعنى: كأن بياض الشيب كان مستوراً تحْت السواد فلماً زال السوادُ عنه انكشف فاهتدى صاحبه فى كل مسلك من الرشد كالنهار إذا انكشف عنه الضباب فاهتدى المسلك فى ضوئه.
(٥) المصدر السابق نفسه ص١١٥، ١١٦.

إلى الحـد الـذى نصب فيه اللون الأسود على كل الألوان، والذى استطاع فى هذا الوقـت المـبكر أن يضـع بذور "قومية سوداء" ونحن لا نستطيع أن نتصور مع بعضـهم أنـه كان لا يحترم الرجل وكان يتعمد السخرية منه، ويأتى بالشعر الذى يحـتمل الشـىء ونقيضـه، فقد كان يقف بين يدى كافور ولا يستطيع الجلوس فى مجلسـه فى الوقت الذى كان لا يرضى فيه أن ينشد قائماً عند سيف الدولة، بل لقد اشـترط ذلك على سيف الدولة، ولقد أرسل كافور إليه من يقول له، لقد طال قيامك يا أبا الطيب فى مجلس كافور، فإذا به يقول له وصاحب الصبح المبنى[1] يأبى إلا أن يكون هذا امتحانا له من كافور –

يقـلٌ لـه القيـامُ عـلى الرءوس	وبـذلُ المكـرماتِ مـن الـنفوس
إذا خانـته فى يـوم ضـحوك	فكيـف تكـون فى يـوم عـبوس

ومـا يهمنا أن نؤكده هنا أن العصبيات العربية حين هدأت، أصبح الطريق ممهـداً لـذوى الكفايات، وأنه قد لمع بعض السود فى هذه المجالات الجديدة عليهم كما رأينا من كافور، وإن كان هذا لم يمنع فى الوقت نفسه ظهور نبرة من الضيق حيـن الكتابة عنهم، وبخاصة حين يكتب عن كافور وكثيرا ما يعرف بكلمة الأسود فقط.

وربما كانت حالة هذا العبد الأسود الذى نشأ من أحط الأوساط ليمارس نفوذاً مطلقاً هى الأولى فى التاريخ الإسلامى إن لم تكن الأخيرة[2].

وإن كـان الـثابت أن المصـريين شغلوا بآخرته عن أولاه، وبحاضره عن ماضـيه، وبخاصـة أن ماضى "كافور" لا يختلف عن ماضى الحاكم الذى كان من قبله، وإن كان كافور يتميز عنه بالعدل والسماحة والكرم، فقد كانٰ له سماط يمد كل يـوم لمـن حولـه، وتحدث المؤرخون أنه كان يرسل كل ليلة عيد "حمل بغل" من المـال على هيئة صرر، وقد كتبت على كل صرة اسم عالم أو زاهد أو فقير، كما ذكـروا أنه كان يرسل كل عام من المال والطعام والثياب شيئاً كثيراً مع الحجاج

---

(١) المصدر السابق نفسه ص١١٢ ، المتنبى د. زكى المحاسنى ٣٢ (نوابع الفكر العربى، دار المعارف).
(٢) تاريخ العرب ٥٨٨/٢.

ليــوزع هــناك عــلى المعوزين[1] ولقد نحج في حماية مصر والشام من هجمات الحمدانييــن[2] ولكن سوء حظه هو الذى أوقعه فى براثن المتنبى، وبخاصة بعد أن ســأله أبو الطيب أو يوليه صيداء من بلاد الشام أو غيرها، فكان أن رد عليه أنت فى حــال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سمت نفسك إلى النبوة، فإن أصبت ولاية وصار لك اتباع فمن يطيقك؟ ويلاحظ أنه طمع فى كافور بما لم يطمع فى مثله عند سيف الدولة فإذا كان جهده عند سيف الدولة أن يقول كلاماً عاماً.

.. فإنه عند كافور حدد مطالبه :

إذا لــم تُــنِطْ بى ضــيعةً أو ولايةً ... فجــودك يكســونى وشُغْلك يَسْلب

وقصــائده عامرة فى هذا المجال بالتلميح والتصريح، وقد يضيف إليها عتاباً أو استبطاء[3]، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المتنبى كان عربيا متعصباً لا يطيق الموالى، وهو نفسه القائل:

وإنمــا الــناسُ بالمــلوك ومــا ... تُفْــلِح عــربٌ مــلوكُها عَجَــمُ

فى كــلٍّ أرض وطئــتُها أمــمُ ... تــرعى بعــبدٍ كأنهــا غــنَم

إذا أضــفنا ذلــك أدركــنا دوافــع الحملة التى جعلت من كافور هزأة بين العصــور، والتى جعلت الناس لا يذكرون عنه إلا ما قاله المتنبى، وما أكثر ما قال عــنه، فقــد أطــلق عــليه كنى وألقابا أهمها. كويفير، وأبو النتن، وأبو البيضاء، عبدالسوء، والخنثى والخنزير، والخصى، والنوبى، الأوكع[4] إمام الأبقين والملاحظ أنــه فى هجائــه المريــر يعتمد على اللون، والاسم، والأصل، والجسم، وكل هذا يخدمــه فى عصــر ســاد فيه "البديع" ولكن الملاحظ أن المتنبى–مع هذا التلاعب الــبديعى قد أثخن مسيرة الرجل فى التاريخ "إذ أنه كان يرى بعقله وذكائه مواطن

---

(١) أبو المسك كافور. إبراهيم الأبيارى وما بعدها، نقد للكتاب، عبده بدوى فى العدد ٦١ من مجلة نهضة إفريقية.

(٢) تاريخ العرب ٥٨٨/٢.

(٣) الأدب العربى فى مصر د. عبدالرازق حميدة ٢٧٤.

(٤) الجاف الصلب.

المـدح والـذم فى هـذه الـنواحى، فبوضـعها صياغة فريدة تبعدها عن التكلف والثقل"[1].

والملاحظ أنه لم يقف عند حد الهجاء، وإنما حرض على قتله،[2] وسخر من مصر – أمر سخرية – من أجله.

أغايـةُ الديـن أن تُحفوا شواربكم	يـا أمـةً ضـحكت من جهلها الأمم
ألا فـتى يـورد الهـنديَّ هامـته	كيمـا تـزول شـكوكُ الناس والتهم

ويقول :

وكـم ذا بمصـر من المضحكات	ولكـنَّه ضـحكٌ كالـبكا
بهـا نـبطىٌّ مـن أهـل السـواد	يـدرّس أنسـاب أهـل الفَـلا [3]
وأسـود مشـفره نصـفه	يقـال لـه أنـت بـدر الـدجى!

وكأن المتنبى لم يقل له ما هو أكثر من "بدر الدجى"

"وهـل وصـول الخصـى كافور إلى عرش مصر أغرب من سيادة إحدى الـبغايا على دولة الروم لو كان المتنبى على علم بتاريخ الروم القديم؟ وهل كانت أمـة الفـرس مـلعونة على ألسنة الكهان أو مقضيا عليها بالاستسلام حين قولاها سلطان خصى بعد زمن المتنبى بعهد طويل ؟ وهل الخصيان والبغايا هم شر الناس أو هل سيرتهم فى الحكم أقبح السير التى عرفتها شعوب العالم[4].

وقـد يـتوهم بعضهم أنه لولا هذا الاصطدام المروع الذى وقع بينه وبين كـافور، والذى جعله يطلب منه ما لم يطلبه من سيف الدولة، لما كان قد أخذ هذا الموقـف من العبيد السود، ولكن بالإضافة إلى ما نعرف عنه من التزام بالعروبة

---

(١) الأدب العربى فى مصر ٢٧٨.

(٢) أراد بالنبطى الوزير ابن فرات.

(٣) يقول :

فـلا تـرج الخيـر عـد امـرئ	مـرت يـد الـنخّاس فى رأسـه
وإن عـراك الشـك فى نفسـه	بحالـه فانظـر إلى جنسـه

(٤) سعد زغلول: سيرة وتحية : عباس محمود العقاد ص١٢.

الـنقية، نجد أن لهذا جذوراً قديمة عنده، على نحو ما نعرف من رأيه فى الأعاجم وهو يخاصم ابن خالويه النحوى فى حضرة سيف الدولة وعلى نحو ما عرفه من خوفه على اللغة العربية كما فى قصيدته عن "شعب بوان بفارس وقد قيل إنه التقى فى سفر له بعبد أسود، فقال له: ما اسمك؟ فلما قال له : زيتون، قال المتنبى:

سـموك زيـتوناً ومـا أنصـفوا ... لـو أنصـفوا سـمّوكَ زعـرورا
لأن فى الزيـتون زيـتاً يضـىء ... وأنـت لا زيـتاً ولا نـورا

وقريب من هذا قوله :

وإن عـراك الشـك فى نفسـه ... بحالـه فانظـر إلى جنسـه(١)

وقوله :

خلائـقُ لوْحواهـا الزّنْجُ لا نقلبوا ... ظُـمْىَ الشّـفاه، جِعادَ الشَّعر غُرَّانا

وقـد عقّـب عـلى هذا الصاحب بن عبّاد بقوله: الزنجىُّ لا يوجدُ ألا جَعْد الشعر، فكيف يقلبون عن الجعودة إلى الجعودة(٢). وأخيراً فإنه كان يعرف أن هناك من أعد له "السودان" لقتله فى "كفر عاقب".

أتـانى وعيـدُ الأدعيـاءِ، وأنّهـم ... أعـدّوا لى السّودان فى كفر عاقب

وكل هذا جعله يمتلئ بالمرارة على السود.

(١) ديوانه . مطبعة هندية ٣٧٩.
(٢) ديوانه ٣٧٩ مطبعة هندية، الصبح المنبى ٨٧، ٣٣٨.

الفصل الثاني

التَّصادم مع المجتمع



أولاً: كيف حدث التصادم معهم بعد الإسلام؟
وإلى أي حد وصل هذا التصادم؟

نحـن نعـرف أن السـود فى الجاهـلية كـانوا طبقة مهزومة، وإنسانية.. "مستأنسـة" فـلم يكونـوا يتصادمون مع الحياة من حولهم، ذلك لأن كل همهم كان ينحصـر فى تلك الأعمال الحقيرة التى أشرنا إليها، وكان ينحصر كذلك فى الترفيه عـن سـادتهم بالـرقص أو الغناء أو بهما معا، قد سبق أن ذكرنا أنهم لم يكونوا يشكلون طبقة صلبة يمكن أن تطالب بحقوق، أو تصل إلى تخفيف الأعباء عنهم.

ومن هنا نراهم – من وجهة نظر الشعر – إذا عيروا بالسواد، فإنهم يكتفون بـالوقوف عند تبرير هذا اللون، وكثيراً ما يقابلون بين سواد اللون وبياض الخلق، أو يذكرون أن هناك أشياء أخرى يمكن أن تسودهم على "النسب المظلم".. على ما نعرف من عنترة، وسحيم، وخفاف بن ندبة، ونصيب.

ولكن الإسلام حقيقة أنعش روحهم، وأرسى دعائم المساواة، وحطم الإحساس بالـرق الداخلى الذى كانوا يحسون به إلى حد إنهم كانوا غير مصدقين بأنهم على قدم المساواة مع الإنسان العربى.

ولكـن هـذا لـم يدم كثيراً ذلك لأن السود أحسوا أنهم لا يعاملون على قدم المسـاواة مـع غيرهم، ومن هنا أنسحب بعضهم أو أغرق نفسه فى العبادة. ولكن القـرن الأول الهجـرى حمـل معـه فى أول الأمر على استحياء تلك العصبيات والحـزازات القديمة، ثم ما لبث أن اشتدت بين عدنان وقحطان.. بين عرب الشمال وعـرب الجـنوب، وقـد وجـد الشعراء السود أنفسهم يتعاطفون مع القحطانيين، ويناصرونهم على العدنانيين، ولا شك أن القحطانيين كانوا أقرب إلى الأحباش من

عدنـــان عنصـــرا [1] بل رأيناهم من خلال هذه العداوات يعملون على تأكيد ذاتهم، وحين يوجه إليهم لوم بسبب ركاكة أنسابهم أو بسبب ألوانهم لا يسوغون هذا بأنهم "بيــض الخـــلق" أو أن هناك أشياء أخرى يمكن أن تغطى على نقاط الضعف التى يعــترفون بها عندهم، ذلك لأنا نراهم يدافعون بعنف وغضب عن كل ميراثهم، فهم لا ينظرون إلى الخلف فى غضب، وإنما يتعمدون النظر إلى الخلف، ثم يقفون عند أشياء بعينها يرون أنها تكيد العرب، وتثقل على نفوسهم، وهكذا ظهر ميلاد غضب جديــد للســود فى الأدب العربى.. ظهر بحق من خلالهم "أدب الغاضبين" ومع أنه يلاحــظ أنهم لم يكونوا يبدأون الشعراء العرب بالعدوان، إلا أنهم أصبحوا فى حالة لا يســكتون فيها على تهمة توجه إليهم، أو على نظرة غضب تقذفها العيون كحجر على جلودهم وعلى ماضيهم.

وسنحاول أن نقف قليلاً عند ثلاثة[2] من الشعراء السود الذين كانوا علامات على التصادم الذى تم بين العرب وبينهم.

١- ويعتــبر الشاعر الأموى الحيقطان[3] هو صاحب الصوت الأول الحقيقى الذى يؤرخ للنبرة الجديدة التى بدأ يتحدث بها الشعراء السود فى الحياة العربية.

وقــد بدأت الشرارة الأولى حين رآه مرة الشاعر جرير[4] يلبس فى يوم عيد قميصاً أبيض على جسم أسود، وكان أن تهكم به قائلاً :

كأنــــه لمــــا بــــدا للـــناس ... أيْـــر حُمـــارٍ لـــفّ فى قـــرطاس

---

(١) بين العرب والحبشة ١٣٣-١٣٥.

(٢) تعرضنا لهذا فى كتاب "الشعراء السود".

(٣) أصل معنى الحيقطان طائر الدراج أو الذكر منه: وهو الذى قيل عنه: إنه كان يفضل فى رأيه وعقله وهمته، وهو الذى يقول فى الإخوان: لا تعرف الأخ حتى ترافقه فى الحضر، وتزامله فى السفر (رسائل الجاحظ ١٨٠ وما بعدها، معجم البلدان لياقوت ٣٩٤/١، ظهور الإسلام ١/ ٧٢. وانظر الشعراء السود للدكتور عبده بدوى.

(٤) كــان جريــر يهتم فى نقائضه بذكر أثر الحداوة فى آباء الفرزدق ، ويذكر ما تحدثه من لون أسود

لمــا رأتْ أثــر الحديــد بجـــلده ... فالـــلون أورق والبـــنان قصـــار

والأورق : الأسود. النقائض ٨٥٢.

ولمـــا كان هذا البيت العابث قد تواتر من فم إلى فم، فإنه يقال إن الحيقطان دخـــل مـــنزلـــه ثم قال هذه القصيدة الرادعة، والتى تحتج بها اليمانية على قريش ومضر، ويحتج بها كذلك العجم والحبش على العرب، وهذه القصيدة هى:

لـــئن كنت جَعْد الرأس والجلدُ فاحمُ ... فإنى لسَبْط الكف والعرضُ أزْهر [1]

وإن ســـوادَ الـــلون ليس بضائرى ... إذا كـــنت يوم الروعِ بالسيف أخطر

فإن كنت تبغى الفخر فى غير كنهه ... فرهط النجاشى منك فى الناسِ أفخر

تأبى الجَلنْدى، وابن كسرى وحارثٌ ... وهـــوذةُ، والقـــبطىّ، والشيخُ قيصر

وفـــاز بهـــا دون المـــلوك سعادة ... فـــدام لـــه المـــلك المـــنيعُ الموقّـــر

ولقمـــانُ مـــنهم وابـــنُه، وابن أمه ... وأبـــرهةُ المـــلك الـــذى ليس ينكر

غـــزاكم أبـــو يكسوم فى أمّ داركم ... وأنـــتم كقبض الرمل أو هو أكثر [2]

وأنـــتم كطيـــر الماءِ لما هوى لها ... ببـــلقعةٍ حُجْـــن المخـــالب أكـــدر

فـــلو كـــان غيـــر الله رام دفاعـــه ... عـــلمت وذو التجريب بالناس أخبر

ومـــا الفخـــر إلا أن تبيـــتوا إزاءَه ... وأنـــتم قـــريبُ نـــاركم تَتَسَّـــعرُ

ويدلـــفُ مـــنكم قـــائد ذو حفيظـــة ... نكافحـــه طـــوراً وطـــوراً يدبـــر

فأمـــا الـــتى قلـــتم فتـــلكم نـــبوةٌ ... ولـــيس بكم صون الحرام المستر،[3]

وقلـــتم لقـــاح لا تـــؤدى أتـــاوةً ... فإعطـــاء أريـــان مـــن الغـــر أيسر

ولـــو كـــان فيهـــا رغـــبةُ لمتوجٌ ... إذا لأتـــتها بالمقـــاول حِميـــر،[4]

ولـيـــس بهـــا مشتىً ، ولا متصيفٌ ... ولا كجؤاثـــا[5] ماؤهـــا يـــتفجر

(١) القبض : العدد الكثير، وهو يعنى صاحب الفيل حين أتى إلى مكة ليهدمها، فهو يقول: كنتم كعدد الرمل فلم فررتم منه: وما دامت قد غزيت وهى أم القرى وفيها البيت الحرام الذى هو شرفكم - فإن كل مكان لكم قد غزى.

(٢) أى صبن البيت الحرام ذو الستور، وصون لغة فى صين.

(٣) اللقاح : القوم لم يدينوا للملوك ولم يصبهم فى الجاهلية سباء، الأريان: الخراج والأتاوة.

(٤) المقاول: جمع مقول بالكسر، وهو القيل الملك من ملوك حمير.

(٥) جؤاثا : حصن لعبد القيس بالبحرين.

ولا مـــرتعُ لـــلعيْن، أو متقـــنص ولكـــن تَجْـــرًا والـــتجارةُ تحقـــرُ
ألســـت كليـــبِيًا، وأمـــكَ نعجـــةُ لكـــم فى سمان الضأن عارُ ومفخر

وهـــذه القصيدة تعتبر "جواز المرور" للشعراء الذين جاءوا بعد ذلك، والذين يطـــلق عـــليهم اسم الشعراء الشعوبيين، والملاحظ أنه لم يقف عند جرير وقبيلته فقط، ولكنه تعرض بحسم للأحباش والعرب، ثم أعطى الأحباش كل مكرمة، وسلب عـــن العرب مكارمهم، فهو يسخر من مكة، ومن قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم، ويذكر أن عملهم الذى يقوم على التجارة عمل محتقر، ثم يسوق عدداً من السود فى معـــرض الزهو على العرب، ومع أنه يحتاط فيذكر أنه لا ينبغى للعرب أن تفخر بالإسلام لأنه "نبوة" تجئ قدراً من السماء، إلا أنه لا يخفى فرحة بهؤلاء الذين تأبوا على الإسلام:

تأبى الجلندى وابنُ كسرىَ وحارثٌ وهـــوذة والقـــبطى والشـــيخ قيصر

فهـــو يـــريد أن يقول: كتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى بنى الجلندى فلم يؤمـــنوا، وكذلـــك كان الحال مع كسرى، والحارث بن أبى شمر، وهوذة بن على الحنفى، والمقوقس عظيم القبط بمصر، وقيصر الروم.

ولا شك أن هذه النبرة الغاضبة جديدة على طبيعة العلاقات التى كانت سائدة بين العرب والسود.(١)

٢- أمـــا الشاعر الثانى فهو سنيح بن رباح، وقصته لا تختلف عن قصة الحيقطان، ذلك أن الشاعر جرير لما هجا بنى تغلب جاء فى هجائه:

لا تطلـــبن خؤولـــة فى تغـــلب فالـــزنج أكـــرم مـــنهم أخـــوالا

(١) بنو كليب برمون بإتيان الضأن؛ وكذلك بنو الأعرج وسليم وأشجع ترمى بإتيان المعز، يريد أن يقول: أما العار فالذى شاع عليهم عن ذكر النعاج.

وكان أن غضب العبيد مع الزنوج وقالوا: "من يعذرنا من ابن الخطفى" فقال رجل منهم يقال له سنيح بن رباح مولى لبنى ناجيه هذه القصيدة[1]:

ما بال كلب من كليب سبنا	إن لم يواز حاجبا وعقالا
أن امرأ جعل المراغةَ وابنها	مثل الفرزدق جائر، قد فالا[2]
والزنجُ لو لا قيتهم فى صفِّهم	لا قيتَ ثم جحاجحاً أبطالاً

(١) الكامل فى اللغة والأدب ٢/٨، نقائض جرير والأخطل لأبى تمام تحقيق الأب أنطونى صالحانى ص٨٨، خزانة الأدب ٢/٢٧٠ واللجزء الحادى عشر من تاريخ مصنف مجهول وهو لعلة كتاب أنساب الأشراف وأخبارهم للشيخ الإمام أبى الحسين أحمد بن يحيى بن جابر داود البلاذرى البغدادى ص٣٠٣ مطبعة بولس آب فى مدية غريفزولد ١٨٨٣، وقيل إن اسمه رياح بن سنيج وسبيح بن رباح، ورباح بن سبيح، قد رويت له فى الجزء السابع من كتاب الحيوان للجاحظ تحقيق عبدالسلام هارون ص٢٠٤، ٢٠٥ هذه الأبيات ويقصد بالخضر فيها النبى صاحب موسى..

ما أبغض الخضر فيلا منذ كان ولا	أحب عيرا وذاكم غاية الكذب
وكيف يبغض شيئاً فيه معتبر	وكان فى الفلك فراجاً من الكرب
والفيل أقبل شىء لو تلقنه	حاجات نفسك من جد ومن لعب
ولو تتوج فينا واحد فرأى	زى الملوك لقد أوفى على الركب
يغضى ويركع تعظيماً لهيبته	وليس يعدله النشوان نفى الطرب
وليس يجزل الإكل ذى فخر	حر ومنبته من خالص الذهب
مثل الزنوج فإن الله فضلهم	بالجود (..) والتطويل فى الخطب

ومما يروى عن تأثير هذا البيت أن هشام بن عمر التغلبى كان مع المنصور وبعد أن تركه المنصور عاد هشام يطلبه فقال:
أو لم يكن معى آنفا
فقيل : ذكر أن له حاجة عرضت مهمة.
فدعا بكرسى فتعد عليه ثم أذن له، فلما مثل بين يديه قال:
يا أمير المؤمنين : إنى انصرفت إلى منزلى من الموكب: فلقيتنى أختى فلانة بنت عمرو، فرأيت من جمالها: وعقلها ، ودينها: ما رضيتها لأمير المؤمنين: فجئت لأعرضها عليه.
فأطرق النصور وجعل ينكت الأرض بخير زانة فى يده وقال أخرج يأتك أمرى.
فلما ولى قال للرجل اسمه ربيع: لولا بيت قاله جرير فى بنى تغلب لتزوجت أخته، وهو قوله

لا تطلبنّ خئولة فى تغلب	فالزنج أكرمُ منهم أخوالا

فأخاف أن تلد لى ولداً فيعير بهذا البيت. [تاريخ الطبرى ٨/٣٥].

(٢) المراغة : الأتان. فالا: أخطأ رأيه وضعف.

فعــل ابن عمرو حين رام رماحهم	أرأى رمــاح الــزنج ثم طوالاً[1]
فجعــوا زيــاداً بابــنه وتــنازلوا	لمــا دعــو الــنزال ثــم نــزالاً[2]
ومــــربطينَ خيولهـــم بفـــنائهم	وربطــتَ حَولــك شــيَّها وسخالا[3]
كــان "ابــنُ نديــة" فيكمُ من نَجْلنا	"وخفـــافُ" المـــتحمل الأثقـــال
وابــنا "زبيــبة" عنــتر وهراســةٌ	مــا إن تــرى فيكــمْ لهــم أمــثالا
ســل "ابــن جيفر" حين رام بلادنا	فــرأى بغــزوتهم عــليه خيــالا[4]
و"ســليك" الــليث الْهِزَبر إذا عدا	والقــرم عــباسٌ عــلوك فعـــالا
هــذا "ابــن خازم بن عجلى" منهم	غــلبَ القــبائلَ نجــدةً ونـــوالا
أبــــناء كـــلِّ نجيـــبة لنجيـــبة	أســدُ تــربّب عــندها الأشــبالا
فلــنحن أكــرم مــن كليب خئولةً	ولأنـــت ألأم مـــنهم أخـــوالا
وبــنو الحــباب مطاعنٌ، ومطاعم	عــند الشــتاء إذا تهــبُّ شــمالاً

وهو لا ينسى لكى يحكم حلقات العداء أن يفضل عليه الفرزدق فيقول:

قــد قِستُ شعرك يا جريرُ وشعره	فقصــرتَ عــنه يــا جريــر وطالا
ووزنــتُ فخــرك يا جريرُ وفخره	فخففْــت عــنه حيــنَ قــلتَ وقــالا

والملاحــظ هــنا أن الشــاعر لم يغضب لهجاء شخص، على نحو ما فعل الحيقطان، وإنما رأيناه يغضب لبنى قومه الزنج، ويذكر بالمواقع التى انتصروا فيها عــلى العرب، وكيف يربطون فى فنائهم الخيول، فى الوقت الذى يربط فيه جرير حوله الشياه والسخالا.

---

(1)ابن عمرو. هو حفص بن زياد بن عمرو العتكى، كان خليفة أبيه على شرطة الحجاج فغلب رباح شار الزنجى على الفرات، فتوجه إليه حفص بن زياد فقتله رباح، وقتل أصحابه واستتباح عسكره، وفى النقائض ص ٨٨ هو زياد بن عمرو وقد قتله رباح زمن الحجاج بن يوسف.

(٢) زياد : والد جعفر بن عمرو.

(٣) الشيه : جمع شاه.

(٤) ابــن جيفر : هو النعمان بن جيفر بن عباد بن جيفر بن الجلندى، كان غزا بلاد الزنج فقتلوه وغنموا عسكره.

وهــو يذكــر بــدور الســود الخالصـــى السواد فى العرب ثم يذكر بأبناء الســوداوات، ويســميه النجيــبات ليزيد الألم على العرب الذين يسمون حرائرهم نجيبات، ثم يذكر أن خئولتهم أنجب من خئولة كليب.

٣- أمــا الشاعر الثالث، فهو عكيم الحبشى[١]، وقد قيل إن علماء أهل الشام كانوا يأخذون عنه، كما أخذ علماء أهل العراق من المنتجع ابن نبهان.

وقد سمع عكيم الحبشى مرة أن حكيم بن عياش الكلبى يقول :

لا تفخــرن بخـــال مـــن بنى أسد	فـــإن أكـــرم مـــنها الـــزنجُ والنُّوب

فإذا بهذا الشاعر الحبشى يحس أنه أهين، وأنه لابد أن يقتص للسود، وكان أن قال:

ويـــم غمـــدانَ كنّا الأسدَ قد علموا	ويـــوم يَـــثْربَ كـــنّا فَحْـــلة العرب
وليـــلة الفيـــل إذ طـــارتْ قـــلوبهم	وكـــلهم هـــاربُ مُـــوف على قتَب
منا النجاشى، وذا الخفضين صهركم	وجـــدُّ أبـــرهة الحـــامى أبى طـــلب
هبـــنى غفـــرتُ لعدنـــان تهكمهـــم	فمـــا لحميـــرَ، والمقوال فى النسب
جمـــارة جمعـــت مـــن كل مجزية	جمـــع الشـــبيكة فوق الزاخر اللجب

من كل هذا نرى أن أول الأصوات الصاخبة التى ارتفعت على العرب كانت من السود، فقد جهروا لهم بالقول، وسخروا منهم، ورفعوا أنفسهم عليهم.. وقالوا ما قـــالوه بغضـــب وبعنف، لا على حياء كما كانوا قبل مجىء الإسلام.. وهكذا يكون الشعراء السود هم "الشعوبيون الأول" الذين قالوا ما قالوه بانفجار وعنف، أما اللذين شغبوا على العرب فى العصر الأموى من غير السود كزياد الأعجم، وإسماعيل بن يســـار، وابـــن ميـــادة فقد كانت نبرتهم خافتة وعلى شىء من التعقل، وحتى الذين صـــرخوا فى وجه العرب فى العصر العباسى أعتقد أن عنفهم كان دون عن عنف السود.

(١) رسائل الجاحظ ١٩٨ ١٩٩، بين العرب والحبشة ١٣٧، ١٣٨.

ولهذا فنحن نخالف الدكتور محمد نبيه حجاب حين يقول: "وإذا تطرق الحديث إلى الزنوج وهم موالى النوبة، كنصيب وسنيح فى الإسلام، وعبد ياليل فى الجاهلية، فيجدر بنا – حينما نشير إلى موقفهم من العرب أن نقرر أنهم كانوا أقل الشعوب عصبية على العرب، وقد يرجع السبب فى ذلك إلى قلتهم، وضعفهم، وماضيهم الذى لم يبلغ من الحضارة ما بلغه الفرس والروم"[1] فمع أن الزنوج ليسوا موالى النوبة، ومع أن الاستشهاد بعبد ياليل لا يدعم القضية التى يراد إثباتها،، إلا أن الذى لا شك فيه أنه من خلال القصائد التى أوردناها، ومن خلال الغضب الذى يطفح منها فى هذا الوقت المبكر فى عهد الأمويين، نزعم أن السود كانوا (رواد) الشعوبية، وأنهم لم يقلوا عن الذين خاشنوا العرب وغاضبوهم بل زادوا عنهم.

وإذا كان الدكتور محمد نبيه حجاب يستشهد على قوله بأن الفرزدق حين قال:

وخيرُ الشعر أشرفُه رجالا	وشرّ الشعر ما قال العبيد

رد عليه نصيب بقوله :

ليس السواد بناقص ما دام لى	هذا اللسانُ إلى فؤاد ثابت
من كان ترفعه منابت أصله	فبيوت أشعارى جعلن منابتى
إنى ليحسدنى الرفيع بناؤه	من فضل ذاك وليس بى من شامت

ثم يقول (وفى تلك الأبيات من التسامى والتطاول ما لا يخفى، من حيث أنه لم يتمسح بالأصول والجدود، وإنما قد فخر بقلبه ولسانه، وهل المرء إلا بهذين الأصغرين؟ كما فخر بشاعريته، وهى عنده أسمى من الأصول التى يزدهى بها العرب)[2].

ونحن من جانبنا نرى أن نصيباً بالذات لم يكن له نصيب فى الهجاء على عادة الشعراء فى عصره، ويروى أنه سئل لم لا يقول الهجاء؟ فقال: رأيت الناس

(١) الصراع الأدبى بين العرب والعجم ٥٠ وما بعدها.
(٢) الصراع الأدبى بين العرب والعجم ٥٠، ٥١.

رجـــلين إمـــا رجـــل لم أسأله شيئاً فلا ينبغى أن أهجوه فأظلمه، وأما رجل سألته فمنعنى، فنفسى كانت أحق بالهجاء إذ سولت لى أن أسأله وأن أطلب ما لديه.

ومع هذا فإنه يروى أن جريرا مر به وهو ينشد فقال له: اذهب فأنت أشعر أهل جلدتك.

فقال نصيب : وجلدتك يا أبا حزره[1].

ويـــبدو مـــن هـــذا أن غضبهم الحاد والمتفجر كان بعد أن أحسوا بعد عهد الخلفاء أن النظرة إليهم بدأت تتغير، وأن الأمويين يؤكدون النقاء العنصرى[2] ومن ثم كانت صيحتهم، وكان شعرهم هذا الغاضب الذى نزعم أنه من أقسى الشعر الذى قالـــه الشـــعوبيون فى العـــرب، كما يزعم أنهم كانوا الرواد الحقيقيين للحركة التى تحددت تحت اسم "الشعوبية".

ولكـــن صـــوتهم وهـــن بعـــد ذلك لأسباب أهمها أن السود لم يكن لهم دور كالفـــرس مثلاً فى المجتمع الجديد ولأن الفتوحات لم توجه إليهم ثم إنهم قد حرصوا فى المجتمع الجديد فى وظائف بعينها، وإنهم بعد انفجارهم فيما سمى "ثورة الزنج" رضـــوا أن يتصـــالحوا - عـــلى مضض - مع المجتمع الذى عاشوا فى إطاره.. وســـارت الحياة؛ ولعل من الغريب أننا لا نعرف الكثير عن هؤلاء الرواد الغاضبين الممثلين فى الحيقطان، وسنيح، وعكيم ولا شك أنه كانت هناك مؤامرة من الصمت قد ضربها الكتاب العرب عليهم.

---

(١) الأغانى ٣٣٨/١.

(٢) كمـــا هجـــاهم جرير هجاهم الفرزدق ، ومن ذلك قوله فى أسود كان يجلس فى صدر مجلس للشراب.

جلوســـك فى صـــدر الفـــراش مذلةٌ ... ورأســـك فى الإكـــليل إحدى الكبائر

ومـــا نطفـــت كـــأس ولا لذ طعمها ... ضـــربت عـــلى حافاتهـــا بالمشـــاقر

(الأغانى ٣٧٥/٣٣)

ثانياً: ثورة الزنج بالبصرة، أسبابها، ومداها، وآثارها، ودور قائدها:

(أ) لـــثورة الزنج[1] التى قامت فى البصرة قيمة خاصة فى التاريخ الإسلامى ذلك لأنـــه يمكـــن القـــول بأنها كانت أول ثورة على النظم الإقطاعية فى العصر الإسلامى، ولأنها تلقى ضوءاً كاشفاً وعميقاً على طبيعة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بل والفكرية فى القرن الثالث الهجرى، ثم لأنها أخيراً تدل على حيوية الإنسان الأسود، وعدم قبوله بالظّلم، بل ومقارعته لهذا الظلم فى الوقـــت المناسب، ثم مسيرته فى العنف إلى غير غاية؛ ونحن نزعم ابتداء أن هـــذه الـــثورة الـــتى طالـــبت بحسم بالعدل الاجتماعى، وجعلت من همها المطالـــبة بـــتعديل وضـــع الإنســـان فى مجتمع ملىء بالتناقضات وبالقضايا الميتافيزيقية، وبالعبثية، وبالعدمية، فى الوقت الذى يعيش هذا الإنسان الأسود عـــلى حافـــة هذا المجتمع المريض حياة كالموت، أو موتاً كالحياة. أقول لو نجحـــت هـــذه الثورة لكانت خيراً وبركة على المجتمع العربى: ولتأخر قليلاً إنهيـــاره، ذلك لأن هذا المجتمع حين لم تحترم إنسانية الإنسان فيه، يتفتت من الداخل، وكان يذبل، ويتساقط ورقة ورقة، وفكراً فكراً.

وعـــلى كل فقد التهبت هذه الثورة حين كان المجتمع العباسى قد غدا مجتمعاً مريضـــاً، فى تـــلك الفترة التى اصطلح المؤرخون على تسميتها (العصر العباسى الثانى ٢٣٢-٦٥٦).

وفى هـــذه الفترة رأينا العباسيين ينقلون ولاءهم من الفرس إلى الأتراك وهم فى كـــلا الأمـــرين - جـــريا على وجهة نظرهم فى الحكم - قد غيروا من مكانة الإنســـان العربى، حتى غدا فى نهاية الأمر مضطهداً وبعيداً إلى حد ما عن تطور الأحداث.

وقـــد كـــان الـــتاريخ الحاســـم للتحول إلى الأتراك حين أراد الخليفة الثامن المعتصم - وهو ابن هارون الرشيد من أم تركية - أن يغير ميزان القوى فى الأمة بحيـــث تـــرجح الكفة إلى جانب الأتراك، وكان أن اتخذ له حرساً منهم يبلغ أربعة

(١) الزنج بفتح الزين: وتكسر: جيل من السودان، وهم الزنوج (القاموس المصباح).

آلاف، وكان أن بذرهم على أكثر من جهة حوله، وحين رأى التذمر يسود العاصمة (مديـــنة السلام) نراه يتحول بهم إلى مقر للخلافة جديد هو (سامرا) وهنالك ازدادت عزلـــته عـــن الجماهيـــر، وأصبح الأمر شيئاً فشيئاً يسلم إلى هذه الطبقة العسكرية الجديدة، وقد وصف هذا ابن الطقطقى بقوله: "إن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المـــتوكل عـــلى المملكة، واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة فى أيديهم كالأسير: إن شاءوا أبقوه، وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه"[١].

ومـــن خلال هذا كله تشجعت أجزاء من الأمة على الانفصال وبخاصة فى إيـــران ومصـــر، واختـــلت نظم الإدارة، وظهر ضعف الاقتصاد، وظهر أسلوب المصـــادرة بحيث يصادر الأقوى الأضعف فى سلسلة لا تنتهى، ولعل هذا يوضح إنشـــاء ديـــوان يســـمى "ديـــوان المصـــادرة" وفى الوقت نفسه قلت أهمية الخلافة والـــوزارة، وأخـــذت المكونـــات الاجـــتماعية تتحرك لتطالب بالعدل الاجتماعى، ولتحاول وقف حركة التصدع التى سرت فى النظام الذى يحكم الخلافة[٢].

والظاهـــرة الجديـــدة بالعناية هنا أن طبقة الفلاحين قد أخذ يظهر لها ثقل فى المعركة، فحين ثار "المبرقع اليمانى" فى عهد الخليفة المعتصم، انضم إليه الفلاحون فى مـــنطقة الأردن، وقـــد رئى عـــدم مهاجمته حتى يأتى موسم الزراعة، فما دام الفلاحـــون قـــد أصبحوا عصب هذه الثورة فإنهم بلا شك سينصرفون إلى الحصاد حين يجئ، وقد انصرفوا بالفعل وتمت تصفية هذه الثورة.

ثم إن ثورة الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن على بطبرستان كانت ترجع فى جانب منها إلى وضع اليد على أرض ينتفع بها كثير من الناس، وبخاصة الفلاحين الفقراء[٣].

والـــذى يهمنا هنا هو أن طبقة الفقراء كانت متذمرة، ويعتدى على حقوقها، وتســـلم الإقطاعيات الكبيرة للعسكريين الأتراك، وهذه الإقطاعيات كانت تحتاج إلى اليد العاملة من السود.

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ٢٢٠: تاريخ العرب ٢/ ٢٥٠.
(٢) العدد ٧٣ عن مجلة نهضة إفريقية، مقال عن ثورة الزنج د: عبده بدوى.
(٣) الطبرى ص١١ وما بعدها، دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص٥٩، وما بعدها، مجلة الهلال (العدد ٦ السنة ٧٥ مقال للدكتور على الخربوطلى.

وهــذه الإقطاعيــات لم يكن أمرها يسيراً، ذلك لأنها كانت تصل أحياناً إلى ولاية بأكملها على أن يؤدى منها، مبالغ وهدايا للعاصمة.

ثـــم إن هـــذه الإقطاعيات لم تكن مقصورة على العسكريين الأتراك، وإنما كـــانت لها جذور سابقة من قبل، وذلك عندما تحول كثير من العرب وبخاصة حين تنحى كثير منهم عن الصدارة فى عهد العباسيين.. إلى ملاك للأرض ثم قوى هذا الاتجـــاه بانتقال الحكم إلى العباسيين لعدة عوامل منها نكبة الارستقراطية الأموية، واشـــراك الأعـــاجم فى الحكـــم ممـــا أضعف عنجهية العرب، وقلل من شعورهم الارســـتقراطى فـــأخذ بعضهم يشتغل بالمهن الحرة ومنها زيادة الاختلاط بالفرس وتقدم المجتمع فى الحضارة وضعف الروح البدوية الأصلية، فأدى هذا الاتجاه إلى دخول المجتمع فى دور زراعى[١].

وبالإضـــافة إلى هذا كانت المكاسب كبيرة من التجارة التى تقوم بها الطبقة الوســطى للطــبقة العــليا، وكـــان التضخم المالى بدوره عاملاً من عوامل اقتناء المـــلكيات الكـــبيرة، ولمـــا كانت هذه الملكيات تحتاج إلى الأيدى العاملة الرخيصة والقـــادرة فى الوقت نفسه، فإنا نرى أنه سرعان ما تكونت "شركات" لشراء العبيد الســـود، أو اقتناصهم، ثم تكديسهم فى هذه المناطق وفى غيرها، ومن هنا ظهر ما يسمى بعبد الأرض وهو "القن"[٢].

ومع أنهم كانوا يغطون أكثر من موقع للخدمة، إلا أن تمركزهم الحقيقى كان فى ســـهول البصـــرة (فرات البصرة) ففى هذه المنطقة كانوا يقومون بعملية "كسح الســـباخ" عن الأراضى لتصبح أكثر جودة، أو بعبارة حديثة كانوا يقومون "بعملية استصـــلاح الأراضى" وذلك بكسح الطبقات الملحية وللوصول إلى الأرض الخالية مـــن الأمـــلاح والتى تكون بعد رفع هذه الطبقة عنها صالحة للزراعة، وفى الوقت نفسه كان يستفاد من هذه الطبقة الملحية "وهو عمل جاد شاق جداً"[٣].

(١) دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ١٩.

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ٢٨٣.

(٣) ظهر الإسلام ٧٠/١، الطبرى ١٧٤/١١.

وقد انضم إليهم فى هذه المنطقة بعض العبيد الذين أطلق عليهم "الأباق" ومن الأماكن المجاورة لكثرة الضغط عليهم[١].

ويجب ألا ننسى أن المشكلة قديمة، فمن قديم والزنوج يتكدسون بفرات البصرة، إلى حد أن الناس شكوا منهم وبخاصة بعد أن أمروا عليهم رباح شيرزنجى[٢]، وقد بعث الحجاج إليهم من قاتلهم، وكان مما قاله حين قدم البصرة: "يا أهل البصرة إن عبيدكم وكساحيكم رأوا معصيتكم فتأسوا بكم، وأيم الله لئن لم تخرجوا إلى هؤلاء الكلاب فتكفونى أمرهم لأعقرن نخلكم، ولأنزلن ما أنتم له أهل[٣]"، ويبدو أن الحجاج بعد أن شتت الكثير منهم، قد أصبحوا طائفة مستضعفة بعيدة عن التحرك كتكلة كبيرة فترة كبيرة من الزمن.

وعلى كل فإذا كنا قد عرفنا أنهم كثروا فى هذا المجتمع لرخص أثمانهم إلى حد أنهم لم يكونوا عند الأغنياء أوساط الناس فقط، ولكنهم كذلك عند الفقراء..[٤] إذا كنا قد عرفنا ذلك أدركنا أن تركيزهم الحقيقى كان فى سهول البصرة، لحاجة هذا العمل الشاق إليهم، ولقد كانوا فى هذه السهول يعملون على هيئة كتل بشرية كبيرة كل كتلة يتراوح عددها بين ألفى عبد وخمسة آلاف عبد، ولقد بلغ عدد إحدى الجماعات على نهر الدجيل خمسة عشر ألفاً[٥]، فهم يشبهون إلى حد ما نسميهم عندنا "عمال التراحيل"، ولقد كانت هذه الكتل السوداء منبوذة من المجتمع، ومتقوقعة على أحزانها، فقد كان أفرادها لا يتزوجون من خارج هذه الدائرة السوداء، وبعضهم كان يمنع من الزواج، وكثيراً ما كانوا يقعون فريسة للأمراض التى تنتشر فى مناطق العمل المليئة بالمستنقعات، كما أن عامتهم لا يفهمون اللغة العربية، وصلتهم كانت تنقطع بالأماكن التى يغدون منها وبخاصة شرق إفريقية، وبالإضافة إلى هذا كانوا يعملون بلا مقابل تقريباً، فأجرهم كان يقتصر على طعام غليظ مكون من الطحين، والتمر والسويق[٦].

(١) الطبرى ١٧٧/١١.
(٢) معنى شيرزنجى: أسد الزنج.
(٣) الجزء الحادى عشر من تاريخ مصنف مجهول ٣٠٣-٣٠٨.
(٤) ظهر الإسلام ٧٣/١.
(٥) الطبرى ١٧٧/١١.
(٦) الطبرى ١٧٦/١١.

ولا شك أنه كانت تصل إليهم الأفكار التى كان يمتلئ بها العصر، والتى كانت أسسها تساند عجزهم، وتدفعهم إلى التخلص من الماهنة التى يعيشون فيها ولقد تعاطفوا مع الشيعة لأنهم كانوا يحسون أنهم طائفة مظلومة من المجتمع، ومكبوتة فى الوقت نفسه، ولكن الفكر الذى كان يحركهم كان فكر الخوارج كما سيجئ بعد ذلك، وقد وقف (هاملتون جب) عند القول باتصالهم بالشيعة، كما رأى - وهذا ما لا نوافقه عليه - أنهم كانوا لعبة فى أيدى الشيعة.. واستغل الشيعة معارضو النظام السنى - مالدى هذه الطبقات من مظالم اجتماعية واقتصادية، غير أن ما أحرزوه من نجاح بين أعراب بادية الشام وأكارى السواد وعوام المدن اقتصر على خلق نواة للفوضى الاجتماعية، دون غايات بناءة أو مثل عليا ثقافية ولذلك لم تكن هذه الحركات الشعبية ذات أهمية كبيرة فى تطور الثقافة الإسلامية..الخ[1].

ونحن نعتقد أن المرتكز الفكرى لثورة الزنج كان هو فكر الخوارج الذى يقوم على الينابيع الأصيلة للإسلام دون تأول أو ترخص، والذى يقف ضد الشيعة الذين يقولون بوراثة الإمامة فى أبناء على، ويقف ضد المرجئة الذين اعترفوا بالأوضاع التى أملتها القوة ثم قالوا فلنرجىء الحكم إلى الله يوم القيامة، ثم إن فكر الخوارج يرى أن من حق الأمة إسقاط الحاكم الذى يحيد عن الطريق الذى سنه الله ورسوله، وفى الوقت نفسه تكون (الإمامة) من حق الذى (تختاره الجماعة حتى ولو كان عبدا أسود) وفى هذا نزعة ديمقراطية أصيلة، ديمقراطية دينية إن صح هذا التعبير، ثاروا بها على النزعة الأرستقراطية التى أراد أهل قريش فرضها فى اختيار الخليفة، وهم لهذا يطلقون على من يختارونه إماماً لقب (أمير المؤمنين) وتبعاً لهذه النظرية لم يعترفوا بالخلافة إلا لأبى بكر وعمر بن الخطاب ثم بعد ذلك لمن اختاروهم هم، أما عثمان فلا يعترفون بشرعية خلافته إلا فى السنوات الست الأولى منها، وعلى اعترفوا بشرعية خلافته من بدايتها حتى معركة صفين [٢].

وكما كانوا ضد سائر المذاهب، كانوا كذلك فى السلوك الإنسانى الدينى ضد جميع الفرق الأخرى، قالوا العبرة بالعمل، وكل كبيرة كفر، لهذا كان مخالفوهم

(١) دراسات فى حضارة الإسلام. ترجمة الدكاترة إحسان عباس، محمد نجم، محمود زايد ص٢٥
(٢) الخوارج والشيعة، يوليوس فلهوزن. ترجمة د. عبدالرحمن بدوى (ز) ، (ح).

(مـــرتدين)، ولمـــا كان حكم المرتد فى الإسلام هو القتل، فإنهم جاءوا بمبدأ يسمى (الاستعراض)[1]، ومعناه إعطاء المشروعية للاغتيال الدينى. فالرفض والعنف عند الخوارج هو الأساس الذى قامت عليه ثورة الزنج، ولقد كان هذا الفكر معروفاً فى العصر ومن مكوناته كما سنرى.. وبالإضافة إلى هذا المرتكز الفكرى، كانت توجد أيضـــاً أفكار القرامطة، ومع أن الدكتور على مصطفى الخربوطلى يرى أنها عامل مـــن عوامل قيام ثورة الزنج إلا أننا نرى أن هناك اختلافاً فى الدوافع والاتجاهات الـــتى كـــانت وراء أو أمام كل ثورة صحيح إنهما لو التقيا التقاء حميماً لتغير وجه التاريخ - كما يقول عارف تامر[2] - ولزالت الدولة العباسية من الوجود ولكن كل واحدة تختلف عن الأخرى اختلافا بينا.

ونحـــن نعـــرف أنـــه كـــانت هناك محاولة لاستيعاب هذه الثورة من جانب القـــرامطة، بل إن "حمدان قرمط" نفسه خرج ليفاوض.. على بن محمد بالقرب من البصـــرة، وكان فيما قاله له: أنه صاحب مذهب، يتبعه مائة ألف يحملون السيف، وإن فى اتحادهمـــا لحركة الزنج وقضاء على العرب، ولكن "على بن محمد" رأى عـــدم الاعتماد على القرامطة، أو الانضمام إلى صفوفهم، ولذا آثر "حمدان قرمط" العودة إلى مقره، فى انتظار ما يسفر عنه الصراع بين الزنج والسلطات العربية[3].

وقـــد ارتفعـــت بين السود فى أول الأمر دعوات تطالب بما جاء فى الكتاب الكـــريم "إنمـــا المؤمنون أخوة" كما أنهم دعوا إلى إيقاف العقاب البدنى، وقد أنشد شاعرهم هذين البيتين:

إن كـــنت تطـــلب فضـــلاً   إذا ذكـــــرت ومجـــــدا
فكـــن لعـــبدك خـــلاً   وكـــن لخـــلك عـــبدا

وقـــد وقفـــوا كثيرا عند الحديث الشريف الذى يقول فيه شر الناس من أكل وحـــده، ومنح رفده، وضرب عبده، وقد وجدت هذه المطالب المشروعة قبولاً عند كـــثير مـــن أحـــرار المسلمين الأتقياء، ولكنها وقفت عند حد الأمنيات الطيبة، وقد

(١) المصدر السابق نفسه (ح)، (ط).
(٢) القرامطة ٦٣، الهلال العدد ٦ السنة ٧٥.
(٣) المجتمع العربى ومناهضة الشعوبية د. إبراهيم العدوى ١٥٨، ١٥٩.

انتشــرت روح الــثورة بيــن جميع العبيد فى بلاد العراق، ولم يكن ينقصهم سوى زعيم ينظم صفوفهم ويبلور مشاعرهم وأفكارهم" [1].

(ب) من كل هذا نرى أن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت تدفعهم دفعــاً عــنيفاً فى اتجاه الثورة، بالإضافة إلى اعتناقهم "أيديولوجية" ثورية هى أيديولوجيــة الخــوارج، وقــد بدأت برفض الفساد الذى أخذ يستشرى حولهم والمتمــثل فى العفن الكامن فى الجهاز الحاكم وانعزاله عن اهتمامات الأمة، وانشــغاله بالــلذات الخاصة به، وبالمنتجات الخاصة به، وكذلك يرفض هذا الــلون مــن الإقطــاع الذى كان يأخذ كل شيء من الإنسان عملاً، وعرقاً، وصــحة، ثم لا يعطيه إلا القليل، ثم إن الشعور بالولاء الذى كان يربط العبد بســيده فى المجتمع الإسلامى لم يكن متوافرا عند هؤلاء السود[2] لأنهم كانوا منبوذين لا بالنسبة للبيض فقط، ولكن بالنسبة للعبيد البيض كذلك.

وفى ضــوء هــذا رأيناهم لا يطالبون بالحرية الفردية، ولكن بحرية طبقتهم العامــلة، ورأيــناهم يرفضــون النظريات المسبقة والجامدة، والتى ترسم للإنسان حركته بعد ذلك، فأولاد الطبقة العليا لابد أن يكون لهم دور فى هذه الطبقة، وأولاد الطــبقة الكادحــة لا يحــق لهــم ثقب الجدار الذى يحيط بهم، ومن هنا يأتى دور الثورات فى تحطيم أطر الثبات هذه من أجل مزيد من الحرية للإنسان.

وإذا كنا نعرف حديثاً[3] أن تركيب الثورة يتكون من ثلاث مراحل هى:

١- مرحلة الإرهاب.

٢- مرحلة حرب العصابات.

٣- مرحلة الحرب الشاملة.

ونعرف فى الوقت نفسه أنها تعتمد على سكان الريف، وعلى بلد صديق فى حــدود مشــتركة، وعلى امتداد وعمق الأرض اللذين يكملهما نقص المواصلات، وأخيــراً على غياب قوات للعدو منقولة بالطائرات.. إذا عرفنا ذلك أدركنا أن ثورة

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ٧٧.

(٣) الثائرون تعريب خيرى حساد ١٣٢ وما بعدها.

الـــزنج إلى حد كبير سارت في هذه الخطوط بعد أن أعطتها الأوضاع العفنة إشارة المرور الخضراء.

فهم قد قاموا في أول الأمر بعدد من الاستفزازات، ثم تحركوا بعد ذلك على جبهة عريضة في السهول الواقعة بين مصب دجلة العوراء - (شط العرب الحالي) وبين واسط،، وهذه الجبهة تكثر فيها المجاري، وتتكاثف داخلها الأدغال، ذلك لأن المســتنقعات كـــانت تغمر القسم الشمالي في الوقت الذي كانت فيه الأراضي حول دجـلة العـــوراء مغمورة بشبكة من القنوات الكثيفة: قدر عددها بمائة ألف قناة".. وطـــبيعي أن يســـاعد هذا الوضع الجغرافي على حرب العصابات، ويجعل حركة الجيـــوش المنظمة أمرا عسيرا كما يساعد على إطالة أمد الحرب، وعلى المباغتات الـــتي تنشـــأ عن جهل المهاجمين بالمسالك الخفية والقنوات المتعددة، وأخيراً تجعل إقامـــة وســـائل الدفـــاع أمـــراً سهلاً، وإزالتها أمرا صعباً، وقد استغل الثوار هذه الأوضـــاع، ولم ينجح الجيش العباسي في محاربتهم وإخضاعهم إلا بعد أناة طويلة ومعـــرفة جيـــدة للمنظمة بعد خبرة طويلة وخسائر فادحة[1] والملاحظ أن الزنج لم يقفـــوا وحدهم، ذلك لأن جماعات كثيرة من الساخطين قد انضمت إليهم، فقد ساعد بعض الأعراب الزنج في الهجوم على البصرة عام ٢٥٧هـــ، وحين تمكنت السلطة مـــن ضـــرب الباهليين وصلب رئيسهم عام ٢٥٨ انضم باقي رؤسائهم إلى الزنج، وفي عـــام ٢٦٦ نهب جماعة من الإعراب كسوة الكعبة، وانضم بعضهم إلى ثورة الزنج، كما أيد بعض أهالي القرى في منطقة البصرة الثورة، وزودها بالتموين.

بـــل إن الأمر لم يقف عند حد التأييد من المدنيين للساخطين، ذلك لأن الفرقة السودانية في الجيش العباسي قد انضمت إلى الثورة صراحة [2].

ونحن نعرف أن سير المعركة بدأ بغارات على القرى المجاورة، ثم امتد إلى المناطق الحيوية مثل مرفأ "الأبلة" الهام والقريب من البصرة ثم أخذ يوجه بعد ذلك الضـــربة أثر الضربة حتى خضعت للثورة مناطق كثيرة، بالإضافة إلى أن كثيرين تركوا المنطقة، وبخاصة أهل البصرة[3].

---

(١) دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص٨٠.
(٢) الطبري ٢١٨/١١، دراسات في العصور العباسية ٨٣، ظهر الإسلام ٧١/١.
(٣) الطبري ٢١٥/١١.

والملاحظ أن هذه الانتصارات لم تكن عشوائية، وإنما تمت بتخطيط دقيق، وبمهارة فى استخدام المواقع وتحصينها، والمحافظة على خطوط التموين، وعلى المواصلات، وقد استخدم نظام الجاسوسية بمهارة، وكذلك حرب "التبييت" أى الكمائن سياسة إلقاء الرعب فى الجيش المضاد[1]، بالإضافة إلى إنشاء السدود فى القنوات والأنهار لعرقلة سفن البحرية، وعرقلة الجيش البرى كذلك.

والملاحظ أنهم كانوا فى عمليات تقدمهم يأخذون العبيد ويحررونهم[2] مما يلقى ضوءاً غامراً على أن هدفهم الكبير كان تحرير العبيد.

وقد رأيناهم مثلاً حين عزموا على إسقاط البصرة، يقطعون مواصلاتها بدجلة، ثم يضربون عليها حصارا اقتصادياً: ثم يخربون المدن من حولها، ثم نراهم فى ١٧ شوال عام ٢٠٧هـ يركزون الهجوم عليها فى أثناء صلاة الجمعة من ثلاث جهات، وهناك أعملوا القتل والسلب ثم انسحبوا خوفاً من وجود "الكمائن" ثم عادوا يوم الإثنين ففتحوها، فقتلوا منها ما يقارب ٣٠٠,٠٠٠ إنسان، وكذلك سبوا النساء والأطفال حتى كان نصيب كثير من الثائرين عشرة أرقاء أو أكثر لكل واحد منهم[3]، وهم الذين ثاروا أصلاً من أجل تحرير الرقيق، وقد خدعوا أهل البصرة حين أعطوا أماناً لكل من يتوجه إلى مكان بعينه، فلما ذهب كثير من الناس إلى هناك غدر بهم.فكان السيف يعمل فيهم وأصواتهم مرتفعة بالشهادة، فقتل ذلك الجمع كله ولم يسلم إلا النادر منهم، وعظم الخطب بالقتل والتحريق والنهب فمن كان من أهل اليسار أخذوا ماله وقتلوه، ومن كان فقيراً قتلوه لوقته[4] وكان القائد "أبو الليث" يحض الزنوج على القتل بكلمة "كيلو" حتى أفنى المدينة[5].

وقد ضربنا هذا المثل الذى تكرر أكثر من مرة لنوضح أن الثورة انحرفت عن هدفها الأصلى وهو تحرير العبيد اجتماعياً وإنسانياً، ذلك لأنا سنراهم بعد ذلك يكونون "قومية سوداء" مسيطرة، تفعل بالناس لا مثل ما فعلوا بهم ولكن أقسى بكثير مما فعل بهم.

---

(١) دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ٨٦ وما بعدها.
(٢) الطبرى ٢١٣/١١، ٢٧١.
(٣) دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ٨٨.
(٤) بطولات عربية محمود الشرقاوى ٤٨.
(٥) الطبرى ٢٢١/١١.

ولكى نعطى صورة عامة عن فظائع هذه الحرب التى استمرت طوال أربعة عشـــر عامـــاً (٢٥٥-٢٧٠هـــ -٨٦٩-٨٨٣م) نذكر أن ضحاياها قدر بأكثر من نصف مليون، وعقب إحدى المعارك كان عدد رءوس المسلمين التى لم تطلب من الكـــثرة لدرجة أن الزنوج أفرغوا رءوس القتلى هذه فى إحدى القنوات التى حملتها إلى البصـــرة ليـــتعرف عـــليها أهلوهم وأصدقاؤهم، ولقد هجر الناس بلاد البصرة وواسط والأهواز والأبلة.[١]

وعلى كل فنحن قد رأيناهم أخيراً يتحولون عن الأهداف الحقيقية للثورة إلى حـــد أن الذين كانوا يتعاطفون معهم قد كرهوهم، بل إن بعض السود قد انقلبوا على الـــثورة حين رأوها تسير وراء الدماء، وحين رأوها لا تستطيع كبح جماح عنفها، وإلى حـــد أن الناس قد تنافروا "للجهاد" ضدهم[٢]، بالإضافة إلى عداوة الطبقة العليا للـــثورة أساساً حين رأت مصالحها معطلة، وحين رأت هذه المساواة التى يتصايح بهـــا ســـتجعلهم وعبيدهم شيئاً واحداً،[٣] ولقد كان مما أثر على الناس حقاً أنه كان يـــنادى فى معســـكرات الزنج على القرشيات، وبنات العرب، و"بنات الناس" وتباع الجاريـــة مـــن كل هؤلاء بالدرهمين والثلاثة، لكل زنجى منهم العشرة والعشرون والثلاثون يطؤهن الزنج، ويخدمن النساء الزنجيات، كما تخدم الوصائف[٤].

وهكـــذا تحولت أهداف هذه الثورة من العدالة الاجتماعية إلى نوع من حرب الأجناس، فبدلاً من أن يطالبوا بتصفية الرق وإتاحة الفرص لهم فى المجتمع طالبوا بأن يكونوا سادة يمتلكون العبيد، وبوجه خاص يمتلكون سادتهم القدامى.

وقد حلل هذه الثورة بالإضافة إلى ثورة القراطمة الدكتور طه حسين[٥]، فقد رأى أن طابعهمـــا معاً كان "الخروج على النظام السياسى والاجتماعى، والانتساب إلى آل عـــلى، وغايتهما واحدة، هى تحقيق العدل فى الأرض بعد أن أفسدها الظلم والجور، ونتيجتهما واحدة هى هذا الروع الذى ملأ القلوب، وهذا الهول الذى سفك

(١) تاريخ الغرب ٦٠٥/٢.
(٢) دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ١٠٤.
(٣) إمبراطورية للعرب: جون باجوت جلب ترجمة خيرى حماد ٢٢٠، ٢٢١.
(٤) مروج الذهب ٣٥٠/٣.
(٥) ألوان ١٨٣.

الدمــاء، وأزهق النفوس ودمر الأمصار، وهذا الجهد الضائع الذى لم يزل ظلماً إلا ليقيم مكانه ظلماً آخر، والذى يحاول أن ينصف الناس فلا يبلغ من الإنصاف شيئاً، أكــتب على الإنسانية إذن أن تكون الجهود التى تبذلها فى سبيل الإصلاح مضيعة، وأن يصــبح الذين يحاولون إزالة الظلم وقرار العدل أنصاراً للظلم وأعداء للعدل، كــانوا يــريدون أن ينقذوا أنفسهم وينقذوا الناس من الظالمين، فلم يكتفوا بالإنقاذ ، وإنمــا جــزوا السادة ظلماً بظلم، فكان هذا أول الشر، ثم تجاوز ظلم الظالمين من الأعــداء إلى ظلم الأنصار والأتباع، فأصبحت الحرية استبداداً، وأصبحت المساواة استئثاراً، وأصبح الإنصاف بغياً وعدواناً.

وعــلى كــل فقد أعطى هذا "للموفق" [١] الذى يقول الدكتور طه حسين أننا نظــلمه إذا وازنا بينه وبين"كراسوس" قامع ثورة العبيد فى إيطاليا[٢]. أعطى هذا له كــل أســباب الانتصار على الزنج، فقد ركز على الإحاطة بطبيعة المنطقة وعلى تــأمين خطوطه وعلى الحصار الدقيق للمنطقة التى يهيمنون عليها، ثم إنه قد أمن كــل مــن يضــع السلاح، وقد كان لهذا أثره إلى حد أن قائد الثورة قتل "ابن ملك الــزنج" حين عرف أنه يريد اللحاق بالموفق[٣]، وأخيراً استطاع أن يخرب الثورة من الداخل ومن الخارج حتى أمكنه تصفيتها تماماً، وإسقاط رءوس قادتها، وبعد أن تــم له هــذا أصدر الموفق "منشوراً" [٤] يبشر فيه العالم الإسلامى بانتهاء الخطر، ويدعو الناس إلى العودة إلى مدنهم وقراهم وإلى استئناف حياة جديدة.

(ج) إذا كــان بعضهم يذهب إلى أن الفرضية القائلة بأن الثائرين هم الذين يخلقون الــثورات" فرضــية صــحيحة من الناحية الزمانية، بقدر ما هى صحيحة من ناحيــة الحوافــز الإنســانية[٥]" فإنا نميل إلى القول بأن الإحساس بالظلم وبأن الثورة فى النفوس المتطلعة إلى الخلاص هى التى تخلق الثورى.

---

(١) أخو الخليفة المعتمد.

(٢) ألوان ١٨٦.

(٣) الطبرى ٢٩٥/١١.

(٤) نفسه ٣٢٦.

(٥) الثائرون ١٦.

فلو لم يوجد "على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن يزيد بن على بن الحسين بـن عـلى بن أبى طالب) فى هذه الفترة، لأوجدت الثورة زعيماً آخر يستطيع أن يسير بها مرحلة بعد مرحلة حتى يحقق غايتها، والمقصود منها.

وفى الحقيقـة لقـد ظلم هذا الزعيم ظلماً كبيراً، فالطبرى مثلاً يقول عنه إنه (الفاسق) و(الخبيث) فى كل كتابه (تاريخ الرسل والملوك)، وقد تنبه مرجليوث إلى أنـه يطـلق عليه عادة اسم (القبيح)[1]، وفى جمهرة أنساب العرب نجد صاحبه لا يكـف عـن كـلمة اللعين، و(كلمة لعنه الله) عقب ذكر اسمه مثل قوله (سعيد بن ضمضـم بـن الصـلت بن المثنى بن الملحق، أعرابى شاعر من صحابة الوزير الحسـن بـن سهل، وكان له ابن اسمه أبو المهدى، وكانت له ابنة تزوجها صاحب الزنج لعنه الله قبل أن يقوم)[2].

وقد انعكست هذه النبرة على عدد من المؤرخين المعاصرين فالدكتور فيليب حـتى يقول عنه: إنه ماكر يظهر خلاف ما يبطن [3] ومحمد عبدالغنى حسن يقول: واختار المدعى الخبيث يوم عيد الفطر سنة ٢٥٥هـ يوماً لإعلان ثورته [4].

ومثل هذه النبرة نجدها عند الدكتور زكى المحاسنى[5].

وقـد كـان مـن الطبيعى امتداداً لحملة التشهير أن يشكك هؤلاء فى نسبة العلوى، بل لقد ذهب بعضهم إلى أن اسمه هو (بهبوذا) وأصله من (ورزنين) ولما كانت (ورزنين) قرية من قرى (الرى) فإن المقصود أن يكون فارسيا[6].

ونحن نميل إلى ما ذهب إليه (بروكلمان) من أن نسبته حقيقية لما كان عليه بيت زيد بن على من كثرة العدد آنذاك[7].

---

(١) دراسات عن المؤرخين العرب ترجمة د. حسين نصار ٧٩.
(٢) جمهرة أنساب العرب ٥٨. ٢٨٣.
(٣) تاريخ العرب ٦٠٥/٢.
(٤) دراسات فى الأدب العربى والتاريخ ٢٦٥.
(٥) شعر الحرب فى أدب العرب ١٦٥ وما بعدها.
(٦) الطبرى ١٧٤/١١: دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ٨١.
(٧) تاريخ الشعوب العربية ٥٦/٢.

فوالـــده علوى تزوج من زنجية على نحو ما يبدو من لونه ومن سحنته التى كانت قريبة من لون وسحن هؤلاء الذين عمل على تحريرهم، فنسبه يمتد إلى على بـــن أبى طـــالب وهو فى الوقت نفسه وطيد الصلة بالزنج (ذلك لأن العلويين أمام الضغوط السياسية عليهم، وحرماهنم الحقوق التى يجب أن تتوافر للمواطن المسلم، كـــانوا يميـــلون أكثر ما يميلون إلى التزوج من الإماء الزنجيات، ومن واحدة من هؤلاء ولد الإمام على بن محمد[١].

ومن الملاحظ أن ابن حزم يشدد فى غضب على أنه لا يمت بصلة للعلويين، وأنـــه (عـــلى بـــن محمد بن عبدالرحيم العبقى) من قرية من قرى (الرى) اسمها (ورزنيـــن)، وهناك رواية على لسانه تقول : إن أبا أبيه عبدالرحيم رجل من عبد قيـــس، كـــان مولـــده بالطالقان، وأنه قدم العراق فأقام بها، واشترى جارية سندية فأولدهـــا محمداً أباه، فهو على بن محمد، ثم أنه شخص – فيما ذكر إلى البحرين، وأدعى أنه على بن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب، ثم ذكر أن على بن محمد دعا الناس بهجر إلى طاعته، واتبعته جماعة، وابـــته جماعـــة، وتشـــاحنت الجماعتان فانتقل إلى الإحساء، وفى البحرين حل من الـــناس عـــلى حـــد تعبيره محل النبى، وجبى له الخراج، وسمعوا له، ودفعوا عنه السلطة الحاكمة، ولكنه وترمنهم جماعة كبيرة، فتنكروا له، ومن ثم رحل عنهم إلى الـــبادية .. ثـــم كـــان خروجه إلى البصرة، والدعوة إلى نفسه، ولكنه طورد عنها فخرج هاربا[٢].

والـــذى يهمـــنا أن نؤكـــده أنه كان واحدا من القلقين فى عصره، والذين لم يـــنعزلوا عـــن المشكلات من حولهم، والذين تركوا على أكثر من رقعة فى العالم الإســـلامى فقـــد رأته بغداد، وهجر، والإحساء، والبادية وفى كل واحدة من هؤلاء كـــان له دوراً كبير أو صغير، فقد كان بحق عاصفة من العواصف على عصره، وعـــلى هؤلاء العباسيين الذين كان يعتقد أنهم اغتصبوا الخلافة من أسرته ولقد كان مما يحركه فى هذه الوقت المبكر أنه رأى الخلافة تنهار. ورأى الظلم هو القانون؛

(١) راجع شخصيات إفريقية. د. عبده بدوى ص٥٦.
(٢) جمهرة أنساب العرب. تحقيق عبدالسلام هارون ص٥٧، تاريخ الطبرى ٤١٠/٩ و٤١٢.

ورأى أن أشـياء كـثيرة تذبـل فى نفس الإنسان؛ وأنه يجب أن لا يكون (شاهد) حضـارة تسـقط.. فإنه لم يكن فى استطاعته أن يمنع هذا السقوط فليعمل على أن يـتأخر قـليلاً.. كـان يعيـش فيمـا يقول المؤرخون ببغداد متصلاً ببعض الخدم المعـروفين فى قصر الخلافة، يرى الفساد يملأ الأرض من حوله: كان يرى فساد السياسة؛ وفساد النظام الاجتماعى، وفساد الأخلاق وعبادة اللذة هنا وعبادة المطامع هناك، كان يرى الحياة من حوله مغامرات لا تنتهى)[1].

ووفقـا لمفـاهيم عصـره كـان لابد أن يأتى بشىء يدهش الناس. ويجمع أحاسيسـهم مـن حوله، كالقول بأن العناية الإلهية ترشده وتؤيده، وأنه يعلم ما فى الغيـب، وأن النـبوة عرضت عليه ولكنه اكتفى بالإمامة، وعلى كل (فقد كان هذا النحو مذهباً من مذاهب نشر الدعوة، ووسيلة إلى إثارة الجماهير)[2].

والـذى يهمـنا هنا أن نؤكده أن هذا الزعيم كان فقيراً ومضطهداً، وأنه كان يرى أن خلاصه وخلاص كل المدحورين من حوله لا يكون فى الاندماج فى حركة المجـتمع، وإما يكون فى الانسحاب منه ثم الاصطدام ومع هذا المجتمع ومحاكمته، وإحداث حركة تغيير شاملة فيه بعد دراسته، والوقوف على نقاط الضعف فيه.

وقد أطال (على بن محمد) النظر فيمن حوله، ومع أنه رأى الفساد هو السيد فى كـل مكـان، وأن بشـراً كثيرين يعيشون حياة كالموت، إلا أنه وجد أن الحلقة الضعيفة فى السلسلة هى هذه الحياة القاسية التى يحياها الزنوج فى (معازلهم) حول البصـرة، فـإذا تجاوزنا صلة (اللون) التى تربطه إلى حد ما بهم، وجدنا أنه كان موفقاً لاختياره هذه الشريحة البشرية الكبيرة من السود، ذلك لأنها كانت (تشك) فى القيـم الـتى تحكم الحياة من حولها، والتى يستحيل أن تكون عادلة، ومن هنا فإنها أخـذت (تـرفض) كـثيراً من الأشياء التى تحيط بها، ولما كان الشك، والرفض، يقـودان إلى التمرد والثورة وأن كل هذا يستدعى (الرمز) وجدنا هذا الزعيم يتلقف راية المبادرة.. ثم يسير على طريق الثورة.

---

(١) انظر ألوان د. طه حسين ١٧٥، ١٧٧.

(٢) المصدر السابق ١٧٧؛ الطبرى ١١/١٧٦ وما بعدها.

وهو لم يكن غافلاً عن السود من فترة كبيرة قبل اندماجه معهم فهو من فترة كـان يسـأل عـن أخبار (غلمان الشورجيين) وعن مقدار ما يجرى لكل منهم من الدقيق والسويق والتمر[1].

ثم إنه طلب إحضارهم إليه بعد أن رفع حريرة على المردى[2].

ثـم سـار فى يوم وأخذ خمسين غلاماً من (الشورجيين)، وفى موضع أخذ خمسـمائة، وفى موضع خمسين ومائة غلام، وفى موضع ثمانين (ثم لم يزل يفعل ذلـك كذلك فى يومه حتى اجتمع إليه بشر كبير من غلمان الشورجين)، ثم قام فيهم خطيبا، فمناهم ووعدهم أن يقودهم، ويرأسهم، ويملكهم الأموال، وحلف لهم الأيمان الغـلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم، ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى إليهم، ثم دعا مواليهـم فقـال: قد أردت ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضـعفتموهم، وقهرتموهم، وفعلتم بهم ما حرم الله عليكم أن تفعلوه بهم، وجعلتم عليهم مالا يطيقون، فكلمنى أصحابى فيكم فرأيت طلاقكم.

فقـالوا : إن هـؤلاء الغـلمان أباق، وهم يهربون منك فلا يبقون عليك ولا علينـا، فخـذ منا مالا وأطلقهم لنا، فأمر غلمانهم بضربهم، فبطح كل قوم مولاهم ووكيلهم، فضرب كل رجل منهم خمسمائة ضربه[3].

ومـن واقع إيمانه بهم نراه يزوج إحدى ابنتيه من (سليمان بن جامع) وكان سليمان هذا (عبداً أسود كيالا) من أهل هجر[4].

ومـن الملاحظ أنه قصر اهتمامه على الطبقة العاملة الناصبة، وأنه أخلص لها الإخلاص كله، ولم ينظر أبعد من هذه (الدائرة السوداء) وهذه نقطة ضعف فى هذه الثورة.

---

(١) الطبرى ١١/١٧٠.

(٢) خشبة يدفع بها الملاح السفينة وكان عليها "أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون فى سبيل الله".

(٣) تاريخ الطبرى ٦/٤١٣، ٤١٤.

(٤) جمهرة أنساب العرب ط٣ ص٥٧.

فمع أنه كان يستطيع بضربة واحدة أن يلغى الرق إلا أنه لم يفعل، ذلك لأنه كان يريد أن يسترق الناس لهم، فالمعروف أنه كان فى كل عمليات زحفه يستخلص العبيد ويحررهم، إلا أنه فى الوقت نفسه كان يسترق لهم "أسرى المسلمين" (١)، فقد سبق أن وعدهم بذلك على نحو ما مر بنا، وبخاصة استرقاق سادتهم السابقين، ونحن لا ننسى أن هؤلاء السادة حاولوا مساومته على استرداد العبيد على أن يدفعوا عن كل رأس له خمسة دنانير، وفى الوقت نفسه خوفوه منهم، ولكنه سار فى الطريق الذى رسمه لنفسه وهو أن يقيم "قومية سوداء مسيطرة" على هؤلاء المسلمين الذين فقدوا الكثير من مقومات إسلامهم، ومقومات إنسانيتهم، وقد كان يتعمد إهانتهم وإهانة من ظفر به من نسائهم ، فى غير ضعف أو تردد، وقد كبر هذا الأمل فى نفسه حين تكررت انتصاراته، وازدادت الرقعة التى يقف عليها.. فمن فوق هذه الرقعة حلم – من وجهة نظرنا بتصفية النفوذ التركى، وبأن تعتمد الخلافة على ركيزة جديدة من السود المتساويين فى الحقوق مع غيرهم وقد وهم أنه لا يستطيع أن يفعل هذا إلا من خلال هذه "المادة الغفل" الجديدة.. إلا من خلال هؤلاء السود.

ونحن نعتقد أنه بعد أن قال بنسبه العلوى ومعنى هذا التزامه بما يلتزم به الشيعة – قد رأى أن المرتكز الفكرى الذى يجب أن يستند إليه لن يكون المرتكز الفكرى والذى يقول بوراثة الحكم، وكل من العباسيين والعلويين يأخذ بها، وإنما يقوم على هذا المبدأ الذى يقوم على نزعة ديمقراطية أصيلة ديمقراطية دينية إن نصح التعبير(٢) تسوى فى هذا الأمر بين العبد الأسود وبين غيره من المسلمين، وهذه النزعة هى نزعة الخوارج، وبخاصة إذا أدركنا أن البصرة لم تكن علوية كالكوفة، وقد أدرك هذا المؤرخون القدامى والمتحاملون عليه حين تكلموا عنه وعن الأزارقة(٣).

---

(١) الطبرى ١٨٢/١١.

(٢) الخوارج والشعية (ز).

(٣) هم جماعة من الخوارج ليسوا من الدهماء والرعاع كما يقول خصومهم، بل بالعكس كانوا أتم سلاحاً وعتاداً من أولئك الخصوم، واسمهم إذا كان يرجع إلى حنفى من بنى حنيفة، فقد كان العرب منهم أغلبهم من بنى تميم (الشيعة والخوارج ص٨٤، ٩٢).

فقد قال المسعودى (إنه كان يرى رأى الأزارقة من الخوارج، لأن أفعاله فى قتل النساء والأطفال، وغيرهم من الشيخ الفانى وغيره، ممن لا يستحق القتل يشهد بذلك عليه)[1].

ومـــثل هـــذا يقـــول عـــباس القمى، ويضيف بأنه وعد كل من أتى إليه من الســـودان أن يعتقه ويكرمه[2] والملاحظ أن هؤلاء المؤرخين وغيرهم لم يقفوا عند فكـــرة الحرية والعدالة الاجتماعية التى شغلت العبيد، وإنما اكتفوا فقط بالحديث عن (صاحب الزنج) كما يسمونه فى أحسن الحالات.. وعلى كل فنحن نعتقد أن هؤلاء الســـود هم الذين حولوه إلى اعتناق فكر الخوارج بدليل أنه قال إنه علوى فى أول الأمـــر، ثم لم يعد يلح فى ذلك فقد كتب على لوائه الآية الكريمة : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقد خطب فيهم يـــوم العيد فى مسجد السوق على نهر ميمون، وجاء فى خطبته ما كان عليه السود مـــن ســـوء الحـــال، وأن الله قد استنقذهم به من ذلك، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم، ويملكهم العبيد والأموال والمنازل، ويبلغ بهم أعلى الأمور[3]، ثم حلذلهم على ذلك. ثـــم إنـــه اكـــتفى بكتابة اسمه واسم أبيه على العلم من غير ذكر لأصله، ولعل هذا بالإضـــافة إلى عدم إلحاحه على أصله هو الذى جعل الكثير من المؤرخين يذهبون إلى أنه دعى النسب.

فانطلاقـــه الحاســـم مـــن وجهة نظر الخوارج داخل انصهاره فى مشكلات الزنوج كان أمراً طبيعياً وعليه أكثر من دليل، وانحصاره داخل مشكلات هذه الكتلة الســـوداء الكبيرة، تجعل القول بأن مبادئه كانت مبادئ (المزدكية) الفارسية شيئاً لا يستند إلى دليل[4]، ومثل هذا القول بأن فكر القرامطة كان وراء هذه الثورة، ومثل هـــذا القـــول أيضـــاً ما ذكره أحمد أمين (وربما عد ما يشبه عمل الصعالكة عمل الزنوج فى ثورتهم المشهورة بثورة الزنج)[5].

---

(١) مروج الذهب ٣٤٤/٢.

(٢) الكنى والألقاب ٣٩٦.

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ٤١٥/٩.

(٤) دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ٧٨ نقلاً عن سياسة ناسة ٢٨٥.

(٥) الصعاليك والفتوة فى الإسلام ١٠١.

كـان للثورة هدف اجتماعى محدد، ولكن الظروف من داخل الثورة نفسها، ومـن داخـل العصر لم تسمح بأن يصل هذا الهدف الاجتماعى إلى غايته، وهكذا طويـت صفحة من صفحات المطالبة بالعدل الاجتماعى فى هذا الوقت المبكر الذى لـم يكتشـف فى أوربـا إلا فى القرن التاسع عشر، أو فى عصر الثورة الفرنسية الكـبرى (فـنحن إذن لسنا عيالا ولا يمكن أن نكون عيالاً على المطالبين بتحقيق العدل، والثائرين على الظلم الاجتماعى من الأوروبيين، وإنما نحن أبعد منهم عهداً، وأشد منهم ممارسة لهذا النحو من محاولة الإصلاح[1].

وإذا أردنـا أن نتبين ملامح هذا الزعيم النفسية والخارجية من شعره، وجدنا هـناك مـن يسـرع – كالعادة – ليقول إن هذا الشعر ليس له، على نحو ما ذكر المرزباى[2]، وقد أنصف الحصرى [3] حين قال (زعم أبو بكر بن دريد أنه قد عمل لـه أكـثره (أكثر شعره) وما أرى هذا يصح لأنه لا يشاكل طريق ابن دريد) فهو ممتـلىء بالألم لما يجرى هناك فى قصور بغداد، وهو عازم على إزعاج أهل هذه القصور:

لهـف نفسـى عـلى قصور بغدا	دَ ومـا قـد حَوَتْـه من كلّ خاص
وخمـور هـناك تشـرب جَهْـرًا	ورجـال عـلى المعاصـى حراص
لسـت بـابن الفواطم الزهر إن لم	أقحـم الخيـلَ بين تلك العراص[4]

وهو ينصح العباسيين فى أول الأمر، ويبين لهم الخطأ فى تسليم الأمور إلى الأتراك...

بـنى عمـنا لا توقـدوا نـار فتنة	بـطىءٍ عـلى مـر الليالى خمودها
بـنى عمـنا إنـا وأنـتم أنـامل	تضـمنها مـن راحـتيها عقودهـا
بـنى عمـنا وليـتم الـترك أمرنا	بديـئا وأعقابـا ونحـن شـهودها

(١) ألوان ١٦٧.
(٢) معجم الشعراء ١٤٨.
(٣) ذيل زهر الآداب ١٢٥.
(٤) ذيل زهر الآداب للحصرى ١٢٥، ومعجم الشعراء ١٤٨.

فأقســم لا ذقـت القراح، وان أذقْ ببـلغة عيـش، أو يـبار عميدها[1]

وهو ابتداء يرفض هذه الحياة المرجة متى يتصارع عليها فيقول:

أســمعانى الصــياح بالأمــليس وصــياح العيــرانة العيطمــوس[2]
واتــركانى مــن قــرع مزهر ريا واخــتلاف الكــئوس بالخــندريس
ليــس تبــنى العــلا بــذاك وهذا لكــن الضــرب عن أزم الفروس[3]

وقريب من هذا قوله :

لقـــد عـــلمت هـــائم أنـــنا صــباح الوجــوه غــداة الصــياح
وأنـــا إذا ذعـــرت فى الـــوغى ذيــولُ الــرياح ذيــول الــرماح
نســوق الســيوفَ بدفْــع الحُتوف ونُــنكى الجــراحَ بكــف الجــراح
ونســمو ســماحاً أكــف الســماح بقســم رمـــاح، وبيــض صــفاح
وقـــــرم صـــــبحناه فى داره بكــلّ أقــبِ، ونَهْــد وقـــاح
فغـــور بعـــد عـــناق المـــلاح ضــجيع الــنجيع مــراح الجــراح
قــليل الأنيـــن، مـــذال الجـــبين مهيــن الســلاح، مهيــض الجــناح
صــلى نـــور عيـــنى بنور الأقاح وراح الأكـــــف بمـــــاء وراح
فمــا طــول عشــقى مزاج الملاح بمشــتغل عــن صــياح الصياح[4]

وهـــا هى أبيات تدل تمامًا على ثقته بنفسه، وعلى روح الكراهية الكامنة فى نفسه للحكام من حوله :

وإنـــــا لنصــــبحُ أسْــــيَافُنا إذا مـــا اصــطحبنا بيــوم سَــفوك
مـــنا بـــرهن بطـــونِ الأكـــف وإغمــــادُهن رؤوس المــــلوك

(١) ذيل زهر الآداب ١٥٧.
(٢) الأمليس : العلاه ليس بها نبات. العيطموس: التامة الخلق من الإبل والنساء.
(٣) ذيل زهر الآداب ١٥٦.
(٤) المصدر السابق نفسه ١٢٥.

ومـــا لى فى الخــلق مــن مُشْــبهٍ ولا فى اكتســاب العلا من شريك[1]

ومما نسب إليه من شعر أشبه شيء به قوله :

بـــبيض الصـــفاح، وسمر الرماح طلـــبتُ الْعُـــلا، وعـــلوتُ الــرتبْ

وإنى كالشّـــــمس بى يهــــتدى إذا غطــت الشـمس ســودُ السحب

وقد ننظر إليهما المتنبى فى قوله :

تــركتُ لأطــراف القنا كلَّ شهوة فـــليس لـــنا إلاَّ بَهـــن لعِـــابُ

وإنى لـــنجم يَهْــتدى صُــحبتى به إذا حـــال من دون النجوم سحاب[2]

... وقد أورد أبو العلاء المعرى أمره فى رسالته إلى ابن القارح، حين أورد أبياتاً له ثم قال (وما أدفع أن تكون قيلت على لسانه.. وهذه الأبيات هى:

قتــــلتُ الــــناس إشــــفاقا عــلى نفســى كى تــبقى

وحـــزتُ المـــال بالســيف لـــكى أنعـــم، لا أشـــقى

فمـــن أبصـــرَ مـــثواى فـــلا يظـــلم إذن خـــلقا

فواويـــلى إذا مـــا مـــتُ عـــند الله مـــا ألـــقى

أخـــلدا فى جـــوارِ الله أم فى نـــاره ألـــقى

وقد علق على هذه الأبيات الدكتور زكى المحاسنى فقال: (إن العلوى ينبغى أن يكـون قالهـا فى أوائل ثورته، وقبل أدعائه النبوة واشتراعه نهب المال وسبى العـرض، ففيها تظلم وتبرير لسبب قتله الناس، فهو قد قتل الناس من خوفه الموت عـلى نفسه لأنه إذا ترك قتل الناس قتلوه، وما أحسب هؤلاء الناس الذين عناهم إلا العباسـيين الذيـن قتلوا العلويين بالسيف.. ثم فسر ثورته بأنه قام بها ليحوز المال بالسـيف فكـان له ذلك، لأن حقه فى نعيم الحياة وبقاء العمر حملاه على عمله، ثم توقـع لنفسـه المـوت، فكان يرى حتفه بين عينيه.. ثم يظهر فى بيتيه الأخيرين

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) الإبانة عن سرقان المتنبى للعميدى ص١٦٢

خشـــوعاً لله وخوفـــاً من ناره، ولعل ذلك كان منه على الحقيقة أول أمره أو خداعاً للزنوج الذين ذهبوا معه)[1].

ونحـــن نشك ابتداء فى أن هذه الأبيات له، فتركيب الجملة، وغنائيتها، وذكر التـــبرير، وإيـــراد بعض الكلمات مثل (فواويلى)، بالإضافة إلى هذه الانسيابية فى التعـــبير.. كـــل هـــذا يؤكد أن هذا الشعر ليس له إذا قسناه بما قال من شعر أو إذا وضـــعناه فى مواجهـــة الحياة التى عاشها (على ابن محمد) أما القول بأن قالها فى أوائل الثورة وكأنه كان لا يغلى فى هذه الفترة حتى يقول هذا الشعر العدمى والقول بادعائـــه النبوة وكأنه ادعى النبوة إن صحت فى أوائل ثورته المفروض أنها ثورة الـــزنج فشيء لا يمكن قبوله على إطلاقه.. ثم إن تاريخ حياته يتعارض مع القول بأنـــه قتل الناس خوفاً على نفسه هو، وأنه جمع المال ليسعد به بعد ذلك، بله القول بأنه أراد المثوبة فى أول قيام الثورة.

... وعلى كل فالظاهر أن انشغاله بالثورة، وكراهية المؤرخين له، ونصعية الـــثورة فى آخـــر الأمر بالعنف الذى سبق أن انتهت هى إليه.. الظاهر أن كل هذا كان وراء عدم وصول الكثير من شعره، بل كان وراء التشكيك فيه شاعراً.

ولقد كان آخر ما روى له ما قاله وهو يهرب من الدار التى كان يعتصم بها فى اليوم نفسه الذى قتل فيه بتقطيع الأطراف أولاً، ثم حز الرأس، فقد قال:

عـــليك ســـلامُ الله يـــا خيرَ منزل   خرجـــنا وخلفـــناه غيـــر ذميـــم

فـــإن تكُـــن الأيـــامُ أحدثـــنَ فرقة   فمـــن ذا الـــذى من ريبهن سليم [2]

وما أشبه هذا الشعر بالرجل؟ بل وما أشبهه بما كتب على قبره:

عـــليك ســـلامُ الله يـــا خيْر منزل   رحلـــنا وخلّفـــناك غيـــر ذميـــم

فـــإن تكـــنْ الأيـــام أحدثْـــن فرقةً   فمـــنْ ذا الـــذى مـــن رمْيها بسليم[3]

---

(١) شعر الحرب فى أدب العرب ١٦٦.

(٢) معجم الشعراء ١٤٨.

(٣) البصائر والذخائر م ٢ ص٥٠٥.

(د) ونحـــن حين نلقى نظرة أخيرة على هذه الثورة نجد أنها كانت حرباً مشروعة مـــن أجل العدالة الاجتماعية، ونجد أنها كانت حرب أجناس بين السود وغير الســـود، وأن القصـــد منها كان اقتطاع جزء من الخلافة لهذه القوة السوداء، وتحريـــر هذه القوة من الضغوط المهينة التى أهدرت إنسانيتها، بالإضافة إلى التأثير المباشر فى الخلافة.

وإذا كان هناك من يستشهد بأن القائد الأسود (سليمان بن نافع) كان يحارب إلى جانب الموفق، وفى ضوء هذا فإنها لن تكون حرباً بين السود والبيض فإن من اليســير القــول بأن هذا القائد كانت له مصالحة مع الخلافة، وكانت له مكانته التى وصل إليها، ومن هنا رأى أن مجازفته فى الوقوف إلى جانب هذه القوة الجديدة لن تعطيـــه أكـــثر ممـــا وصل إليه، ثم كيف نعلل انضمام الجنود السود وهم كثرة إلى الـــثورة؟ إن تعليل هذا يوضح أن مصالح كل الفقراء والمضطهدين السود كانت مع الـــثورة، ومن هنا ظهرت طائفة جديدة من العبيد السود تسمى (الأباق) كانت تترك أسيادها وتلتحق بهذه الثورة.

ويذهب البعض إلى أن من أسباب فشل هذه الثورة عدم التقائها مع الثورات الأخـــرى الـــتى قامت فى هذه الفترة كثورة يعقوب الصفار، ولكن كيف كان يمكن الالتقاء مع هذه الثورة مع العلم بأنها قامت أصلاً للاحتجاج على الخليفة لأنه أهمل فى أول الأمر ثورة الزنج[1].

وهناك من يذهب إلى أن الفضل فى دحر هذه الثورة يرجع إلى الافتقار إلى "نظرية ثورية" وإلى شخصية الموفق الحكيمة، ولكن كيف لا تكون المطالبة بالعدالة الاجـــتماعية نظرية ثورية؟ وكيف لا تكون نظرية الخوارج ثورية على نحو ما مر بنا آنفا، أما القول بأن كل شىء يرجع إلى شخصية الموفق الحكيمة فيكفى أن نذكر أنه لم يلتهم الثورة بالسهولة التى تتصور، وأنه "أعلن نوعاً من الديكتاتورية إلى حد أن الخليفة ضاق به، وعزم على العيش فى ظل ابن طولون، ولكن الموفق رده من الطريق إلى ابن طولون"[2].

---

(١) الطبرى ١١/١٧٩، ١٨٠، النزعات الاستقلالية فى الخلافة العباسية. عبدالفتاح السرنجاوى ٥٧ وما بعدها.

(٢) ألوان ٧٩، ثورة الزنج وقائدها على بن محمد لأحمد العلبى ٧٥ وما بعدها.

أمـــا الذى نرتاح إليه فى تعليل فشل هذه الثورة، فهو كما سبق أن ذكرنا أنها انحـــرفت – حيـــن أسكرها النصر – عن أهدافها، وأنها استخدمت العنف بالطريقة التى جعلت الناس ينفرون منها، ويعتقدون أنها خاصة بنوع خاص من الفقراء وهم الســـود، أمـــا الفقـــراء الآخرون فليس لهم مكان فى هذه الثورة، ثم إن المسألة قد صـــورت للناس على أنها حرب ضد الإسلام والمسلمون وقد مرت بنا التهنئة التى وجهـــت بمناسبة دحرها إلى كافة البلاد الإسلامية، وبالإضافة إلى هذا فإن الطبقة التى أضرت بمصالحها هذه الثورة وقفت بكل ثقلها إلى جانب العمل على ردع هذه الـــثورة، ولقد وصل الأمر إلى حد أن كثيراً من الناس كانوا يغرون القائد "رميس" بكميـــات وافرة من المال، إن هو أخمد أنفاس هذه الثورة، وإن هو أعاد العبيد إلى أسيادهم(١).

ولا يحســـب بعض أن إخماد الثورة كان بسيطاً وسريعاً فقد استمرت نشطة ومتدفقة بالغضب طوال أربعة عشر عاماً، وأربعة أشهر وستة أيام.

ولكـــن فى نهايـــة الأمـــر ضيق عليه وعلى رجاله، فحين ألجأه الموفق إلى التحصـــين فى المنازل الواقعة على نهر "أبى الخصيب" ضعف أمره ضعفاً شديداً، وظهر للناس زوال أمره، فتهيبوا جلب الطعام له ولرجاله فانقطعت عنهم كل مادة، ثـــم بلغ الأمر بأصحابه إلى حد أنهم كانوا يتبعون الناس، فإذا خلا أحدهم بامرأة أو صـــبى أو رجل ذبحه وأكله، ثم صار قوى الزنج يعدو على الضعيف، فإذا خلا به ذبحـــه وأكـــل لحمـــه، ثـــم أكلوا لحوم أولادهم، ثم كانوا ينبشون الموتى، فيبيعون أكفانهم، ويأكلون لحومهم.

وأخيـــراً وبعـــد صـــراع مرير، وبعد ضراوة غير معهودة فى الحرب من "الفســـقة والفجـــرة" على حد تعبير الطبرى، وافى "الموفق" بشير بقتله، ومعه كف زعـــم أنها كفه، ثم أتاه غلام من رجال القائد "لؤلؤ" يركض على فرس "ومعه رأس الخبيث" فخر الله ساجداً على ما أولاه وأبلاه، ثم تتابع تسليم رجاله، فكان من وافى مـــن قـــواد الزنج ورجالهم فى بقية يوم السبت والأحد والإثنين زهاء خمسة آلاف

(١) الطبرى ١١/١٧٩.

زنــجى، بعد أن قتل منهم من قتل، وبعد ما مالت جماعة إلى البر زهاء ألف فمات بعضهم عطشاً، واسترق الأعراب البعض الآخر، وهكذا كان خروج صاحب الزنج عام ٢٥٥هـ وكان قتله عام ٢٧٠هـ[١].

وقــد تــرتب على هذا أ تعطلت الزراعة، وأرهق الناس إرهاقاً شديداً بتقديم التموين لكل من الطرفين المتصارعين، وقد هجر بعضهم تماماً من المنطقة.

كــل هــذا إلى جــانب توقف الملاحة النهرية فى الداخل، وفى الوقت نفسه تعطــلت الملاحـــة الخارجيـــة مع الهند، وسيلان، وسومطرة، وكمبوديا، والصين وإفريقية، وإلى جانب هذا حدث تفكك داخل الدولة، على نحو ما نعرف من انفصال مصر عن الخلافة على يد أحمد بن طولون[٢].

وفى ضـــوء هــذا تلاحقت الحلقات واتصلت بحيث طوقت تماماً هذه الثورة وقضت عليها، ومع أن هناك من يميل إلى القول بأن هذه الثورة كانت عقيمة، وأن الـــزنوج خســـروا قضيتهم[٣]، إلا أن الذى لا شك فيه أن هذه الثورة قد أتت ثماراً عديدة منها أن من حق الناس الثورة على الخلافة ما دامت الخلافة تظلمهم، والذى لا شــك فيه أن الدولة العباسية قد عملت بعد انطفاء الثورة على التحسين من وضع الفلاحيـــن، ومن وضع العبيد، وأن النظام الإقطاعى قد تداعى وإن لم يكن قد سقط تمامـــاً فى هذه الفترة، خاصة وإنا نعلم أن الموفق فى أكثر من موضع قد بذل أكثر من وعد بتحسين أحوال هذه الكتل المظلومة، ومن الملاحظة أن الكثير قد استجاب لهــذه الوعود، وأن فلولا أخرى رأت الانضمام إلى قوة ثورية أخرى صاعدة هى قوة القرامطة[٤].

فـــإذا تركنا هذه الآثار المحسوسة. وجدنا ظهور أثر آخر سلبى عقب سقوط هــذه الــثورة، عند بعض المثقفين كالحلاج مثلاً، فقد تأكد عنده.. "أن وحدة الأمة

---

(١) تاريخ الطبرى ٦٥٤/٩ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، والعدد ٦٣ عن مجلة نهضة إفريقية.

(٣) شعر الحرب فى أدب العرب ١٦٦.

(٤) دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ٧٨ وما بعدها، الهلال، العدد السادسة والخامسة والسبعين. مقال د. على الخربوطلى.

الإســلامية لا يمكن أن تتم عن طريق الحرب الدنيوية، ولكن عن طريق الصلوات والتضحيات فى حياة الزهد والمجاهدة"[١].

تــلك هى قضية ثورة هامة ستظل دائماً شعلة مضيئة على الطريق للفقراء، وللمطالــبين بالعدالــة الاجتماعية: فهى لم تكن كما قال العقاد "غاشية عابرة لسبب عابــر، فذهب أثرها بذهابها بسنوات"[٢]، لأنها فى الواقع ملمح يمكن أن يفاخر به فى السبق بالمطالبة بالعدالة الاجتماعية، فالعلة لا توجد فيها بقدر ما توجد فينا لأننا لا نلــتفت إلى تاريخنا، ولأنا نشمئز من هذا التاريخ، ويعجبنا ما عند الآخرين، وقد تنــبه الدكتور طه حسين لهذا وعقد موازنة بين هذه الثورة وبين ثورة الرقيق على الجمهوريــة الــرومانية فى إيطاليا، ثم أورد الأثر الذى ألهمته هذه الثورة الأخيرة للكتاب الأوروبيين، تساءل عن السر الذى جعل ثورة الزنج لا تؤثر فينا كما أثرت فى العــالم الأوربى ثورة سبارتاكوس! ثم قال: ".. ولكن الأوربيين لم ينسوا تاريخ رومــا وأحداثه، ولم ينظروا إليه على أنه تاريخ ليس غير، وإنما جعلوه جزءاً من حيــاتهم، ومــن حياتهم الواقعية التى يحبونها بالفعل، فهم يستلهمونه كما يستلهمون الــتاريخ اليونــانى، وكمــا يستلهمون أساطير اليونان والرومان، وكما يستلهمون الــتوراة فيمــا يكتــبون من نثر، وما يقرضون من شعر.. فأما نحن فنعرض عن التاريخ العربى إعراضاً يوشك أن يكون تاماً" [٣].

(هـ) والآن تبقى الكلمة الأخيرة فى هذه الثورة خاصة بتأثيرها فى الشعر العربى، ومــع اعترافنا بالنماذج القليلة التى وردت فى هذا المجال ونحن نعتبر الثائر عــلى بنى محمد واحداً من شعرائها لا لدوره فيها فقط ولكن لذهابنا إلى أن أمــه كانت سوداء، ولأن لونه كان يميل إلى السواد مع اعترافنا بهذا إلا أنه يجــب أن نــتذكر مــا مــر بنا من أن عامة هؤلاء السود كانوا لا يعرفون العــربية، وكانوا منقطعى الصلة عن ثقافتهم الأولى، ومع هذا فالأثر الكبير الواضــح فى الشــعر لهــذه الثورة كان قصيدة ابن الرومى الذى لا يختلف موقفه عن موقف المؤرخين الملتزمين بالدولة وبالحكام كما سبق أن أشرنا.

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام . د. عبدالرحمن بدوى ٦٥.

(٢) داعى السماء ٦٨، ٨٩.

(٣) ألوان ١٦٥، ١٦٦.

وعلى كل فهذه القصيدة تقول :

زادَ عن مقلتى لذيذُ المنام ... شُغلها عنه بالدّموع السجام؟
أىُّ نوم من بعد ما حلَّ بالبصـ ... ـرة ما حلَّ من هنات عظام؟
أىّ نوم بعد ما انتهك الزّنْـ ... ـج جهاراً محارم الإسلام
إنّ هذا من الأُمور لأمر ... كاد ألا يقومَ فى الأفهام
أقدم الخائنُ اللعينُ عليها ... ـوعلى الله- أيمَّا إقدام
وتسمَّى بغير حقٍ إماما ... لا هدى الله سعْيَه من إمام
لهف نَفْسى عليك أيتُها البصـ ... ـرة لهفاً .. كمثل لهب الضّرام
لهف نفسى عليك يا معدَن الخيْـ ... ـرات لهفا يعضنى إبهامى
لهف نَفْسى عليك ياقبة الإسـ ... ـلامِ لهفاً يطول منه عرامى
لهف نفسى عليك يا فرضةُ البلـ ... ـدانِ لهفا يبقى على الأعوام
لهف نفسى لجمعك المتفانى ... لهف نفسى لعزك المستضام
بينما حالُها بأحَسن حال ... إذ رماُهُم عبيدُهم باصْطلام
دخلوها كأنهمْ قطعُ اللّيـ ... ـل إذا راحَ مدلهمُّ الظلام
أىّ هول رأوا به أىَّ هول ... حُقّ منه يشيبُ رأسُ الغلام
إذ رموُهمْ بنارهم من يمين ... وشمالٍ، وخلفهم، وأمام
كم أغصوا من شارب بشراب ... كم أغصوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجى ... فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى أخاه صريعا ... ترب الخد بين صرعى كرام
كم أب رأى عزيز بنيه ... وهو يعلى بصارم صمصام
كم مفدى فى أهله أسلموه ... حين لم يحمه هنالك حامى
كم رضيع هناك قد فطموه ... بشبا السيف ،، قبل حين الفطام
كم فتاة بخاتم الله بكر ... فضحوها جهراً بغير اكتتام

كـم فـتاة مصـونة قـد سـبوها　　بـارز وجهها بغير لـثام

مـن رآهـن فى المسـاق سـبايا　　داميـات الوجـوه للأقـدام

مـن رآهـن فى المقاسـم وسـط　　الـزنج يقسـمن بيـنهم بالسـهام

مـن رآهـن يـتخذان إمـاء　　بعـد مـلك الإمـاء، والخـدام

مـا تذكـرت مـا أتى الـزنج إلا　　أضـرم القـلب أيمـا إضـرام

مـا تذكـرت مـا أتى الـزنج إلا　　أوجعتـنى مـرارة الإرغـام

..عـرجا صاحبى بالبصرة الزهـ　　ـراء تعـريج مدنـف ذى سـقام

فاسـألاها ولا جـواب لديهـا　　لسـؤال ومـن لهـا بـالكلام

أيـن ضوضـاء ذلك الخلق فيها؟　　أيـن ذاك البـنيان ذو الأحكـام؟

بدلـت تـلكم القصـور تـلالا　　مـن رمـاد، ومـن تـراب ركـام

سـلط البـثق، والحـريق عـليها　　فـتداعت أركانهـا بـانهدام[1]

وخـلت مـن حولهـا فـهى قفر　　لا تـرى العيـن بيـن تـلك الأكام

غيـر أيـد وأرجـل بائـنات　　نـبذت بيـنهن أفـلاق هـام

ووجـوه قـد رملـتها دمـاء　　بـأبى تـلكم الوجـوه الـدوامى

وطـئت بـالهوان والـذل قسـرا　　بعـد طـول التـبجيل والإعظـام

فـتراها تسـفى الـرياح عـليها　　جاريـات بهـبوة وقـتام

خاشـعات كأنهـا باكيـات　　باديـات الـثغور لا لابتسـام

.. بـل ألمـا بسـاحة المسجد الجا　　مـع إن كنـتما ذوى إلمـام

فاسـألاه ولا جـواب لديـه　　أيـن عـباده الطـوال القيـام؟

أيـن عمـاره الأولى عمـروه　　دهـرهم فى تـلاوة وصـيام

أيـن فـتيانه الحسـان وجوهـا؟　　أيـن أشـياخه أولـو الأحـلام؟

..أى خطـب ، وأى رزء جـليل　　نالـنا فى أولـئك الأعمـام

(١) فى القاموس بثق النهر بثقا وتبثاقا كسر شطه، وهو يريد أن يقول إن البصرة حوصرت بالماء وبالنار.

كـم خذلـنا من ناسك ذى اجتهاد ... وفقيـــه فى ديـــنه عـــلام

وانــدامى عـلى التخـلف عـنهم ... وقـليل عـنهم غـناء نـدامى

واحيـائى مـنهم إذا مـا التقيـنا ... وهـم عـند حـاكم الحكـام

أى عـذر لـنا ؟ وأى جـواب ؟ ... حيـن نـدعى عـلى رءوس الأنام:

يـا عـبادى ! أما غضبتم لوجهى ... ذى الجـلال العظيـم والإكـرام

أخذلـتهم إخوانكـم، وقعدتـم ... عـنهم ويحكـم قعـود اللـئام!

كيـف لـم تعطفـوا على أخوات ... فى حـبال العـبيد مـن آل حـام

لـم تغـاروا لعـترتى، فتركـتم ... حـرماتى لمـنْ أحـل حـرامى

إن مـن لـم يغـر على حرماننى ... غيـر كـفء لقاصـرات الخيـام

كيف ترضى الحوراء بالمرء بعلا ... وهـو مـن دون حـرمة لا يحامى

واحيـائى مـن النـبى إذا مـا ... لا مـنى فيهـم أشـد المـلام

وانقطـاعى إذا هـم خاصـمونى ... وتـولى النـبى عـنهم خصـامى

مثـلوا قولـه لكـم أيهـا النا ... س إذا لامكـم مـع اللـوم

أمـتى أيـن كنـتم إذ دعـتكم ... حـرة مـن كـرائم الأقـوام

صـرخت: يـا محمـداه.. فهـلا ... قـام فيهـا رعـاة حـقى مقـامى

لـم أجـبها، إذ كـنت ميتا، فلولا ... كـان حى أجابهـا عـن عظـامى

.. انفـروا أيهـا الكـرام خفافـا ... وثقـالاً إلى العـبيد الطغـام

إن قعدتـم عـن "اللـعين" فأنتم ... شـركاء اللـعين فى الآثـام

أبـرموا أمـرهم وأنـتم نيـام ... سـوءة سـوءة لقـوم نيـام

صـدقوا ظـن إخـوة أمـلوكم ... ورجوكـم لـنوبة الأيـام

أدركـوا ثـأرهم فـذاك لديهـم ... مـثل رد الأرواح فى الأجسـام

لـم تقـروا العيـون مـنهم بنصر ... فأقـروا عيونهـم بانـتقام

أنقـذوا سـبيهم وقبـل لهـم ذا ... ـك حفاظـاً ورعيـة لـلذمام

عـارهم لازم لكـم، أيهـا النـا ... س، لأن الأديـان كالأرحـام

لا تطيلوا المقام عن جنة الخلـ ـد فأنتم فى غير دار مقام
فاشتروا الباقيات بالعرض الأد نى، وبيعوا انقطاعه بالدوام

وهذه القصيدة "وثيقة" اتهام بلا شك، ويبدو أنها نظمت "والحرب الزنجية قائمة بعد خراب البصرة"[١]، فهى ممتلئة بالحرارة، وبالغضب على هذه القوة السوداء، التى استخدم كل براعاته الشعرية فى "دمغها" وفى رسم صورة مهبجة عنها" تكاد تدفعنا نحن الآن بعد أحد عشر قرناً إلى الثورة والهياج[٢]، فالشاعر قد وضع قدرته الخارقة فى هذه القصيدة الدرامية التى تبدأ بحزن خاص للشاعر، ثم لا يلبث أن يشرك الناس فى هذا الحزن، ويضعهم فى قفص الاتهام حيث يدينهم الله، وحيث يقاضيهم النبى ثم يترك لهم كوة من الأمل إذا ما عزموا على "الانتقام".

وهو يتوسل إلى هذا بما يسمى التوكيد بالتكرار. ويرسم الصور المؤثرة كالرضيع الذى قطعه السيف، وكالفتاة التى بخاتم ربها، وهو كثير التساؤل فى هذه القصيدة، ويكثر من إيراد الجمل الاعتراضية كأن هناك اختناقاً فى القصيدة لا يخفف عنه إلا إيراد هذا النوع من الجمل، وهو يستخدم نوعاً من التضمين يفترض أن النبى يقوله، وكما يقدم الصورة فى حالة البشاعة، مع استيعاب لكثير من الجزئيات، كما أن للقصيدة إيقاعاً خاصاً يساعد على التكرار، ويؤكد التعذير واللوم فى أول الأمر، ثم تحتد النبرة حيث يتعرض للانتقام، وحين يتعرض للعنصرية اللونية فى البيت الذى يقول فيه:

كيف لم تعطفوا على أخوات فى حبال العبيد من آل حام!

ومع هذا فإنه يمكن أن يقال له كيف عز عليك أن تسبى الفتيات من البصرة، وأن يزال خاتم الله فيهن، وفى حالة من حالات الحرب، فى الوقت الذى يفعل فيه

---

(١) شعر الحرب فى أدب العرب ١٦٨.
(٢) بطولات عربية ٥٦.
وما أصدق قول المازنى عنها: هى قصيدة فى الطبقة الأولى من الشعر لو غيرت ما فيها من الأسماء والمحليات لخيل اليك أنها مما قاله "بيرون" فى سبيل استقلال اليونان، أو "توماس هاردى" فى إبان الحرب العظمى (حصاد الهشيم ط٧ ، ص٢٦٨).

هـذا الفعـل وأكـثر فى حالتى السلم والحرب فى البصرة نفسها مع السوداوات.. ويمكن أن يقال له كيف جعلت البصريات "عترة" الله؟ وإذا كان البصريون هم "أمة" النبى، فلماذا لا يكون السود أمته كذلك؟

ويمكـن أن يقال لماذا جعلت هذه الحرب حرباً ضد الإسلام، ولم تجعلها فى الأصل حرباً قامت باسم الإسلام! ولماذا تقر أن يكون للعربية وهو يركز دائماً على العربية ولا يركز على الرجل العربى فى القصيدة الحق فى ملك الإماء والخدام ولا يكون لغيرها هذا الحق بل لماذا يكون هناك رق أصلاً بالصورة التى كان عليها فى هذا المجتمع؟

.. ثـم أخيراً كيف يمكن أن يدعو شاعر للكراهية والانتقام بهذا العنف، ألم يكن مما يتفق وإنسانية الشاعر أن يدعو إلى رفع الظلم عن المظلومين، وأن تكون إلى جانب كلمة حرب كلمة سلام؟

إن هـذه الأسـئلة لا يمكن أن تصمت أمام روعة القصيدة، بل لابد أن تطل علينا واحدة بعد الأخرى فى أثناء قراءة القصيدة لا بعد الانتهاء منها!

لقد هلل لها كل الذين تعرضوا لهذه القصيدة من القدامى والمحدثين، ولكن لم يـتعرض أحـد لمضمونها العنصرى، ولإيقاعها الوحشى، ولإلحاحها على قضية المـوت لمن يثور أو يطالب بنوع من العدل السياسى والاجتماعى، كما لم يتعرض لـلدوافع الـتى كانت رواء القصيدة، وكيف أنه كانت تلزم الشاعر شجاعة أكثر لو حاول أن يصدم مجتمعه المترهل الذى كان أجوف ومتداعياً وقائماً فى جوانب منه على أسس غير الإنسانية.

ثـم إن هـناك خطـوة بعـد ذلك من القصيدة الرحبة المتوترة إلى القصيدة المؤرخـة، على نحو ما فعل عبدالله بن المعتز فى أرجوزته التى تدور حول حياة المعتضـد وعهـده، والـتى سميت باسم كتاب سيرة الإمام، فقد جاء فيها عن ثائر الزنج.

والـبائع الأحـرارَ فى الأسـواق   وصـاحبُ الفجّـار والمـراق
وقـاتلُ الشـيوخ والأطفـال   ونـاهبُ الأرواح والأمـوال

ومـــالك القصـــور والمســـاجد ورأس كـــلّ بدعـــه وقـــائد
إمـــام كـــل رافضـــى كافـــر مـــن مظهـــر مقالـــةً وســـاتر
يـلعن أصـحاب النـبى المهتدى إلا قـــليلا عصـــبة لـــم تـــردد
فكُفْـــر الـــناس ســـواء عـــنده فلعـــــنةُ الله عـــليه وحـــده
مـــازال حيـــنا يخـــدعُ الســـودانا ويـــدعى الـــباطلَ والبهـــتانا
وقـــال: ســـوف افـــتح الســـوادا وأمـــلك العـــباد والـــبلادا
ويدخـــلون عـــاجلاً بغـــدادا فـــلم يـــر الكـــذابُ لا ذا ولا ذا
وقـــال: إنى أعـــلمُ الغيوبـــا لـــم يـــر فيهـــا عالمـــاً مجيـــبا
فخـــرب الأهـــوازَ والأبلـــه وواســـطاً قـــد حـــلّ فيـــه حـــلّه
وتـــرك البصـــرةَ مـــن رمـــاد ســـوداء لا توقـــنُ بالميعـــاد
ورامـــه موســـى فمـــا أطاقـــه ومجّـــهُ مـــن فيـــه حيـــن ذاقـــه
وقـــد ســـقى "مفـــلح" كـــأس القتل وشـــكّهُ بمخصـــفِ ذى نصْـــل
.. وتـــرك الأتـــراك بعـــد فقـــده كـــذى يـــد قـــد قطعـــت مـــن زنده
وقـــتل ابـــن جعفـــر منصـــورا وكـــان قـــبل قَـــتْله كـــبيرا
ومـــن بعـــد مـــا صابر أى صبر وأرجـــف الـــناس له بالنصـــر
والشـــيخ قـــد غـــرقه نصـــيرا وقـــال: حســـبى فقـــد هـــذا خيـــرا
أعـــنى غلامـــا لســـعيد الأعـــورا فقـــد كـــان فى الحروب موتا أحمرا
حـــتى إذا مـــا أســـخط الإلـــة وبـــلغت الفتـــنة منـــتهاها
أغـــرى بـــه الله هزبـــراً ضـــيْغماً إذا رأى أقـــرانه تقدمـــاْ
فـــلم يـــزل عامـــاً وعامـــاً ثانيـــاً وثالـــثاً يكـــابد الدواهيـــا
مجـــاهداً بـــرأيه ونصـــله ومالـــه، وقولـــه، وفعلـــه
.. وحـــارب الصـــفارَ بعـــد الزنج فطـــار إلاّ أنـــه فى سَـــرْج!

وحيـــن يـــتعرض الشاعر البحترى لهذه الثورة، وللثائر على بن محمد من وجهـــة نظـــر تقل فى الحدة والغضب عن الحدة والغضب فى قصيدة ابن الرومى،

نجـد الدكتور زكى المحاسنى يعلق على هذا قائلاً: وقد ذكر غير ابن الرومى هذا الحـادث الجـلل لكن أحداً من الشعراء لم يحسن تصويره ووقف الشعر عليه، كما أحسـن ابن الرومى ووقف، وعلى التمثيل أذكر البحترى فإنه مدح أبا أحمد الموفق وذكـر عـلوى البصرة، لكنه أضاع شعره فى المدح والاحتيال على معانى الثناء، تاركاً لباب الموضوع وهو وصف حرب العلوى أو مذبحة الزنج[1].

وقريب من هذا موقف أبى العلاء المعرى حين يقول :

إنمـا هـذه المذاهـب أسـبا	بُ لجـلْب الدنيـا إلى الرؤسـاء
غـرض القـوم مـتعة لا يـرقو	ن لدمـع الشـماء والخنسـاء
كـالذى قـام يجمع الزنج بالبصـ	رة، والقـرمطى بالأحسـاء

وأخيـراً فإنـه يجـب ألا ننسى جماعة من الشعراء الوسط الذى كان همهم الأول خدمـة رجـال الدولـة على نحو ما نعرف من يحيى بن محمد السلمى فى القصيدة التى أولها.

أقـول وقـد جـاء البشـير بوقعة	أعـزت مـن الإسلام ما كان واهيا

والقصيدة التى جاء فيها عن على بن محمد

فخـرَّ مـن مأزقـه مسـلماً	إلى أسـود الغـاب فى المـأزق
وذاق مـن كـأس الـردى شربة	كـريهة الطعـم عـلى الذائـق

بالإضـافة إلى قصـيدة أخـرى ثالثة له، ومثل هذا فعل يحيى بن خالد فقد تعرض لهذه الثورة أكثر من مرة، كما فى قوله :

لمـا طـغى الرجس اللعين قصدته	بالمشـرفىِّ وبالقـنا الجـوال
وتركـته والطيـرُ تحجل حولـه	مـتقطعَ الأوداج والأوصـال
يهـوى إلى حـرِّ الجحيم وقعرها	بسلاسـل قـد أوهنـته ثقـال

وله قصيدة أخرى رائية تدور فى هذا الاتجاه.

(١) شعر الحرب فى أدب العرب ١٦٨، ١٦٩.

وهكـــذا نـــرى أن المؤرخين قد ظلموا هذه الثورة، وأن الشعراء القدامى قد ظـلموها كذلـك، بـل إن السود أنفسهم قد ظلموها لأن عامتهم لم يكونوا يعرفون العــربية، ولقــد أدرك هذا من قبل فكان فى تعاليمه وخطبه يطلب من الذين فهموا عــنه قوله أن يفهموا "من لا فهم من عجمهم"[١] وما أكثر الذين أنصفوه فى العصر الحديث فى البحث والرواية، والمسرحية، والقصيدة[٢]، ولكن إذا كان لابد من العذر لطائفــة مــن الطوائف المتصارعة، فإنه لن يكون إلا للسود الذين رأوا من وجهة نظــرهم إنهــم لــن يتحرروا إلا إذا كانوا أسياداً، وإلا إذا انتقموا من الذين أهانوا كبرياءهم وأذلوهم فى الحياة!.

(١) تاريخ الطبرى ٤١٥/٩ تشبه فى هذه ثورة المختار التى اهتمت بالموالى ومع هذا لم نسمع شكراً من هؤلاء المظلومين.
(٢) انظر أعمال أحمد العلبى، وعلى أحمد باكثير، ومعين بسيسو، والدكتور عبده بدوى.

ثالثاً : الشعوبية ونصيب السود منها :

١- لقد ظهر هناك اهتمام خاص بإلقاء الضوء على الشعوبية[١] على طول المسيرة العربية، على نحو ما نرى عند الأصمعى، وابن قتيبة، وأبى فرج الأصفهانى، والجهشيارى، وابن النديم، وغيرهم ممن وقفوا إلى جانب العرب، حتى لو كان فارسياً كابن قتيبة.

ولقد كانت الوقفة المتأنية هى وقفة الجاحظ، فقد تعرض لمطاعن الشعوبية على العرب فقدمها بأمانة، ثم رد عليها بموضوعية مطعناً وقد انتهى إلى قوله: وأعلم أنك لم تر قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكاً لعرضه، ولا أطول نصباً، ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة، وقد شفى الصدور منهم طول جسوم الجسد على أكبادهم.. ولو عرفوا أخلاق كل ملة، وزى كل لغة وعللهم فى اختلاف إشارتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيئآتهم، وما علة كل شيء من ذلك؟ ولم اختلقوه؟ ولم تكلفوه، لأراحوا أنفسهم.. وهو قد يربط بينهم وبين "الآزمردية" بمعنى الاستقراطية الإيرانية[٢] وفى الجانب الآخر كانت هناك كتيبة كبيرة تخاصم كل ما هو عربى، وقد تتعرض للإسلام[٣] على نحو ما نعرف من "سهل بن هارون" الذى ألف رسالة فى البخل بحيث اعتبر الكروم رزيلة، والبخل فضيلة، ولقد كان وزيراً للمأمون، فارسى الأصل، شعوبى المذهب، شديد العصبية على العرب، وكان هناك "علان الشعوبى" صاحب كتاب "الميدان فى المثالب"[٤]، وكان هناك يونس بن هارون الذى كتب كتاباً لملك الروم فى مثالب العرب وعيوب الإسلام بزعمه وكان عبدالكريم ابن أبى العوجاء الذى قال: لئن قتلتمونى لقد

---

(١) جاء عنها فى اللسان: الشعوبى هو الذى يصغر شأن العرب، ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم، وهناك من ذهب إلى أن لفظ الشعوبية المشتق من الآية الكريمة (شعوباً وقبائل) لم يستعمله أنصار الوطنية الإيرانية إطلاقاً على أنفسهم، وأنه ليس هناك كلمة إيرانية أجدر بأن تكون لقب شرف لمقاصدهم من لفظ الآزمرية (البخلاء ٤٢٦، ٤٢٨).

(٢) البيان والتبين٣ /٤- ٢٢ ط السندوبى ، البخلاء ٤٢٦، ٤٢٨.

(٣) الحيوان ٤٤٨/٤.

(٤) أمالى المرتضى ١٢٨/١.

وضـــعت فى حديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة، ومثل هذا يقال فى أبى عبيدة بالإضافة إلى عدد كبير من الحكام الذين يصدق عليهم:

إذا ذكر الشرك فى مجلس
أضاءت وجوه بنى برمك

وإن تليت عندهم آية
أتوا بالأحاديث عن مزدك

وإلى سلســلة من الشعراء وممن اصطلح على تسميتهم[1] الزنادقة، وعصبة المجان.

ولقــد كـــانت هذه الآراء واضحة بحيث تتصادم حولها الآراء، ولكن الرأى الـــذى احتاج على وقفة كبيرة كان رأى بن خلدون فى المقدمة حين أورد الفصول الآتية:

١- فصل فى أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط.
٢- فصل فى أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب.
٣- فصـــل فى أن العـــرب لا يحصل لهم الملك إلا بصفة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة.
٤- فصل فى أن العرب أبعد الناس عن السياسة والملك.
٥- فصـــل فى أن المبانى التى كانت تختطها العرب يسرع إليها الفساد إلا فى الأقل.

وقــد ذهب الدكتور طه حسين[2]، ومحمد عبدالله عنان[3]، ومحمد عبدالغنى حسن[4]، إلى أن المقصود بكلمة العرب هو ما يقابل العجم، وأنه قال لأنه عاش –

(١) أنظر الفهرس لابن النديم ١٧٤، ١٥٤/ وفيات الأعيان ١٥٥/٢، المجتمع العربى ومناهضته للشعوبية ١٩٢ وما بعدها.
(٢) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ترجمة محمد عبدالله عنان ١٠٢.
(٣) ابن خلدون ط ٣ ص١٢٠، ١٢١.
(٤) دراسات فى الأدب العربى والتاريخ ٣٧٢.

مـــع أنـــه عربى – فى ظلال الأسر البربرية المجاهرة بعدائها للعرب الذين خربوا إفـــريقية الشـــمالية فى القرن الخامس، وهذا الكلام مبالغ فيه فالعرب كان لهم دور حضـــارى فى هـــذه المنطقة، ومنها كان انتشارهم المثمر إلى إفريقية، صحيح أنهم اجـــتاحوا الدويـــلات البربرية ولكن كل هذا كان من أجل رسالة أكبر.. وهناك من قال إنه كان محباً للفساد والمخالفة على نحو ما فعل[1] من عدم تغيير زيه المغربى حين ولى القضاء فى مصر، وذهب الدكتور إبراهيم سلامة إلى أنه قال ما قال "إما غاضباً متحاملاً على العرب، ناعياً على حظه وحظهم السئ، ولما أدركهم دويلات صـــغيرة تـــتقاتل وتتغالب من الحكم والسلطان، وإما مدفوعاً بطبيعته العلمية التى تميل إلى كثرة التحليل تدفع به بعيداً لتثبيت الفكرة التى يريدها..".

وقد تعرض لهذه القضية التى ترى أن ابن خلدون ليس امتداداً للشعوبية التى ظهـــرت فى القـــرون الأولى للإسلام – ساطع الحصرى،[2]. ومحمد جميل[3] بيهم والدكـــتور عـــلى عـــبدالواحد وافى[4]، وقـــد انتهوا إلى أن المقصود – من واقع النصوص فى المقدمة – هم الأعراب، أو سكان البادية الذين يعيشون خارج المدن، "ومـــن الغـــريب أن يقع فى هذا الخطأ باحثون من العرب، بينما يسلم منه كثير من الفرنجة المستشرقين ومن الأتراك حتى القدامى منهم، وإليك مثلاً البارون دوسلان الذى ظهرت ترجمته الفرنسية لمقدمة ابن خلدون سنة ١٨٦٨، فإنه يقول فى تعليقه عـــلى عـــنوان الفصل الثانى من الباب الثانى وهو الفصل الذى عنوانه ابن خلدون بقوله : "فصل فى أن جيل العرب فى الخلقة طبيعى" ما ترجمته"استخدام ابن خلدون فى هـــذا الفصل وفى الفصول التالية له كلمة العرب بمعنى البدو" ويقول فى شرحه لكلمة العرب فى معجم الألفاظ الملحق بترجمته للمقدمة "أن العرب عند ابن خلدون هم البدو الرحل، وقد أشار كذلك إلى هذا المعنى ضمناً لا صراحة المؤرخ التركى جودت باشا"[5].

---

(١) تيارات أدبية ١٦٣

(٢) دراسات عن مقدمة ابن خلدون ١٥١ وما بعدها.

(٣) العروبة والشعوبيات الحديثة ٥٣، ٥٤.

(٤) مقدمة ابن خلدون . تحقيق د. على عبدالواحد وافى جـ ٢٧٩/١ وما بعدها.

(٥) المصدر السابق نفسه ٣٠٣/١.

"وقـد استمر التأليف حول هذه الظاهرة، وإن كانت قد تلونت أكثر ما تلونت بـالحديث عن السياسة والدين، فالشعوبيون عند الدكتور محمد عبدالقادر حاتم "هم أولـئك الذيـن حقدوا على العرب، وحملوا راية الكيد لهم، وحاولوا جهدهم القضاء عـلى العصـر العـربى، وإعادة السلطة والسيادة للعنصر الأعجمى"(١) وهم عند الدكـتور عـبدالعزيز الـدورى ، يكافحون الإسلام من خلال المجوسية الإيرانية، ويهاجمون الفضائل العربية، ويعملون على "تفسيخ القيم الأخلاقية العربية الإسلامية فأكثروا من المجون والشراب، وجاهروا بالخلاعة وبالانحراف الجنسى، واعتبروا ذلك نوعاً من التحرر ومثلاً فى الظرف(٢).

ولقـد لجأوا فى المجتمع الإسلامى إلى أسلوب الاغتيالات، وهناك من يشير إليهم بالاتهام حين يذكر دور الهرمزان، وأبا لؤلؤة المجوسى فى مقتل الخليفة عمر بن الخطاب، ودور زازوية الفارسى الذى نجح مع ابن سبأ فى الشغب على الخليفة عثمان "كما نجح فى تدبير الأمر لمقتل على وإن ظهر ذلك على يد الخوارج"(٣).

وقد ظهر منهم جماعة تحت اسم "الخناقين" فى أواخر الدولة الأموية واستمر خطـرهم حـتى أيـام المهـدى، فقد كانوا يقتلون الناس بالخنق، أو بالتسمم (وهو البنج)(٤).

أمـا الدكـتور إبراهيم أحمد العدوى فى كتابه : المجتمع العربى ومناهضة الشـعوبية، وحـركات التسلل ضد القومية العربية، فهو يرصد كل الحركات التى قامت فى الحكم العربى على امتداد التاريخ ثم يدمغها بالشعوبية.

(ب) والذى يهمنا هنا أن نؤكده أن الشعوبية لم تقتصر على محاولة تقويض الفرس ملك العرب، ولم تكن كل صوت يرتفع ضد النظام السائد، وعالم الثبات الذى كـان يسيطر على كثير من الفترات التاريخية، ذلك لأنها كانت فى أول الأمر حـركة جديـدة نشـأت فى عقول عربية وتحت مناخ عربى "فالشعوبية فى

---

(١) الشعوبية ١٧.
(٢) الجذور التاريخية للشعوبية ٧٣، ١١٢.
(٣) الصراع الأدبى بين العرب والعجم ٢٦.
(٤) الجذور التاريخية للشعوبية.

الأصل هم الخوارج الذين ذهبوا لأسباب دينية ينكرون أن يكون بين الشعوب والقبائل أى تفاضل فطرى، وعارضوا قريشاً بصفة خاصة فى أن تكون الخلافة حقاً أصيلاً فيها، وحين أنكر الشعوبية الخوارج أفضلية العرب، أنكروا كذلك الإقرار بأية أفضلية الفرس، بينما نادى شعوبيو القرن الثالث بأفضلية الفرس (أو غيرهم من الأمم غير العربية على العرب)[١].

وقد لحظ بعض ما بين الشعوبية والمساواة فقد قال الجاحظ، "ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية[٢]" ويقول ابن عبدربه: "قالت الشعوبية وهم أهل التسوية"[٣].

فالفكرة فى جوهرها إلى حد ما عربية لحما ودماً، وهى تقوم على أصل من أصول الإسلام، ولكنها تحولت بعد ذلك من خلال الصراع الأموى والعباسى إلى إدانة العرب، وتعال عليهم – وإذا كان هناك من يسرع إلى الإدانة والدمغ من خلال كلمة الشعوبية – وقد كنت واحد من هؤلاء[٤] فإنا نميل الآن إلى بحثها كظاهرة تاريخية فى إطارها الزمنى، وبخاصة من خلال كونها صراعاً ذكياً وجادًا بين ثقافتين، وقد سبق للدكتور إبراهيم سلامة حين تعرض لقوانين التقليد[٥] عند عالم الاجتماع الفرنسى Tarde أن تحدث عن هذه الظاهرة تحت عنوان تلاقى المدنيتين الفارسية والعربية، فقد ذكر الوجوم الذى ظهر فى أول الأمر على الثقافة الفارسية، ذكر ترددها أمام الحضارة الوافدة، وما كان من تقرب القوى من الضعيف كما تقرب العباسيون من الفرس، وبالتالى تقرب الفرس إليهم، وهنا حدث شىء لم يحدث فى تلاقى المدنيات ذلك أن هذا الدين قد غزا الفرس كما غزا العرب، وبعد أن هدأت الأسلحة عرض عليهم قوانين وتعاليم أحبوها، ومن ثم كان

(١) دراسات فى حضارة الإسلام ٨٨.

(٢) البيان والتبيين ٥/٣.

(٣) العقد الفريد ٤٠٣/٣.

(٤) مجلة الرسالة العدد ٥٥ فى ١٩٦٤/٨/٦ وما بعده من أعداد.

(٥) هذه القوانين هى : أ- التقليد يتبع سبيلاً هو أنه يسرى من الداخل إلى الخارج. ب- التقليد ينحدر من الأعلى إلى الأدنى. جـ- التقليد يندفع مستعلياً تيار الجدة والمستحدثات ليؤثر فى التقاليد ويهاجمها (تيارات أدبية ١١٥ وما بعدها).

الـــتقارب الـــذى لم تعرفه المدنيات المتناكرة، وكان هذا الانكباب على الدين الجديد يقارنون به ما عندهم.

ويقـــررون فيـــه من الفروق ما يصلح أن يكون أساساً لجدل جديد ولمذاهب جديدة، على أن الفرس وبخاصة الشعراء منهم الذين يصدرون عن عاطفة دائماً لم ينســـوا قومهم، فظهر فى شعرهم عصبيات لقومهم، وإعجاب بقومهم، وتفضيل لهم على غيرهم، وكان من أثر هذا أن وجد معسكران متقابلان أحدهما لواء "العصبية" والآخر يحمل لواء الشعوبية(١).

والذى يهمنا هنا أن نؤكده أن الشعوبية الداخلية – إن صح التعبير – تختلف عـــن الشعوبية الخارجية. فالعرب قبل الإسلام كانوا شعوبين يقولون إنهم يتفوقون على غيرهم بالفصاحة وعراقة النسب، والفرس كانوا يزعمون أنهم خلقوا للسيادة، وأن بقيـــة الـــناس خـــلقوا لـــلطاعة، وأمام هذه الدعوى قال العرب ما قالوا، وقال اليونـــانيون أن ما عداهم عبيد،وأنهم يتفوقون بالعلم والحضارة وأن الفرس برابرة، والأراميـــون فخروا بأنهم علموا الفرس الكتابة، ويمكن أن نرى هذا عند الرومان والعـــبرانيين، بـــل ويمكـــن الـــتعرف على هذا فى الدولة العثمانية وعند الإنجليز والأمريكيين(٢).

أم الشعوبية الداخلية فقلما خلا منها وطن، وإن كانت تقف عند حد المفاخرة دون الوصـــول إلى العداوة، ولكن لما كانت الأمة الإسلامية قد طويت الفرس أكثر مـــا طويت، ولما كانت الدولة تتحول من العروبة إلى الإسلامية على حد أن كتاب الإمـــام إبـــراهيم لأبى مســـلم جاء فيه "وإذا استطعت ألا تدع بخراسان أحداً يتكلم العربية إلا قتلته فافعل.. وعليك بمضر فإنهم العدو القريب الدار(٣).

لمـــا كـــان هـــذا قـــد حدث بالفعل فإنا فى ضوئه نستطيع أن نفسر ظاهرة الشعوبية على أنها قد استحالت إلى نوع من المنافسة بين الفرس والعرب باعتبارهم عرباً لا مسلمين".. نادى شعوبيو القرن الثالث بأفضلية الفرس (أو غيرهم من الأمم

(١) تيارات أدبية ١٧١، ١٧٢.
(٢) دراسات فى المذاهب الأدبية والاجتماعيةِ. عباس محمود العقاد ١٦٤، ١٦٥.
(٣) شرح النهج ٣٠٩/١.

غيـــر العـــربية) عـــلى العـــرب، ودافعوا عن دعواهم بحجج اجتماعية وثقافية لا ديـــنية[1]"، ومن المعروف أن التشيع "لآل البيت" كان قوياً بين الفرس وبين غيرهم ممـــن دخـــلوا فى الديـــن الجديد، فالإسلام قد حطم الحواجز، أما العرب فقد أقاموا الحواجـــز بينهم وبين غيرهم،وبينهم وبين الآخرين، ومن ثم واتت الفرصة الفرس حتى استعان بهم العباسيون فى تأكيد ملكهم.

ولكـــن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل تعداه إلى الإسلام نفسه حين ظهر لهم أنه السند الحقيقى للعروبة، وأن العرب يسندون إليه ظهورهم ثم ينوشونهم منه.

وبعـــد هذا يمكن القول بأن هذا التيار الشعوبى "يتحول إلى تيار مادى داخل الإطـــار الروحى الكبير الذى يضم العالم الإسلامى ، ويمكن القول بأنه قد ساعدت عـــليه "نـــزعة التنوير" التى كانت حصاد اليونانية بعد الفارسية، والتى تقوم بحسم على تمجيد العمل، واعتباره المراد الحقيقى لكل شيء.. وساعدت عليه فكرة التقدم المســـتمر للإنســـانية، وهذه الفكرة أساساً كانت تصطدم مع أهل السنة الذين يقفون عـــند "الـــنص" وفى الوقت نفسه يرون أن كل بعد عن عهد النبى هو بعد عن العلم والحضـــارة.. كمـــا ســـاعد عليه أيضاً ما يسمى "بالقيم الإنسانية" فى مواجهة القيم الإلهيـــة، والـــتى يمكن القول بأنها ظهرت أكثر ما ظهرت عند من سموا "عصبة المجان"[2].

.. وعند الذين توغلوا فى عالم الإلحاد "والإلحاد يعنى فى النهاية المادية[3].

مـــن هذا نرى أن الأمر قد تحول من صراع قومى، إلى صراع على تقرير مصير الثقافة الإسلامية كلها[4]، فلم يكن الهدف تماماً هو تفويض الأمة الإسلامية، ولكـــنه محاولـــة لإعادة تشكيل النظم السياسية والاجتماعية والروح الداخلية للثقافة الإسلامية.[5]

---

(١) دراسات فى حضارة الإسلام ٨٨.

(٢) تاريخ الإلحاد فى الإسلام. د. عبدالرحمن بدوى (المقدمة ج. ط).

(٣) سقوط الحضارة : كولون ولسن. ترجمة : أنيس زكى حسن ٢٣٩.

(٤) دراسات فى حضارة الإسلام ٨٦.

(٥) المصدر السابق نفسه ٨٨.

ولقد حمل راية الشعوبية بحق الشعراء والكتاب، ذلك لأنه لا الإيمان ولا الشك الفكرى يستهويهم "وإنما تستهويهم الأحداث العنيفة التى تلهب عواطف وتثير ثائرة خيالهم، وليس أدعى من إلهاب العاطفة وإثارة الخيال من نزعة الشعوبية، تذكر بمجد تالد يعتزون به، ويتغنون بعظمته[1]"، ولقد وصل بهم الأمر إلى حد التأثير على الشعراء العرب، على نحو ما نعرف من سينية البحترى التى يقول فيها:

حللٌ لم تكن كأطلال سُعْدى

في قفار من البسابس ملس

ومساعٍ – لولا المحاباةُ منى –

لم تُطِقْها مسعاةُ عنس وعبس

فهؤلاء قد رفعوا أعلام الثقافة، ونظروا إلى الوراء فى غضب، وقدوا فصولاً من السخط لا فصلا واحداً.

من كل هذا نرى أن هذا النوع الذى سميناه "الشعوبية الداخلية"، كان فى أول أمره وجهة نظر متقدمة ومؤمنة بالإنسان وقيمته ودوره فى الحياة، ثم تحولت بعد ذلك إلى صراع قومى مفرغ من الروح الدينية، ثم تحولت بعد ذلك إلى صراع ضد العروبة وضد الإسلام نفسه، فبعد أن كان بنو طاهر مثلاً – وهم شيعة – يفاخرون العرب ويقولون : إن العربى لا يفلح إلا ومعه نبى، وكأنهم لا يسلمون بغير نبوة محمد[2]، أصبحت مجموعة من الفرس تعمل للتبشير بالديانة المانوية، وتعمل على المخالفة للقيم الإسلامية وذلك بالمجاهرة بالمجون والشراب والخلاعة والانحراف الجنسى[3]، ويجب ألا تعنى كلمة الفرس عندنا كلمة الشعوبية كما هى العادة، ولنقرأ مثلاً ما يقوله ابن قتيبه "فأما أشراف العجم وذووا الأخطار منهم وأهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم ويرون الشرف ثابتاً"[4] صحيح أنه يجعل الراسخين فى

---

(١) تاريخ الإلحاد فى الإسلام ٣٢.
(٢) دراسات فى المذاهب الأدبية والاجتماعية ١٦٧.
(٣) الجذور التاريخية للشعوبية ٧٣، ١١٢.
(٤) رسائل البلغاء ط ٤ محمد كرد على ٣٤٥، دراسات فى حضارة الإسلام ٩٢.

الشعوبية من السفلة، والحشرة، وأوباش النبط ، وأبناء القرى ، ولكن الذى لا شك فيه أن الطوائف التى كانت تحس بالقلق الاجتماعى والنفسى، والمتمثلين تماماً فى الفقراء هم الذين رفعوا رايات الخلاف على أكثر من قلعة، والذى لا شك فيه كذلك أن مجموعة من هؤلاء الغاضبين كانوا يتمزقون أمام التناقضات التى يغص بها عصرهم، وأنهم حاولوا إحداث حركة تغير حاسم فى عصرهم، وحاولوا إعادة تشكيل الحياة من حولهم ولم يكن أمامهم إلا أن يصطدموا بالنظام الذى حولهم مع ما يمثله هذا النظام الذى لا يزعم أحد أنه كان النظام الأمثل، على أن هذا لم يكن شراً كله، ذلك لأنه أمام هذه التحريات العقلية ولدت من داخل آراء أهل السنة "حركة متصلبة تعطى العقل اهتماماً انبثقت المعتزلة عنها فيما بعد[١].

ثم كان الصوت القوى الذى أحاط بالشعوبية ، وحاصرها، وألقى الأضواء عليها واحداً من هؤلاء المعتزلة.. هو عمر بن بحر الجاحظ "الذى أقام أدباً إسلامياً جديداً راسخاً على أسس العلوم الإنسانية العربية"[٢].

يلاحظ أن الأستاذ أحمد أمين حين تعرض لهؤلاء الذين اعتنقوا الشعوبية قال: إن الشعوبيين كانوا أصنافاً مختلفة ، منهم فرس، ومنهم نبط ، ومنم قبط، ومنهم أندلسيون، ولكل من هؤلاء صبغته الشعوبية، فالفرس صبغت صبغة وطنية تدعو إلى الاستقلال، واتخذت فى بعض الأحيان شكل زندقة وإلحاد، والنبط ظهرت فى شكل عصبية للأرض وزراعتها ، وتفضيل معيشة الحرث والزرع فى الصحراء ومعيشتها، والقبط ثاروا ثورات مختلفة على العرب، وأرادوا طردهم من بلادهم، وكانت آخر ثوراتهم الكبيرة فى عهد المأمون ، فلما هزموا لجأوا إلى الكيد بأعمال الحيلة واستعمال المكر، وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم فى كتاب الخراج، وفى الأندلس ظهر ابن غريسة، ووضع رسالته فى الشعوبية ورد عليه كثير من العلماء"[٣]، والملاحظ هنا أنه لم يتعرض للسود.

---

(١) دراسات فى حضارة الإسلام ٩٢.
(٢) المصدر السابق نفسه ٩٣.
(٣) ضحى الإسلام ١/٦٠.

أمـــا الدكتور عبدالعزيز الدروى، فتحت عنوان ذيول الشعوبية نراه يذكر أن هـــناك جماعـــات انتقدت العرب أو هاجمتهم ولكنها لم تفكر فى إعادة سلطان.. أو القيـــام بـــثورات، وبعـــد أن يعرض للنبط يقول بالنسبة للسود "كما أننا نجد بعض الإشارات إلى محاولة السودان تأكيد فضلهم ومزاياهم، وقد أورد الجاحظ الكثير من ذلك فى رسالته الموسومة بكتاب فخر السودان على البيضان.. ولكن هذه الإشارات إنمـــا تدل على محاولة لإثبات كيان اجتماعى لجماعات تحس بحاجتها إلى ذلك فى المجـــتمع العـــربى الإســـلامى، ومـــن المتعذر وضعها فى النطاق النهجى العنيف للشعوبية"[1].

ونحـــن لا يهمـــنا – كمـــا فعل بعض – أن نؤكد سذاجة السود، وأنهم كانوا قطعانـــاً طيبة تغطى المنطقة العربية الإسلامية، ذلك لأن الثابت أنه قامت لهم ثورة وقام باسمهم نظام استمر عدداً كبيراً من السنوات، وأن المجتمع العباسى لم يزلزل بـــثورة مثل ثورتهم، وإذا كانت هذه الثورة قد خلت من الأصوات المعبرة لأسباب خاصـــة بها، فإنه يمكن القول: أين الأصوات الخاصة التى نطقت مثلا باسم ثورات القـــبط التى اعتبرت شعوبية ؟ ثم إن ثورة الزنج لم تقف عند محاولة إثبات الكيان لأنها تخطت هذه المرحلة بعدة مراحل حين وقفت عند ما سميناه "القومية السوداء" فى مواجهة المحيط العربى الذى يحيط بهم.

ثـــم إنه قد سبق لنا أن أوردنا عدداً من القصائد لشعراء سود هم الحيقطان، وســـنيح بن رباح، وعكيم الحبشى، ونحن لن نتعرض لإعادة ما ذكرناه سابقاً، ذلك لأنهـــا – بخـــلاف مـــا يـــروى الدكتور الدروى – لا يصعب وضعها فى الإطار الشـــعوبى، صحيح أنها كانت سلسلة من ردود الفعل للظروف الخاصة التى تحيط بهـــم، ولكـــن دراسة هذه القصائد توضح – فيما نزعم – أنها من أقسى ما قيل فى العـــرب، وأنها تعرضت لجوانب ما نحسب أحداً من الشعوبيين قد تعرض لمثلها، ومـــن الملاحـــظ أنه برغم السخرية الجارحة لم يتعرضوا للدين، وإن كانوا ينفون فضله على العرب.

(١) الجذور التاريخية للشعوبية ص١١٦، ١١٨.

فأما التى قلتم فتلكم نبوةٌ

وليس بكم صَوْنُ الحرام المستر

مـن هـنا نرى أن الشعراء السود كانوا هم "الشعوبيين الأول" كما سبق أن ذكـرنا، أمـا الشعراء الذين جاءوا بعد ذلك فى العصر العباسى بصفة خاصة، فقد اسـتفادوا ممـن سـبقهم، ثم قالوا الكلمة التى تتفق مع عصرهم أما هؤلاء فكانت قصائدهم المشاقة للعرب مجموعة منظمة من الانفجارات.

.. ويمكـن تفسـير هذا، من خلال ما تحدثنا عنه حين تكلمنا عن الشعوبية، بـأنهم كـانوا مـن أوائل الذين تنبهوا إلى حقيقة التناقض فى المجتمع، وإلى هذا الأخـدود الـذى يتسع يوماً بعد يوم بين النظرية التى تأخذ بها الأمم وبين التطبيق، ومن ثم كان احتجاجهم بالشعر فريداً فى نوعه.. وكانت ثورتهم كما قلنا ثورة جنس عـلى جـنس، لا ثورة حضارة على حضارة، ومع أنهم كانوا يلوون أعناقهم إلى حضارة الإنسان الأسود، وبخاصة ما كان منها فى الحبشة، إلا أنهم لم يأتوا فى هذا المجال بشىء هام وذلك لا نقطاعهم عن هذا العالم الأسود الذى قدموا منه، ولأنهم كـانوا لا يمـلكون - لفقرهم الغالب - حتى التنقل فى هذا العالم الذى ودعوه من قبل.. أو تركوه بدون وداع! على أنهم لم يخفقوا تماماً، ففى أواخر الدولة الفاطمية ظهـرت طـبقة جديـدة مـن السّود، فالخلفاء الفاطميون قد أخذوا فى آخر حياتهم بالاستعانة بقوات من السوّد، وبخاصة الأجناس، فقد كان منهم فى أيام صلاح الدين مائة ألف مقاتل سودانى وكانوا يحرسون النظام.



صلات السّود بالعرب حديثاً

صلات السود بالعرب حديثاً

(أ) لقــد كانت إفريقية هى الامتداد الطبيعى للتقدم العربى الإسلامى القادم من آسيا، ولقد كانت طبيعة المتقدمين فى الغالب تتمثل فى شعوب بدوية رعوية أو شبه رعوية تعتمد فى الغالب على ظهر الإبل والخيل، ولقد كانت البلاد التى انتشر فيهــا الإسلام "تحيط بالصحراء الكبرى شمالاً فى المنطقة الممتدة على حدود مصــر الغــربية حتى المحيط الأطلسى، وجنوباً عبر وادى النيل حتى حدود الــنوبية، وفى الــنطاق الــرعوى الذى يحيط بهذه الصحراء من الجنوب من مصــب نهــر السنغال حتى السودان.. على أن الإسلام لم يستطع أن يتخطى الحواجــز الطــبيعية الكــبرى وهى شلالات النيل وهضبة الحبشة، ومنطقة البحيرات الكبرى وما يكتنفها من أدغال"[1].

عــلى أنه بالإضافة إلى خطوات الجهاد ظهرت أدوار هامة للفرق الصوفية كالقادريــة، والتيجانية، والسنوسية، بالإضافة إلى حركة انتشار الإسلام على رقعة كــبيرة مــن أفــريقية بوساطة التجار، وبوساطة عدد كبير من الدعاة والمعلمين، وبخاصــة الإفريقيين منهم مثل عثمان دان فوديو، ومحمد الأمين الكانمى، والحاج عمــر بــن إدريــس، ومحمد المهدى، وإمام الصمد، فبوساطة هذه القوى استطاع العــرب أن يكــون لهم امبراطورية فى إفريقية، والجدير بالذكر أن أعظم الأعمال الــتى تحققــت على أيدى المسلمين فى إفريقية قد قامت بعد انحلال "الإمبراطورية العــربية "فى المشــرق" فقــد كان العرب يرون فى قدرة الشعوب الإفريقية على التطور ما يحقق أغراضهم الخاصة بنشر أفكارهم الجديدة فى هذا الجزء من العالم، وخــلال الفــترة ما بين عام ٨٠٠، ١٣٠٠م حينما كانت مدنية الإسلام لا يمكن أن يــباريها فى مجــال الفكر والفن والعلم والإدارة أى جزء من أجزاء العالم، كانت أيضــاً الفــترة التى ازدهرت فيها بعض الممالك الإفريقية الكبيرة، وقد لعب البربر فى شمال أفريقية دوراً عظيماً فى تاريخ العالم الغربى والأجزاء الآسيوية الغربية، كمــا كــانت هناك أضخم وأعظم الممالك السودانية جنوب الصحراء الكبرى حيث وجد الإسلام فيها مرتعاً خصيباً يستطيع أن يجول فيه ويصول[2].

---

(١) انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية . د- حسن إبراهيم حسن ط٢ ص١٠.

(٢) موجز تاريخ أفريقية. رولاند أوليفر، جون فيج. ترجمة الدكتورة دولت أحمد صادق. ٧٤.

المهم أن دور الإسلام[1] لم يقف عند استيعاب كل ملامح الشعوب الإفريقية، ذلك لأنه استطاع بعد فترة أن يكسر حاجز الصحراء الكبرى ثم يكون جنوبها الممالك والتجمعات الآتية[2]:

١- مملكة غانة.

٢- مملكة مالى.

٣- مملكة صنغاى فى جوا.

٤- شعب الحوصة – شمال نيجيريا.

٥- شعب اليوروبا – جنوب غرب نيجيريا.

٦- مملكة برنو – شرق نيجيريا.

٧- مملكة الكانم – شمال شرق بحيرة تشاد.

٨- إمارات موسى – داجمبا.

٩- مملكة البمبارا – فى سيجو وكارتا.

١٠- مملكة صوصو – فى كانياجا.

المهم أن الإسلام فى إفريقية قد أحاطها من الشرق والشمال والغرب، ثم تناثر فيها بعد ذلك، وهذه الإحاطة يشبهها هوبير ديشان بالهلال، فالإسلام يحيط إذن بالقارة من غربها وشمالها وشرقها من مدينة داكار غرباً على ساحل "السنغال حتى يبلغ مدينة كليمان فى موزمبيق البرتغالية، ويتسع عرضه تارة ويضيق تارة فى شكل أشبه ما يكون بهلال يذكر الناظر إليه على الخريطة برمز الإسلام"[3].

وفى الوقت نفسه نرى أن العوائق القديمة أمامه قد تكسرت، فكما اكتسح السهول رأيناه يتعلق بالمرتفعات، ورأيناه يتخطى أقاليم السافانا إلى الغابات[4].

---

(١) المصدر السابق نفسه ٨٧.

(٢) دول إسلامية أفريقية : د. عبده بدوى ص٣٦ وما بعدها، مع حركة الإسلام فى إفريقية د. عبده بدوى ص٩٤ وما بعدها.

(٣) الديانات فى إفريقية السوداء: ترجمة أحمد صادق حمدى ص ١٤١.

(٤) دول إسلامية فى إفريقية ، د. عبده بدوى ٣٦.

وقد نشأت فى ضوء هذا سلالات عربية إفريقية تتفاوت فيما بينها نسبة الدم واللون، مما ترتب عليه عدم وجود حد لونى فاصل - فى غرب إفريقية مثلاً - بين الدول العربية فى الشمال، والدول المستعمرة المسلمة فى الوسط، والدول التى يغلب عليها طابع البانتو فى الجنوب، بل إن الإسلام نفسه قد تشكل من حيث المظهر بصور كثيرة، وبخاصة فى المجال الصوفى.

ونحن لا ننسى هنا أن اللغة العربية التى احتفظت بالطابع التقليدى فى الشمال، وقد تزاوجت مع اللغات الأخرى فى غرب أفريقية وشرقها بصفة خاصة، مما كان من ثمرته أن ازدهرت لغتان كبيرتان من اللغة العربية، ففى الشرق ظهرت اللغة السواحلية التى تعتبر لغة "التفاهم العام" فى إفريقية الشرقية بحيث يمتد نفوذها من الصومال على موزمبيق، ويشتمل على أوغنده وكينيا وتنزانيا ورواندا أورندى والمقاطعات الشرقية من الكونغو وما كان يسمى بالروديسيات . وعلى كل فعدد من يتكلمونها يقدرون بأربعين مليوناً.

أما اللغة الثانية فهى "هوسا" وهى لغة تفاهم عام كذلك فى أقطار إفريقية الغربية والسنغال وغينيا وليبريا فى الغرب إلى شمال الكميرون فى الشرق، ويقدر عدد المتكلمين بها أكثر من ستين مليوناً من الأفريقيين[١].

وإذا أردنا تطبيقاً على هذا فإننا نجده فى وصف محمد الوزان الذى أطلق عليه اسم ليون الأفريقى - فيما بعد - لمقاعد العلم والثقافة على مدن نهر النيجر التى كانت تستورد الثقافة العربية من المثال، ونجده فى عدد من هؤلاء السود الذين تركوا مؤلفات بالعربية كمحود كاتى، ونجده حتى فى هؤلاء الذين وصفوا التجار بأنهم "عرب سود" يتحدث بعضهم العربية[٢].

(ب) ونحن يهمنا هنا أن نذكر أن هذا لم يتم فى غياب الإنسان العربى، فإذا تركنا الموروث الثقافى العربى، وإذا تركنا الإسلام حضارة متكاملة، فإنا لن نفقد وجود الجنس العربى وهو يتخطى بعدة مستويات - القارة الأفريقية منطقة بعد

---

(١) الديانات فى إفريقية السوداء ٩٥ وما بعدها، وإفريقية والاستعمار ص٢٤ محمد عبدالعزيز اسحق (بحث).
(٢) مطالعات فى الشئون الإفريقية ٢٠ جمال محمد أحمد.

منطقة، فالمسحة العربية كما يقول بازيل دافيد سون يمكن أن تجدها على شواطىء الكونغو[١]، ويمكن أن نجدها فى عديد من الوجوه التى نراها فى العديد من المناطق الإفـريقية ، ومـع أن بعضـا كباظيل دافيدسون يحاول أن يقصر هذا على تجارة الـرقيق العـربية، وإلا أن الحقيقـة تظهر على لسان جرينفل الذى كان وزيراً فى الكونغـو، فهو يقول: "لقد زور البلجيكيون فى الكونغو فليست مدينة "استانلى فيل" سـوى مديـنة "تيبوتيب"[٢] الذى أقام هذه المدينة قبل قدوم الرحالة "ستانلى" وليس العـرب كما قالوا لنا تجار رقيق، وإنما هم تلك الموجة الإنسانية التى اختلطت بنا، وصـاهرتنا وتركوا لنا لغة متولدة من لغتهم ،وديناً ،وحضارة وسماحة تسرى بين كـل الـناس، كمـا تركوا على أرضنا دماءهم. والبلجيكيون يحصدونهم بالأسلحة الحديـثة، وليـس أعز علينا شىء من هذا الدم العربى الذى سال فى الماضى كما سـال ويسـيل دمـنا الآن فى بلادنـا عـلى أيدى أعداء العرب أنفسهم فى القرن الماضـى[٣]، ولسـنا هنا فى مقام تبرئة الكثير من العرب من تجار الرقيق ، ولكن الـذى نريد أن نصل إليه أن الجيش العربى كان مبثوثاً فى إفريقية، وأن الاستعمار حيـن قدم إليها قد جعل من اهتماماته تصفية مواقعهم، والضغط على ما يمثلونه من ديـن وثقافـة ، خاصة وأن الزعماء العرب والمسلمين كانوا هم الممثلين الحقيقيين لحـركة المقاومة لهم وهم يضعون أيديهم على إفريقية، ولقد كان فى مقدمة هؤلاء المقـاومين ضد سقوط إفريقية فى أيديهم تيبوتيب، والوداد محمد بن عبدالله حسن، ومحمد أحمد المهدى، والسلطان رابح فضل الله، والسلطان على دينار" وعثمان دان فوديو، والحاج عمر تال، وماء العينين، والسلطان سعيد.. وكل واحد من هؤلاء له حروب كثيرة مع الاستعمار الأوربى[٤].

أمـا الزعمات الإفريقية – خارج دائرة العرب والمسلمين – فالتاريخ لا يقدم لهـم أدواراً تشـبه من قريب أو من بعيد دور هؤلاء الزعماء الذين سقوا الأرض بالدمـاء فى صـراعهم مع هذه القوى الرهيبة المتقدمة، ففى الشرق نرى الأحباش

(١) صحوة إفريقية . ترجمة عبدالقادر حمزة.
(٢) هو الزعيم حميد بن محمد بن جمعة المرجبى الذى يمتد نسبه إلى قبيلة المرجبية العربية.
(٣) شخصيات إفريقية د. عبده بدوى ١٢.
(٤) شخصيات إفريقية ٩ وما بعدها.

يضعون أيديهم فى أيدى البرتغاليين لضرب المسلمين، وتقصير خطوطهم البحرية والبرية، وفيما وراء ذلك نرى أن عدداً كبيراً من الزعماء الإفريقيين قد وقعوا فى حبائل المعاهدات، والهدايا والتبشير، فى الوقت الذى كان فيه هؤلاء الزعماء الذين تحدثنا عنهم يسقطون الواحد بعد الآخر فوق إفريقية وهى تسقط.

وبعد أن انحسرت موجات الاستعمار عن إفريقية ولم تبق إلا "بقع" قليلة رأينا هؤلاء العرب والمسلمين يأخذون دورهم فى الإسهام الحقيقى فى حركة الحياة هناك.

وفى الجولة التى قام بها الوفد المرسل من قبل المؤتمر الإسلامى عام ١٩٥٦ للقيام بدراسة شاملة لأحوال المسلمين فى إفريقية.. نرى الدكتور حسن أحمد محمود يذكر أن المسلمين هناك، وقد تركوا السلبية التى فرضت عليهم، وأنهم أخذوا بأسباب الحضارة الغربية، وأصبحوا فى غرب إفريقية مثلاً عنصراً فعالاً فى بعث الوعى القومى وشاركوا فى الحركات التحريرية، وتولوا أعظم المناصب، ولم ينسوا تقاليدهم الإسلامية، أو ثقافتهم الإسلامية، بل حرصوا على التعاليم الدينية حرصهم على الحياة، وتجاوبوا مع جماهير المسلمين فى كافة أنحاء العالم الإسلامى، وكذلك الحال فى شرق إفريقية.

ونحن نرى فى مجال السياسة أنه كانت هناك دائماً سياسة للتقرب بين العرب وإفريقية كما هو الحال فى مؤتمر باندونج، ومؤتمرات الدار البيضاء، ومؤتمرات القمة الإفريقية، وباقى المؤتمرات الأخرى التى كانت تضم الآسيويين والإفريقيين.

كما أن العرب وقفوا دائماً وبحسم إلى جانب القضايا الإفريقية.

وبالإضافة إلى هذا كان هناك دائماً خط التعليم العام والجامعى الذى كان يتأكد دائماً سواء أقدم الإفريقيين من بلادهم إلى البلاد العربية وبخاصة جمهورية مصر العربية أو ذهب المعلمون العرب إليهم فى العديد من المناطق الإفريقية ويجب ألا ننسى إسهام مصر فى التعليم العام فى السودان، وإنشائها فرعاً لجامعة القاهرة بالخرطوم عام ١٩٥٥. وإلى جانب هذا يوجد عدد من المراكز الثقافية على عدة مناطق هناك، كما يوجد عدد من الخبراء العرب يقومون بالعديد من الأنشطة فى إفريقية.

وقد كان هناك دائماً العديد من المحاولات لتعميق العلاقة بيننا وبين الإفريقيين، وكان فى مقدمة المحاولات الناجحة، معهد الدراسات الإفريقية، "الرابطة الإفريقية" ومجلة نهضة إفريقية[1] التى استمرت سبع سنوات فى خدمة كل ما يتصل بإفريقية من قريب أو بعيد، ولقد كان من اهتماماتها ما عبرت عنه بقولها: إن الكثيرين يدركون أنه كانت هناك عملية متعمدة لإبعاد كل ما يتصل بإفريقية عن المواطن العربى، وأنه شىء آسيوى يجب أن يقف عند حدود دون التقدم إلى جهة من الجهات، ولكن الجميع قد أدرك الآن أنه ليس للعروبة فى آسيا أكثر مما لها فى إفريقية.

أما الإعلام فقد كان لمصر دور ملحوظ فيه، فإلى جانب قيام إذاعة ركن السودان كبرنامج أسبوعى فى عام ١٩٤٨. ثم استقلاله فى إذاعة كاملة، فإنه قد تم إنشاء إذاعة صوت إفريقية عام ١٩٦١.

ومن هنا يأتى دور المواطن العربى فى عدم الانعزال عن القارة، ويأتى دوره فى تحطيم أسطورة أن يقف عند شمال الصحراء، ذلك لأن فكرة التقسيم فكرة دخيلة يختفى وراءها الاستعمار ، والتبشير، والاحتكار.

ثم إن المواطن العربى ليست له أغراض توسعية، وهو يحس أنه مهدد طالما كان هناك ظل للاستعمار، وتاريخ العروبة فى القاهرة – مهما أشاع المؤرخون الغربيون – يشع بالسلام، والحرية، والرفاهية، ولو خلى بينهم وبين القارة فى الفترة التى مزق فيها الاستعماريون إفريقية، لكانت هذه القارة من أولى القارات فى الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى، فالأمواج العربية استقرت فى كل مكان وصلت إليه، وأسهمت فى إثرائه ، وشاركت فى تقدمه وسعت بحماسة إلى الاندماج فى الإفريقيين عن طريق المصاهرة، والتاريخ لا يذكر لنا حتى ما سجله أعداء العروبة أن جماعة عربية وضعت يدها على أية ثروة اقتصادية من ثروات القارة، ثم حملتها إلى موطنها الأول، وحرمت منها أبناء البلاد[2].

(١) أسعدنى الحظ فى العمل مديرا لتحريرها طيلة فترة صدورها.

(٢) مجلة نهضة إفريقية العدد ٣٦ مقال: الجمهورية العربية المتحدة وإفريقية. د. عبده بدوى.

... وعـــلى كل فإن العرب إذا كانوا قدموا من أزمان عديدة إلى هذه القارة وامتزجوا بها امتزاجاً حاراً، فإنه من الصعب القول بأنهم طارئون أو غرباء فضلاً عن القول بأنهم مستعمرون ، ذلك لأن أولى خصائص الاستعمار استغلال الأرض وامتصـــاص قوى الشعب وقد ظل الاستعمار فى إفريقية غريباً، وظل المستعمرون المتغطرسون جميعاً غرباء يعتنقون ويطبقون مبادئ التفرقة العنصرية، أما العرب ففضـــلاً عـــن امتزاجهم بأوطانهم الجديدة، فقد ربطوا مصيرهم بمصير هذه البلاد وقاسموها أفراحها ومنحوها كل ما منحتهم من مزايا وخيرات[١].

(١) إفريقية والاستعمار ٢٤.

أشهر المصادر والمراجع

(أ) مخطوطات :

١- أزهار العروش فى أخبار الحبوش. جلال الدين السيوطى. دار الكتب تحت رقم ح ٢٨٣١٨ مجلد (١)

٢- رسائل للسيوطى . جلال الدين السيوطى. دار الكتب تحت رقم (٣٢ الفن مجاميع).

٣- رفع شأن الحبشان. جلال الدين السيوطى. دار الكتب مجلة رقم (٢) تحت رقم (ح ٢٨٣١٨).

٤- الطراز المنقوش فى محاسن الحبوش. دار الكتب تحت رقم (٢٢٨٣).

٥- كتاب الملاهى وأسمائها . أبو الفضل المفضل بن سلمة. دار الكتب تحت رقم (٥٣٣ فنون جميلة).

(ب) مطبوعات :

١- الآمدى : المؤتلف والمختلف . تحقيق : عبدالستار أحمد فراج دار إحياء الكتب العربية ١٩٦١.

٢- الثعالبى : خاص منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت.

٣- إبراهيم الإبيارى : أبو المسك كافور.

٤- ابن قتيبه : الشعر والشعراء، والمعارف.

٥- ابن ناقيا البغدادى : الجمان تشبيهات القرآن. تحقيق د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثى.

٦- ابن دريد : الاشتقاق . تحقيق عبدالسلام محمد هارون . مطبعة دار المحمدية ١٩٥٨.

٧- أبو حيان التوحيدى : الإمتاع والمؤانسة، شرح أحمد أمين وأحمد الزين.

٨- البصائر والذخائر : جـ١، ٢ تحقيق د. براهيم الكيلانى .

٩- أبـو الفرج الأصبهانى : الأغانى جـ١ دار الكتب ، ط ساسى، ط الهينة م ٤٠ . للتأليف.

١٠- أحمـد إبـراهيم الشـريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول – دار الفكر.

١١- أحمد أمين : فجر الإسلام ، ضحى الإسلام ، ظهر الإسلام، الصعلكة والفتوة فى الإسلام.

١٢- البيهقى : (إبراهيم بن محمد البيهقى) المحاسن والأضداد، تحقيق أبو الفضل إبراهيم. مطبعة نهضة مصر.

١٣- الثعالبى : فقه اللغة سر العربية. المكتبة التجارية ١٩٢٧.

١٤- الجاحظ : البيان والتبيين، الحيوان، البخلاء، رسائل الجاحظ.

١٥- الجهشـيارى : الـوزراء والكتاب تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبيارى، عبدالحفيظ شلبى، جـ١، مصطفى البابى الحلبى.

١٦- الإبانـة عـن سـرقات المتنبى لأبى سعيد محمد بن أحمد العامرى تحقيق: إبراهيم الدسوقى البساطى ص١٦٢ (دار المعارف).

١٧- الحـافظ جلال الدين السيوطى: نزهة العمر فى التفضيل بين البيض والسود والسمر . المكتبة العربية. دمشق.

١٨- د. حسـن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية. مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨م.

١٩- الحيـمى (الحسـن بـن أحمد) : سيرة الحبشة. تحقيق د. مراد كامل، وزارة التربية والتعليم.

٢٠- شهاب الدين أحمد الأبشهى : المستطرف فى كل فن مستطرف. أشرف عليه إبراهيم الدسوقى.

٢١- د. طه حسين : ألوان ، حديث الأربعاء، الشعر الجاهلى.

٢٢- عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، دراسات فى المذاهب الأدبية الاجتماعية، داعى السماء، ما يقال عن الإسلام، المرأة فى القرآن الكريم، يوميات سعد زغلول.

٢٣- د. عبدالرحمن بدوى : شخصيات قلقة.

٢٤- د. عبدالرازق حميدة : أدب الخلفاء الأمويين، الأدب العربى فى مصر. مكتبة الأنجلو.

٢٥- د. عبدالعزيز الدروى : الجذور التاريخة للشعوبية، دراسات فى العصور العباسية المتأخرة.

٢٦- د. عبدالمجيد عابدين : بين الحبشية والعرب.

٢٧- د. عبده بدوى : دول إسلامية فى إفريقية، شخصيات إفريقية ، مع حركة الإسلام فى إفريقية.

٢٨- د. على عبدالواحد وافى : المساواة فى الإسلام ، مقدمة بن خلدون ط٢.

٢٩- د. فيليب حتى : تاريخ العرب ترجمة محمد مبروك نافع ط٢ مطبعة العالم العربى.

٣٠- القلقشندى : صبحى الأعشى جـ١ دار الكتب.

٣١- كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى . ترجمة د. عبدالحليم النجار جـ١، ٢، ٣، دار المعارف.

٣٢- المبرد : (أبو العباس محمد بن يزيد) الكامل فى اللغة والأدب. المكتبة التجارية.

٣٣- محمد بن حبيب : المحبر. عنت به الدكتورة إيلزه لختن شفير، مطبعة جمعية دار المعارف العثمانية. حيدر أباد، ١٩٤٢.

٣٤- محمـد الحفـنى القنائى : الجواهر الحسان بما جاء من الله والرسول وعلماء التاريخ فى الحبشان.

٣٥- محمد عبدالغنى حسن : دراسات فى الأدب والتاريخ. الدار القومية.

٣٦- المسعودى (أبو الحسن بن على بن الحسين) تاريخ مروج الذهب . المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦هـ.

٣٧- النويرى : (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب) نسخة دار الكتب.

٣٨- هاملتون جب : دراسات فى حضارة الإسلام. عن دار العلم للملايين.

٣٩- يوسـف البديعى : الصبح المنبى فى حيثية المتنبى تحقيق مصطفى السقا، ومحمد شتا، وعبده زيادة. دار المعارف ١٩٦٤.

40- The African Image by Ezekiel Mphahla

41- Rose, The Negro in America

كتب للمؤلف

١ – عشرة كتب عن إفريقية ، الدار القومية ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٢– خمسة كتب عن الإسلام ، الدار القومية ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٣– كتب فى تاريخ الأدب والنقد :

١– الشعر الحديث فى السودان، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الهيئة المصرية العامة للتأليف.

٢– فى الشعر والشعراء، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الهيئة المصرية العامة للتأليف.

٣– أبو تمام وقضية التجديد فى الشعر، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الهيئة المصرية العامة للتأليف.

٤– قضايا حول الشعر، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الهيئة المصرية العامة للتأليف.

٥– د. طه حسين وقضية الشعر، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الهيئة المصرية العامة للتأليف.

٦– العقاد وقضية الشعر، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الهيئة المصرية العامة للتأليف.

٧– خمسة من شعراء الوطنية ، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الهيئة المصرية العامة للتأليف.

٨– شعر إسماعيل صبرى، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الهيئة المصرية العامة للتأليف.

٩– دراسات فى العصر الحديث، جامعة الكويت.

١٠– دراسات تطبيقية، جامعة الكويت.

١١– على أحمد باكثير شاعراً غنائياً، جامعة الكويت.

١٢– فى الأدب واللغة، جامعة الكويت.

١٣– تجارب وتطبيقات، جامعة الكويت.

١٤– عبدالسلام هارون : باحثاً ومحققاً، جامعة الكويت.

١٥- قراءات ونصوص ، جامعة الكويت.

١٦- الأدب وروح العصر، جامعة الكويت.

١٧- دراسات فى النّص الشعرى : العصر الحديث، دار قباء.

١٨- دراسات فى النّص الشعرى : عصر صدر الإسلام وبنى أمية، دار قباء.

١٩- دراسات فى النّص الشعرى : العصر العباسى، دار قباء.

٢٠- دراسات فى النّص الشعرى : العصر الجاهلى، دار قباء.

٢١- حضارتنا بين العراقة والتّفتح ، دار قباء.

٢٢- نظرات فى الشعر العربى الحديث، دار قباء.

٢٣- الشعراء السود والحضارة العربية، دار قباء.

٢٤- السود والحضارة العربية، دار قباء.

٢٥- شعراء حول الرسول ، دار الزهراء.

٢٦- الشعر الإسلامى، دار قباء.

٢٧- الأعمال الكاملة فى الشعر جـ ١، ٢، ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

فهرس

الباب الأول

صلات السود بالعرب

الفصل الأول

صلات السود بالعرب قديماً

الفصل الثاني

التّصادم مع المجتمع

الباب الثاني

صلات السّود بالعرب حديثاً

هذا الكتاب

... نحن لا ننسى أن مصر بلد فى إفريقية، وأن الإفريقيين فى مقدمة ما يفخرون به أن الحضارة وُلدتْ فى مصـــر"، ولهذا كان من الطبيعى أن تتعرّف مصر على كل ما يتصل بإفريقية، وأن تقف إلى جانبها قديماً وحديثاً، وقد أخلص كل منهما للآخر.

فهـــذا الكتاب الموثق تعرّض فى أول الأمر إلى السواد : أسبابه وآثاره، وكل ما يتصل به، فقد تكلم فيما تكـــلم عـــن الجـــنس والدم، والجنس والذكاء، والجنس والـــثقافة.. الـــخ كما تكلم عن صلات السود بالعرب، وكيف امتدت هذه الصلات، فهناك الصلة بالأحباش قبل الإسلام والصلة بالأحباش بعد الإسلام، والصلة بالسود عامـــة، إلى جانب مكانتهم فى الجاهلية والإسلام، وهل دامـــت المســـاواة الـــتى دعـــا إليها الإسلام، وما مدى اندماجهم فى الحياة العربية والمصرية؟

وأخيـــراً كيف حدث التصادم معهم بعد الإسلام، وإلى أىّ حـــد وصـــل هـــذا التصادم، وكما يستمر هذا الـــلقاءُ، والاحتكاك فى الماضى يستمر فى الحاضر حباً ومودة، ويقدم صورة موضوعية على صلة هذا الإنسان بالعرب عامة، وبمصر خاصة، فى توثيق مؤكد.

أحمد غريب